



جوئییت غارمادی

اللسانة الاجتماعية

LA SOCIOLINGUISTIQUE
SOCIAL-LINGUISTICS

عَرَبِيَّة د. خليل أحمد خليل



جولييت غارمادي

اللسانة الاجتماعية

LA SOCIOLINGUISTIQUE
SOCIAL-LINGUISTICS

عزّيه د. خليل أحمد خليل

أستاذ اجتماعيات المعرفة / الجامعة اللبنانية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

حقوق الطبع محفوظة لدار الطليعة

بيروت - ص ب ١١١٨١٣

تلفون : ٣٠٩٤٧٠

٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٩٠

محتويات الكتاب

الرموز الصوتية ١٢

الفصل الأول: الفلسفة، العلوم الاجتماعية واللسان الاجتماعية

- ١/I - سميراث سوسجر ١٥
٢/I - اللسان، الفيزيولوجيا وعلم النفس ١٦
٣/I - اللسان، التاريخ والمجتمع ١٧
٤/I - العلوم الاجتماعية واللسان ١٨
٥/I - اللسان، اللسان الاجتماعية واجتماعيات اللغة ٢٢
٦/I - تلازم الناظر والمنظور إليه ٢٥

الفصل الثاني : المتحدات والتباين اللساني

روابط اللغة والجماعة

- ١/II - الوحدة، الاستقلالية والحيوية بين اللغة والجماعة ٢٧
٢/II - المتحد اللساني والجسم السياسي ٢٩
٣/II - مواقف لسانية ٣٠

التباين اللساني

- ٤/II - التباين ضمن الأمن وبينها ٣٢
٥/II - التلونات الجغرافية والتلونات الاجتماعية ٣٢
٦/II - التصنعات الوظيفية والاحكام القيميّة ٣٤
٧/II - تباين التصنعات الوظيفية ٣٥

- ٢٧ / II - التلونات والمنظومة: المتغيرات الحرة
- ٢٩ / II - التلونات والمردود الوظيفي للأضداد
- ٤١ / II - التلونات وتجديد تنظيم المنظومة جزئياً
- تفاعل لساني أم تفاعل اجتماعي؟
- ٤٢ / II - تعريف المتحد اللساني
- ٤٣ / II - مثال المتحد اللساني الفرنسي
- ٤٨ / II - المتحد الخطابي: المدار اللساني

الفصل الثالث : المواقف اللغوية الاحدية

- اللغة الاحدية والمجتمعات البسيطة
- ٥١ / III - البساطة: فرضية وواقع
- ٥٢ / III - اللغات الخاصة
- ٥٦ / III - تقلب المواقف اللغوية الاحدية
- المجتمعات المركبة والتلونات اللغوية
- ٥٧ / III - الموقف اللغوي الاحدي والمجتمعات المركبة
- ٥٨ / III - تشكل اللغة المسمّاة مشتركة (علمة)
- ٦٠ / III - الفوننة (الترميز)
- ٦٢ / III - التعبير (التطبيع)
- ٦٥ / III - اللون الشعبي
- ٩ / III - اللهجات الاقليمية (Alloctes)
- ٦٧ / III - واللهجات المحلية (Vernaculaires)
- ٧١ / III - التلونات الطفيلية: العامية (L'Argot)
- ٧٢ / III - التلونات الطفيلية: المصطلحات التقنية والطبية
- المعايير (الاعراف)
- ٧٤ / III - المعيار وما فوق المعيار
- ٧٧ / III - المعيار الفاعل والمعيار المتفعل

٧٩	١٤ / III - اكتساب المعيار الفوقي
٨٠	١٥ / III - المعيار والمعيار الفوقي والتلون اللغوي
	المواقف والتلونات اللسانية
٨٤	١٦ / III - المواقف (المواضع) والسجلات
٨٥	١٧ / III - التفعيل والسياق اللساني
٨٦	١٨ / III - الإبلاغ ضمن الموقف (الموضع)
٨٧	١٩ / III - قواعد الإبلاغ (الاتصال) الشفهي
٨٩	٢٠ / III - الإبلاغ خارج الموقف والتلون المطبوع (المُعَيَّر)
٩١	٢١ / III - المنظومة الشفوية للأفريقية المتداولة
٩٢	٢٢ / III - العُرف الكتابي والتلونات اللسانية
٩٣	٢٣ / III - الإبلاغ الشفهي خارج الموضع
٩٤	٢٤ / III - صواتة الإبلاغ الشفهي خارج الموضع
٩٦	٢٥ / III - التنافر المعياري والتصويب اللغوي الفوقي
٩٨	٢٦ / III - الميادين
٩٩	٢٧ / III - الميادين والسجلات
١٠٠	٢٨ / III - الكفاية الإبلاغية
١٠١	٢٩ / III - تصنيف السجلات
١٠٣	٣٠ / III - السجلات والتلونات
١٠٤	٣١ / III - السجلات المركبة
١٠٦	٣٢ / III - الوظائف الثانوية للغة
١٠٨	٣٣ / III - السجلات والتباين بين اللغات
١٠٨	٣٤ / III - إعداد الرسالة والمقومات الموقفية
١١٠	٣٥ / III - الرواسيز العليا (Surcodes)
١١١	٣٦ / III - الترميز الأسلوبية الفوقي والتباين اللغوي

الفصل الرابع : المواقف اللغوية المتعددة

التعددية اللغوية والمجتمعات «المبسطة»

- IV/١ - الثنائية اللغوية، التعددية اللغوية، الاحتكاكات اللغوية ١١٥
IV/٢ - اتصال اللغات والمجتمعات «المبسطة» ١١٦
IV/٣ - مثال فوييس (Vauvès) : موقف عام ١١٧
IV/٤ - القبيلة، الوحدة الزواجية الخارجية، الجماعة اللسانية ١١٨
IV/٥ - اللغات المتواصلة واكتسابها ١١٩
IV/٦ - التصنّع الوظيفي في اللغات المتواصلة ١٢١
IV/٧ - سمات التعددية اللغوية الهنوبية ١٢٢
IV/٨ - مسائل نظرية ١٢٥
IV/٩ - الفصل الوظيفي بين اللغات
لغة واحدة أم لغتان ؟

- IV/١٠ - المسافة بين اللغات ١٢٨
IV/١١ - المقومات البنوية ١٣١
IV/١٢ - التعددية اللغوية وتقارب المنظومات ١٣٢
IV/١٣ - التقارب والكيمات (morphèmes) ١٣٤
IV/١٤ - الوظيفة الاجتماعية للكيمات (monèmes) الصرفية ١٣٥
IV/١٥ - العوامل البنائية وغير البنائية ١٣٦

التعددية اللغوية والمجتمعات المركبة

- IV/١٦ - الدولة واستقرار تعددية لغوية ١٣٨
IV/١٧ - المركزية واللهجات المحلية ١٣٩

الموقف الفرنسي

- IV/١٨ - اللهجات المحلية، المدينة والريف ١٤١
IV/١٩ - نحو تبدل اللغات ١٤٣
IV/٢٠ - استمرار اللهجات المحلية ١٤٦

١٤٨	٢١/IV - الاستعدادات اللغوية
١٥٠	٢٢/IV - الدينامية المعاصرة للهجات المحلية في فرنسا
	الثنائية اللغوية ، الأزواج اللغوي والتواصل الخطابي
١٥٢	٢٣/IV - الأزواج اللغوي
١٥٣	٢٤/IV - لوان في مقام اجتماعي مختلف
١٥٤	٢٥/IV - لوان في منظومة واحدة
١٥٦	٢٦/IV - ديناميّة المواضيع اللغوية الأزواجية
١٥٨	٢٧/IV - الأزواج اللغوي : معايير اللسانية والاجتماعية
١٥٩	٢٨/IV - الثنائية اللغوية والأزواج اللغوي
١٦١	٢٩/IV - التواصل الخطابي : الوضع الجامعي
١٦٢	٣٠/IV - التواصل الخطابي : الأوضاع العربية
١٦٤	٣١/IV - التواصل الخطابي : الأوضاع الفرنسية
	التداخل اللغوي
١٦٧	٣٢/IV - اتصال اللغات وتداخلها
١٦٨	٣٣/IV - التداخل المعجمي
١٦٩	٣٤/IV - الاقتراض المعجمي
١٧١	٣٥/IV - تدامج دالّ المقترضات
١٧٣	٣٦/IV - تدامج مدلول المقترضات
١٧٥	٣٧/IV - التداخل الصوتي
١٧٨	٣٨/IV - التداخل النحوي
	اللغات المزيج واللغات الموقدة
١٨٢	٣٩/IV - مثال لغة مزيج : الطاي بوا (Lehybwa)
١٨٥	٤٠/IV - صوارة الطاي بوا وعلم أصواتها
١٨٥	٤١/IV - معجم الطاي بوا ونحوها
١٨٧	٤٢/IV - العنوى

١٨٨	٤٣/IV - الخفض ، التبسيط ، الإفقار
١٨٩	٤٤/IV - حقلق اللغات المزيج والأحكام القيمة
١٩٠	٤٥/IV - تعدد أنساب اللغات المزيج والمولدة
١٩٢	٤٦/IV - وحدة النصب (الأهل)
١٩٥	٤٧/IV - تجديد البناء المعجمي
١٩٧	٤٨/IV - تجديد البناء النحوي
٢٠٠	٤٩/IV - اللغات المزيج والمولدة ، اليوم
٢٠١	٥٠/IV - الملائيزية الجديدة
٢٠٢	٥١/IV - نمو الملائيزية الجديدة : ترسيمة قديمة
٢٠٤	٥٢/IV - الملائيزية الجديدة في تصنعاتها الوظيفية
٢٠٦	٥٣/IV - أهمية الأبحاث حول اللغات المزيج والمولدة

الفصل الخامس - السياسات والتخطيطات اللسانية

٢٠٩	١/V - في تعدد التعريفات
٢١٠	٢/V - الممارسة القديمة : المثال الفرنسي
	التخطيطات اللسانية الأولى
٢١٢	٣/V - مسائل أوروبية
٢١٣	٤/V - في النرويج
٢١٤	٥/V - في استونيا
٢١٤	٦/V - فنلندا والسويدية
٢١٥	٧/V - العبرية الاسرائيلية
٢١٦	٨/V - اللغة والقومية التركيتان
	التخطيط اللساني ، الاستعمار وتصفيه الاستعمار
٢١٧	٩/V - مسائل اميركية - لاتينية
٢١٩	١٠/V - في الباراغواي
٢١٩	١١/V - في البرازيل

- ١٢/٧ - اللغات والاستيطانات ٢٢٠
- ١٣/٧ - اللغات ، تصفية الاستعمار واللغة ٢٢٢
- ١٤/٧ - التجربة العربية ٢٢٢
- ١٥/٧ - تخطيطات اللغة الماليزية ٢٢٧
- ١٦/٧ - من التجارب الإفريقية ٢٢٩
- التخطيط اللساني : تفاعل عدة عوامل**
- ١٧/٧ - التخطيط اللساني والمفاهيم الاقتصادية ٢٣١
- ١٨/٧ - التخطيط اللساني والمفاهيم الفكرية ٢٢٢
- ١٩/٧ - المثال الفيليبيني ٢٢٢
- ٢٠/٧ - الفكرية والتخطيط اللساني في الاتحاد السوفياتي ٢٢٤
- الابحاث والنظرية اليوم**
- ٢١/٧ - ثوابت التجارب الماضية ٢٢٧
- ٢٢/٧ - التوقع والمراقبة ٢٢٨
- ٢٣/٧ - المعيار ، المعيار الفوقي ، وصف أم وصفة ٢٢٩

الرموز الصوتية

إن الكتابات الصوتية والصوتية العلمية تستعمل هذا الرموز التالية

صوائت شفوية :

بالفرنسية	Si	مثل	i
بالفرنسية	thé	مثل	e
بالفرنسية	mettre	مثل	ɛ
بالفرنسية	pâte	مثل	a
بالفرنسية	lune	مثل	y
بالفرنسية	leu	مثل	ø
بالفرنسية	œuf	مثل	œ
بالفرنسية	e, الخرساء	مثل	ə
بالفرنسية	tout	مثل	u
بالفرنسية	beau	مثل	o
بالفرنسية	sorte	مثل	ɔ

صوائت لثوية :

lin	مثل	ɛ
bon	مثل	o
bon	مثل	ɑ

أما الرموز ʌ, y, w فتفيد الصوائت ذات العلق الموازي لـ u.

٥.٠ ، ولكنها صوائت مطبوعة بالتخلص الشفهي .
ويُشار إلى الامتداد الصوتي بـ : u, ɔ, ɛ .
لما الرمز u/o فيلاحظ تحقّقاً صوتياً إذا فتحة وسيطة بين فتحة
الصائتين u و o .

شبه صوائت

يشير w إلى أشباه الصوائت العقبلة لـ u و ɔ ، و v شبه
صائت شفهي يخرج من بين الأسنان .

الصوائت

بالفرنسية	poule, pas	مثل	p
بالفرنسية	boue, bas	مثل	b
بالفرنسية	mou, mie	مثل	m
باليابانية : تحقّق /p/ في اللون الشعبي بالتوسكانية : ملفوظ بالشففتين احتكاكي ، أصمّ .	h في huzi	مثل	ɸ
بالفرنسية	lou, fils	مثل	l
بالفرنسية	vous, vie	مثل	v
بالانكليزية ، ملفوظ بين الأسنان أصمّ .	thing	مثل	θ
بالانكليزية ، ملفوظ بين الأسنان ، رنان .	there	مثل	ð
بالفرنسية	tout, ta	مثل	t
بالفرنسية	doux, dit	مثل	d
بالفرنسية	nous, ni	مثل	n
بالفرنسية . nɔ/و بالامبالية	rogne	مثل	ɲ
بالانكليزية	sing	مثل	ŋ

بالاسبانية : gli بالاطالية	llano	مثل	λ
بالفرنسية، متعوجة، منخبة (رثوية).	« ملتوية »	مثل	ɾ
بالفرنسية .	sous, scie	مثل	s
بالفرنسية	zèle	مثل	z
بالفرنسية	chat, chou	مثل	ʃ
بالفرنسية	jeu, jour	مثل	ʒ
بالفرنسية	qui, cas, cou	مثل	k
بالفرنسية	gui, gars, goût	مثل	g
	مثل خ بالعربية ، /axax/ بالروسية		x -
	« المثلثة » بالفرنسية ؛ غ بالعربية .		ʁ ,
	تحقق احتكاكي من الخلف لـ /l/ الفرنسية .		ʎ
	ح بالعربية ، ملفوظ من البلعوم ؛ اصم .		ç ,
	ع بالعربية ، ملفوظ من البلعوم ؛ رنان .		ʕ ,
	ه بالعربية ، زديمي رنان ، احتكاكي .		h ,
	ه بالعربية ، ساند ، زديمي .		ʕ ,
	ق بالعربية ، زديمي ، لهوي .		q ,

إن النقطة الموضوعة تحت الصوامت (ʔ , ɣ , ʕ) تشير إلى تفخيم الصوامت .

الفصل الأول

اللسانة، العلوم الاجتماعية واللسانة الاجتماعية

I / ١ - ميراث سوسير

في البدء كان سوسير (Saussure) ... إلا أن أعمال هذا الباحث الجنيقي، التي ستتأسس أعمال اللسانة العلمية إلى حد كبير، لن يكون لها، نسبياً، سوى إصداء قليلة في ما سيكون عليه الفكر اللساني - الاجتماعي لاحقاً. فهي لن تقدم، حتى في أوروبا الغربية، كنقطة انطلاق حقيقية ووحيدة للأبحاث اللسانية - الاجتماعية.

في الحقيقة، لم يكن شاغل سوسير الأول إرساء الأسس الكافية لدرس العلاقات بين اللغات والمجتمعات، وإنما كان هاجسه بالأولى تحديد موضوع وإيجاد طرائق لللسانة ذاتها. إن اللغة منظومة لا تعرف سوى نظامها الخاص بها (Cours، ص ٤٢) ^(١)، وإن واحدة من مهمات اللسانة الأولى هي أن تحدد ذاتها ولن تعرف نفسها، كما يعلن سوسير. وعلى هذا النحو، كان يشترط في المقام الأول توفر الاستقلالية الأعظم لعلم جديد في حينه، وكان يتعين عليه

(١) عنوان المراجع وأريد هنا في صورة مختصرة، وسومية في النص؛ أما العنوان الكامل فهو وارد في لائحة المراجع (Bibliographie)

لأن يفرض ذاته بتحديد موقعه بكل وضوح في مواجهة علوم أخرى
(فيزيولوجيا ، علم نفس ، منطق ، فلسفة ، علم اجتماع ، تاريخ)
جرت العادة منذ أمد بعيد على إلحاقها كلها أو بعضها بدراسة
اللغات .

أ/ ٢- اللسان، الفيزيولوجيا وعلم النفس

كان رأي سوسير واضحاً في العلاقات بين اللسان
والفيزيولوجيا . ففي نظره ، يُعتبر جوهر اللغة غريباً عن الطابع
الصوتي . كما لئن الأعضاء الصوتية تعتبر خارجية بالنسبة إلى
منظومة اللغة ، بقدر ما تعتبر الأجهزة الكهربائية التي تستخدم في
نسخ أبجدية مورس (Morse) غريبةً عن هذه الأبجدية أمام اقتناع
كهذا ، ساد في ما بعد تردد طويل في إعادة النظر في جمود أعضاء
التصويت ولا تناسقها ، بوصفها عوامل اشتراط لا يمكن تجاهلها في
الديناميكية النمطية وفي تطور المنظومات الصوتية الطبيعية
(الفونولوجية) .

كان سوسير ، في معرض استقهامه عن العلاقات بين اللسان
وعلم النفس ، يتساءل عما إذا كان في إمكان اللغة أن تقيد في إبراز
النمط الذهني وتمييزه ، وما إذا كانت اللغة تعكس الطابع
البيولوجي للجماعة أو للامة التي تتكلمها . إن رده الأوضح يقع
في نطاق الصوتية التعليلية . ليس لطابع الجماعة اللغوية النفسي
سوى أهمية ضئيلة بأزاء الغاء صائت أو تعديل نبرة . ولكن النظرية
السوسيرية ، من جهة ثانية وبكيفية عامة ، لا تقوم على أساس طبيعة
مع علم النفس الماثور (الكلاسيكي) . ومثال ذلك ، وكما بلغتنا
جورج مورتان (Georges Mouton , Problèmes , p.23) أن الصيغة
السوسيرية للغة إن الإشارة (العلامة) اللسانية لا تجمع شيئاً
واسعاً ، بل تجمع تصوراً وصورة سمعية ، إنما تقترض الرابطة التي

يمكنها أن تجمع بين التصورات والأشياء ، كمعطى من معطيات علم النفس . إن التحليل السوسيري لمفهوم المعنى يتلّ قلتماً على علم نفس العصر ، ولا يتصلّ عن الطبيعة الشمولية للمفاهيم ، بوصفها انعكاساً لاختبار بشري شامل .

I/3- اللسان، التاريخ والمجتمع

يقرّر سوسير أنّ اللغة منظومة علامات لودعها مرأس الكلام في الجمهور المتكلّم ، وأنّ المنظومة ناتجة عن تبلور اجتماعي ، وأن الطبيعة الاجتماعية هي طابع داخلي للمنظومة ، وأنّه لا توجد حقيقة لسانية خارج الديمومة والجمهور المتكلّم . وأن الزّمن وحده يادّن للقوى الاجتماعية بممارسة تأثيراتها على اللغة ، إلخ . بعدما لحكم الربط ، داخل الديمومة ، بين المنظومة اللسانية والواقع الاجتماعي والجمهور المتكلّم ، اكتفى سوسير بالتوقف عند استخلاص الحد الأدنى من نتائج هذا الربط . فإذا كان يتعيّن النظر في تشكيلة عوامل التبدّل ، لكي نطم إلى أي حد تكون ضرورية - كما كتب سوسير - فمن الأفضل التخلي ، مؤقتاً ، عن تقديم جردة دقيقة بأسباب قابلية التبدّل . ففي نظر سوسير ، أن يكون التبدّل اللساني مجرد تغيّر ، وأن يكون التاريخ ديمومة وحسب ، وأن ينحصر تكثّف الوقائع الاجتماعية في جمهور متكلّم تجتارّه قوّتان متعاكستان (« روحية مسقط الرأس » التي تؤدي فعلاً تحليلياً ، و « قوّة حق التبادل » التي تشكل المبدأ التوحيدى) ، فإن هذا كله لا يميّزه تمييزاً جذرياً من أسلافه ومن الكثيرين من معاصريه . فهؤلاء الآخرون يدافعون عن نظريات اجتماعية إجماعية ولا يزالون يحلمون باستقرار اللغة استقراراً نسبياً على الأقل

ومذ داك ، كان يتعيّن على اللسانيّة الداخليّة (Linguistique interne) أن تعمل على تنظيم وقائع المنظومة وحدها ، في نطاق

تسابق دقيق ، باعتبار ان اللغات هي ماميات لو كيانات متزايدة .
 مؤلفة ، وان لم تكن مستقلة ، فهي على الاقل مستقلة على قدر
 الإمكان . وربما يكون في إمكان لسانة الكلام (La linguistique de la parole) وهي اللسانة الخارجية ، اللسانة الاسترجاعية (La linguistique rétrospective) والجغرافيا اللسانية (La géographie linguistique) الخ . ان تحاول تنظيم الباقي ، دون أن يكون ثمة
 موضوع دراسي أولوي حقاً ، ومما لا شك فيه أنه غالباً ما تُنوّس في
 ما بعد الطابع الذي كان سوسبير . رغم ظرفيته ، قد سمح لتخلّطه
 ومع ذلك لا يرقى الشك إلى أن دقة فرضيات العمل الأولى كانت
 ضرورية ، فهي ان لم توصل إلى الخلاص ، فقد أوصلت إلى بعض
 الحقيقة . هذا بالتأكيد هو المكسب المترتب على الدراسات
 التساوقية المفهومة على هذا النحو ، والذي اتاح للسانة المعاصرة
 أن تتخذ لها ، وفي أسرع وقت ، اسماً علمية حقيقية . يبقى
 صحيحاً أن المستلزمات السوسبيرية كانت تصل في ذاتها جزءاً من
 موقف التحدي الأولي الذي تمكّن اللسانيون ، في ما بعد ، من تعهده
 في مواجهة العلوم الاجتماعية.

I / ٤- العلوم الاجتماعية واللسانة

سبق للسانة ان حثت بوضوح موضوعها ومناهجها الخاصة
 بها ، وكانت على هذا النحو قد صارت العلم الرائد الذي كانت تُفترض
 منه المناهج والنتائج ، بينما كانت العلوم الاجتماعية لا تزال تبحث
 عن الحدود والتكاملات والراثيات في ما بينها ، وعليه ، فإن موقف
 التحدي الأولي الذي كان اللسانيون يتعهّدونه أحياناً ، تجاه العلوم
 الاجتماعية ، لا يعود كلياً ، بلا ريب ، إلى المستلزمات السوسبيرية
 وحدها.

ففي القرنين الأوروبي والأميركي اللاتيني ، كان علم

الاجتماع قد ظل الى امرٍ طويل ، في نظر الكثيرين ، نوعاً من فلسفة اجتماعية حيث لم تكن المعارف العلمية ، المعارف التي يفتقها الاختبار ، تستخدم البتة إلا لإسناد تأمل محض نظري في ميادين الحياة ذاتها في المجتمع . وكان القيمين على علم الاجتماع هذا ، يكلفون الجغرافيا البشرية ، والتاريخ أو الفلسفة ، بمهمة التوفيق بين أبحاثهم . وبعد ذلك ، أريد بالعكس ان يجعل من علم الاجتماع قمةً لهرم العلوم الاجتماعية المتحيزة قدر الإمكان من الهيمنة الفلسفية . كان علم الاجتماع يُصور كانه التوليف الممكن لدراسات موضوعية ، اختبارية ، أجريت حول المجتمعات المكثفة المعاصرة أو حول المجتمعات الموسومة بالبدائية . وطبعاً ، كان يتعين على الاثنوغرافيا و الاثنولوجيا ان تصيرا من فروع علم الاجتماع ، إلا أن كلود ليفي - ستروس كان قد استخلص في نهاية السنوات ١٩٥٠ ، وبالتالي بعد دوركيم بأمد طويل ، أن الامر لم يصل بعد إلى هذا الحد ، وأن علم الاجتماع لم يكن قد جرى تصويره بعد ، في أي مكان ، كتتويج لعلوم الاجتماع .

يبدو أن التوافق قد وقع سريعاً بين شطري الأطلسي على الاثنوغرافيا . وكانت المناهج الخاصة بالاثنوغرافي قوامها : العمل الميداني ، لحظ الظواهر الخاصة بالجماعات الصغيرة ، تحليل الظواهر الملحوظة وتنظيمها لوضع الوثائق الوصفية . وبعد ذلك ، قام الباحثون الانكلوسكسونيون بتطبيقها على المجتمعات المكثفة ، جاعلين من علم الاجتماع ، على هذا النحو ، فرعاً من الاثنوغرافيا ، حتى وإن كان في مستطاع النتيجة ان تفقد ، بسبب من ذلك على صعيد الدقة والوضوح ، ما كان موضوع البحث يكسبه على مستوى الكثافة .

وكان المقصود بالنسبة إلى الاثنولوجيا مقارنة الوثائق التي تقدمها الاثنوغرافيا حتى تستخلص منها نماذج . ثم كانت

الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تتولى إجراء التوليفات الأخيرة . وكان مصطلحا اثنوغرافيا و لثنولوجيا يُعمران إلى جانب مصطلح لثنروبولوجيا ، وذلك بقدر ما كان البعض لا يزال يعتبر بمثابة ثلاثة اتجاهات بحثية مختلفة ما يُعتبر اليوم ، عموماً ، بمثابة ثلاث فترات من بحث واحد.

إن اللسانيات الإثنية (Ethnolinguistique) الأميركية ولدت من حاجة الاثنوغرافيين والإثنولوجيين إلى ممارسة لغات الشعوب التي كانوا يدرسونها . عندئذٍ، أكثر الباحثون من الدراسات العائدة (Monographies) ، أولاً حول اللغات الأميركية - الهندية ، وبوجه أعم حول لغات بلا كتابة ، كان تاريخها يفوتهم في زمن أول بعد وضع مشروع الإحاطة الشاملة بالعلاقات التي تربطها اللغات مع سياقها الاجتماعي الثقافي، وبعد إصدار فرضيات مثل فرضية الفعل التنظيمي للغة في السلوك المعرفي ، وبالتالي ، في رؤية العالم وفي ثقافة الذي يتكلمها ، نهتم اللسانيات الإثنية ، اليوم ، اهتماماً رئيساً بعلاقات الرسالة اللسانية مع مجمل ظروف الإبلاغ أو الاتصال . في البداية كانت اللسانيات الإثنية محصورة في ميدان المجتمعات الموسومة بالبدائية ، وهي نطعن أن كل ميدان يعود لها من الآن فصاعداً ، حتى ميدان المجتمعات الحديثة الأكثر كثافةً ، إن هذا التحريف الجديد لبرنامج أبحاث اللسانيات الإثنية ، يقرب هذا العلم ، بكيفية فريدة ، من اللسانيات الاجتماعية ، لدرجة أن البعض قد لا يعود يقرُّد ، بلا شك ، في الكلام على لسان اجتماعية - إثنية (Ethno-Sociolinguistique)

بالنسبة إلى لثنوغرافيا الخطاب ، ينادي بل مـ . هيمز (Hymes) بالعودة إلى العمل الميداني ، الوحيد الذي يستطيع أن يوفر المعطيات الواجب تنظيمها في إطار تحليل بنيوي . فاستعمالات الخطاب ومواضعه تشكّل منظومة ثقافية حقيقية يتعيّن

استحلابها ولابد من رسم المسافة بين ما تصفه الاثنوغرافيا
محصر للمعنى ، وما تصفه علوم القواعد والقواميس فلا بد من
الإحاطة بكل ما تعين على المتكلم استبطائه ، في ما يتعدى النمو
والمعجم ، لكي يصبح عضواً كامل العضوية في متحدثه اللساني ،
ولكي يشارك بكيفية مناسبة في سلوك جماعته الشفهي ، ويقع على
كامل إثنوغرافيا الإتصال أن تثبت ما إذا كان الاستعمال المكتوب
للمنظومة اللسانية ، والاتصال بالحركات والإشارات ، واستعمال
الأداء (النغم) وحتى استعمال الصمت ، تشكل أو لا تشكل منظومة
مع الاتصال اللساني الشفهي ، وما إذا كانت هذه المنظومة تملك
قواعد أدائها الخاصة بها . يتحدث البحث الأمريكي عن Paralinguistics
proxemics, kinesics كتبت حنة مارتينه (Jeanne Martinet: La sémiologie
du geste, dans: La linguistique, 10-2, p. 137)

، يدل بالانكليزية على سمبولوجيا الحركة بوصفها Kinesics ،
ومن هنا الانتقال [بالفرنسية] لـ «Kinésique» . وسوف يقال على
نحو الفضل بالفرنسية «Cinésique» للدلالة على هذا الفرع من
السمبولوجيا الذي يتناول الحركات بوصفها علامات تشكل منظومات
تستعمل للاتصال بمفردها أو بالاقتران مع اللغة ، وتقوم شبه اللسانة
و La Proxémique بدراسة جوانب الاتصال الأخرى ، غير الشفهية
يبدو أن هذه العلوم تحدد حقلها بالاستناد إلى قناة نقل المعلومات
سمعية بالنسبة إلى اللغة وشبه اللغة ، بصرية بالنسبة للامور
الأخرى . إن معايير كهذه لتصنيف الوقائع تتميز وتبرز الطبيعة
الفيزيائية للظواهر على حساب الوظيفة التي تؤديها في مسار
الاتصال .

I/٥ - اللسان . اللسان الاجتماعي

اجتماعيات اللغة

عندما نقل اللسانيون اهتمامهم إلى ما يتعدى الحدود الصيقة التي كانوا ، بادئ الأمر ، قد وضعوها لهم الخاص ، وقروا الانكباب على دروس العلاقات بين المتكلمات والاستعمالات اللسانية والوقائع المجتمعية ، إنما تعين عليهم التحفظ على البقايا الحية من فلسفة معينة للغة ، وكذلك تعين عليهم التحفظ على علم اجتماع كان ، على ما يبدو ، مديداً ، حتى يرتد عن تأمله للنظري والتنظيري . وفي الواقع ، لم يكن هذا الأمر مشجعاً ولا مؤثراً لاشتراكهم الفوري في اجتماعيات اللغة ، هذا العلم الذي كان يدعي استعمال وقائع اللغة والخطاب كوسائل لبلوغ معرفة أفضل للوقائع المجتمعية ، وكان لبلوغ ذلك يقوم بافتراض ومناقشة توصيفات اللسان واستنتاجاتها .

والأمر على خلاف ذلك ، بالنسبة إلى اللسان الاجتماعي ، إذ أن وقائع اللغة والخطاب قد تنقل الموضوع المبحثي الوحيد . وعندئذ قد تكون الوقائع المجتمعية هي التي يمكنها أن تصير وسائل اكتناه الواقع اللساني . إن هذا التفريق الكافي نظرياً ، قد يبدو في نظر البعض عاجزاً عن الثبات في الممارسة والتطبيق حيث يمكن لموضوع علم الاجتماع ولموضوع اللسان الاجتماعي أن يتجها نحو النطاق . ففي نظريتين جاكوبسون ، اجتماعيات اللغة هي جزء لا يتجزأ من اللسان . وفي نظر جوشوا أ. فيشمان (Joshua A. Fishman) ومعاربوه ، اجتماعيات اللغة واللسان الاجتماعية هما بوجه عام علمان مترادفان . على الرغم من أن فيشمان يحدد أحياناً ، اجتماعيات اللغة ، بوصفها لسان اجتماعية متدرجة في لسان علم الاجتماع ... وأمام هذا

الانتقال من تعريف إلى آخر ، لم تعد يعيدون كثيراً عن لعبة المرايا ، وحتى
عن الدائرة المغلقة .

ولا تبدو القواميس المختصة في المصطلح اللساني جاهزة ،
من جانبها ، الحسم في الموضوع . فطلى سبيل المثال ، نقرأ فيها
أنّ اللسان الاجتماعية جزء من اللسان التي يتقاطع ميدانها مع
ميدان اللسان الاثنية ولجتماعيات اللغة والجغرافيا اللسانية وعلم
العلمية ؛ لو نقرأ أيضاً أن من غير المؤكد أن تكون اللسان
الاجتماعية علماً حقيقياً ، لو أن تكون قد وجدت اسمها ومناهجها ،
وانها ربما لا تكون سوى ميدان يدعى فيه علم الاجتماع واللسان
إلى التعاون^(٢) .

هذا أيضاً أن يكون في واردنا الحسم في الموضوع ، وانما
الوارد بالحري هو أن نعاود النظر في وقائع معروفة من جانب آخر .
إن تحليل منظومة لسانية هو بذاته مهمة واسعة ومعقدة بشكل كاف ،
لكي يستند ذلك الذي يتولاها ، استناداً مشروحاً إلى فرضية عمل
أولي ، هي فرضية تألف المنظومة ، وإلى منهجية بحث أولي ، هي
المنهجية التي تستبعد مؤقتاً فحص تنوع الاستعمالات وفحص
الفوارق البنوية حقاً التي يمكنها أن ترتبط بتنوع الاستعمالات
هذا . ولكن مع البقاء عند هذا الحد ، قد لا نتجنب نهائياً الخطر
الكامن في ظهور الالتباس بين تألف المنظومات ، باعتباره فرضية
انطلاق لبحث لساني علمي ، وتألف المنظومات كما تعنيه منهجيات
علم اللغة (Philologie) القديمة ، وتألف المنظومات كما يشاءه
اللسانيون التقعيديون السلفيون ، لو تألف المنظومات الذي كان نشأناً

(٢) الموقف الأوضح ، الأنسب إلى اختيار المنهج يقل موافق ج.أ. فيشمان إلى اختيار
المنهج هو حيلة استراتيجيات المسائل

(Fishman, Sociolinguistique, p.69)

لفرضية فلسفة اللغة ، لو أيضاً تكلف المنظومات كاعتقاد ساذج لدى غير
المحتصين ، الخ . ويبدو الخطر غير مستبعد في هذا الميدان ، على قدر ما
تقل الفوارق بين « سلفيين » و « بنيويين » : فكلهم يبدون مفتنحين
بالتألف الكامل لكل لغة (André Martinet, langue et fonction, p. 126) .
يضيف ما رتبته أن التباينات القائمة إذا لم يصبَح بها ، يلبس بساطة
الوصف ، فسوف يتم التوصل إلى إقامة تراتب بين الإخداد اللغوية ،
لأنه يبدو أن بعض التقريبات تكون شمولية لدى بعض أفراد الجماعة ،
وأن بعضها الآخر لا يتعمد به سوى بعض أفراد المتحد ، وينكره
الأخرون .

إذن يحق لنا ألا نعتبر أن عمل اللساني التوضيحي قد اكتمل ،
إلا بعدما تكون قد وضعت ، على الأقل ، هذه الهرمية التراتبية
للأساليب والطرق اللسانية . وعندما نتوجه ، لاحقاً ، إلى فحص
الاشتراط المكثف لتنوع الاستعمالات اللسانية والفوارق البنيوية ، لا
تظهر أيضاً كل الوقائع المجتمعية مسيرة وكاشفة ، سواء كانت أم لم
تكن موضع اهتمام التنوععراقي ، الانتولوجي ، الانتروبولوجي أو
عالم الاجتماع . وإن اللساني الذي لا يعرف الوسائل اللسانية حقاً ،
الموضوعة فعلياً في منظومة وحسب ، بل يعرف أيضاً القوى التي
تصنع الديناميكية الداخلية لهذه المنظومة ، سيكون بلا ريب في
عداد الفضل المؤهلين لإقامة أو لتقويم العلاقة التي يمكن لواقعة أو
لمدة وقائع مجتمعية أن تقيمها مع الاستعمالات والمنظومة
اللسانية . زد على ذلك أن اللساني سيكون في عداد أكثر المهتمين
بأن تقوم علمياً علاقات من هذا النوع : وأنه إذا انكب على إقامتها
بفعله ، سيكون من الصعب إتهامه بالخروج من مجال بحثه الخاص
به .

٦/١ - تلازم الناظر والمنظور إليه

عندما يتعين على لسانتي أن يستخلص المنظومة الفونولوجية أو النحوية للغة ما ، أن يكون تلازم الناظر والمنظور إليه هو تلاماً ذلك التلازم الذي يظهر عندما يحاول باحث تنظيم علمه بوقائع محتمة في الحالة الثانية ، يمكن للباحث أن يكون معنياً أكثر على صعيد هذا الذي يسمى ، بتفاوت ، ذهنيته ، معتقداته الاساسية ، فلسفته أو أبعداً فكرية (ايدولوجية) . وعلى هذا النحو ، قد يُساء فهم أن تكون أعمال علم اللسانية الاجتماعية (Dialectologie Sociale) الاميركية قد استطاعت التوصل إلى نتائج عنصرية بكل جلاء ، إذا لم توسع مجدداً هذه الأعمال ونتائجها في سياق الستينات (١٩٦٠) في الولايات المتحدة . وفي مستوى آخر ، تبرز الفلسفة الاجتماعية التفاعلية (Sociolinguistique Interactionnelle) وتميز أواخر الدور (Rôle) بين الأفراد ، وتعدد هذه الأدوار بوصفها كليات العمل المنظمة بالأفراد داخل مجتمع ما . عندها تجري الأمور كما لو أن هذه اللسانة الاجتماعية لم تكن تتصور البتة أن بين الفرد المأخوذ في فرديته والمجتمع الشامل ، لا يقوم سوى تواصل مميز فقط بمراتب ، يمكن للحراك الاجتماعي ، عندما يوجد ، أن يمهدها بكل يسر ، ويبدو تصور الأواخر الاجتماعية مختلفاً تماماً في اللسانة التفاضلية الاجتماعية أو اللسانة الاجتماعية التي تتوقع درس التعارضات بين المسالك اللسانية الجماعية ، وتعدد الجماعة بمقتضى العمل المشترك الذي يقع إكماله على عاتقها . عمل منتج ، مشروع سياسي ، ثقافي ، ديني ، الخ ، جميع المفجزات المشتركة التي يستحيل القيام بها خير قيام بدون الخطاب □.

الفصل الثاني

المتحدثات

والتباين اللساني

ليس لمصطلح المتحدث اللساني سوى قيمة نسبية	بلومفيلد ، ١٩٣٣
لا يمكن تصوّر تالف لساني كامل.	عرايكة ، ١٩٦٢
المتحد اللساني هو مصطلح مملود.	ليفمان ، ١٩٧١ .

روابط اللغة والجماعة

II/١ - الوحدة ، الاستقلالية والحيوية بين اللغة والجماعة

إن الاعتقاد في وجود متحدات لسانية ذات حدود واضحة ، متحدات لسانية يتكلم الجميع في داخلها اللغة نفسها دائماً ، وبالكيفية عينها ، ليس مجرد اعتقاد ساذج لدى غير المختصين . فالمختصون أنفسهم ، لأنهم حددوا اللغة ، قبل كل شيء ، بوصفها أداة اتصال متكيفة مع حلجات أولئك الذين يستعملونها ، استطاعوا في زمن أول ، أن يسهموا في الحفاظ على المعتقد الساذج . وحين يتضمن الاتصال المتحدث ، يفقد مفهوم المتحدث ليس تلقاً وحسب ، بل يفقد محتوماً في علمنا (Martinet, Langue et fonction, p.130). لكن

تألف المنظومات وكذلك تألف المتحدات . قبل أن يكونا الفرضية العلمية لانطلاقة البحث اللساني ، كلنا من الفرضيات الأساسية لفلسفة اللغة : شعب أو أمة ، ثقافة ، لغة . وكانت الجماعة البشرية تسين بتألفها ، بتناسقها وباستقلاليتها إلى عقليتها ، روحيتها ، ثقافتها ، تراثها ولحياناً إلى المجال الجغرافي الذي كانت تشغله ، أو حتى للمناخ الذي كانت تعيش فيه . وكانت اللغة ، باعتبارها متألفة ومستقلة ، تقدم للفلاسفة الوقائع التي كانت تُستخدم ، وهي معزولة عشوائياً عن المنظومة ، كامثلة مناسبة لإسناد تأمل نظري وتطبيقي . وبمساعدة الاستعراق الأوروبي ، كانت اللغات الهندية - الأوروبية هي التي توضع موضع المساهمة ، وكان جوهر المسألة آنذاك هو تحديد العلاقات القائمة بين الشعب أو الأمة ، بين لغته وثقافته . فاللغة هي انعكاس للشعب ، وهي الذاكرة الجماعية حيث يودع الشعب الخبرة الواجب نقلها إلى الأجيال المقبلة ، وكان يتدرج البعض أن الشعب هو الذي يؤثر في لغته . فاللغة هي الوسيلة الأضمن ، وربما تكون الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الواقع وتنظيمه ؛ وكان البعض الآخر يقرر إنها إطار الفكر الجماعي وقالبه ؛ وهي تشترط تجربة أولئك الذين يتكلمونها . وهناك آخرون أيضاً يقولون إن اللغة تبين وتكون في آن واحد روح الشعب ، وإن الشعب إذا كان يؤثر في لغته ، فإنه يتأثر بها ، بدوره .

ربما أن اللغة والمتحد يجب أن يكونا مستقلين ، فقد كان يجري التشديد على كل المسافات التي كان يمكنها أن تفصلهما عن اللغات والمتحدات الأخرى . وكان ذلك يجري بوجه خاص عندما كانت المسافة ضئيلة الأهمية نسبياً - مثلاً ، بين اللغات المتقاربة تناسلياً أو بين عاميات لغة واحدة - فكان يصر إلى إبراز المسافة الجغرافية . كان للمتحد اللساني يتوافق مع وحدة جغرافية محدودة بحوارض جغرافية مائية أو جبلية ، لو أنه كان يدين بتماسكه وتألفه .

وبالتالي باستقلاليتها ، إلى معطيات الجغرافيا البشرية . مثلاً
الامتراحات الثابتة والتيارات المعنوية بالقتصاد سوقي .
وغالباً ما كان يُقتر ، أخيراً ، أن متحداً يتعين عليه أن يكون
مهماً عددياً لكي يحافظ على حيويته وحيوية لغته . فعدد أفراد
المتحد ومواردهم يجب أن تسمح لهم . عند اللزوم ، بالدفاع عن
وحدة أراضيهم وعن عاداتهم اللغوية في وقت واحد . ولكنّ تماسكاً
اجتماعياً كبيراً . كذلك الذي يمكن لفكروية قومية أن تتعده
وتفرضه ، يستطيع في أسوأ الحالات أن يعوّض عن الضعف العددي
السببي للمتحد اللساني.

II/٢ - المتحد اللساني والجسم السياسي

أخيراً ، كل جسم سياسي أو كل دولة مكونة ، كانت تعترف
رسمياً بلغة ما كلفة لها ، وكانت تجيد فرض استعمالها العام
(خصوصاً في مؤسساتها وإداراتها) ، إنما كانت تُعتبر بمثابة
متحد لساني .

متحد لساني ، جسم سياسي . إن الاعتقاد في هذه المحاولة
وبمختلفاتها هو من المعتقدات التي يصعب التشكيك فيها . وباسم
هذا الاعتقاد المعاد توكيده بثبات وحتى بشكل متقطع . استطاعت
مجلة أدبية فرنسية دورية ، من أكثر للمجلات رجاسةً وجديّة ، أن
تعلن عن ظهور رواية ما ، مترجمة عن الأسبوكية ، وعن ظهور رواية
أخرى مترجمة عن لغة الليرو . في هذه الحال ، هل يتعين أن
نفهم أن هذا النص جرى وضعه أولاً بالإسبانية ، بالكشوا ، بالإيمارا
أو بالجيغارو في الليرو ؟ وليس من التادر أن هذا الاعتقاد هيئة يجعل
البعض يقول عن فرد ما أنه يتكلم البلجيكية ، السويسرية أو
البرازيلية

إن متحداً لسانياً موزعاً لصالح عدة أجسام سياسية كبرى .

لو ، بخلاف ذلك ، متفجعاً كلياً في واحدٍ منها ، يمكن أن تنكر عليه صفة هذه ، الحكومات المعنية أولاً ، والمرقبون غير المعنيين بالمسألة ثانياً ، وايضاً بعض المتكلمين المعنيين أنفسهم . غالباً ما يكون للحال على هذا النحو بالنسبة إلى المتحدثات اللسانية الكردية ، الأرمنية ، الباسكية ؛ الليغتونية أو الأوكسيتانية ، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى متحدات أخرى كثيرة...

إن دولة تضم عدة متحدات لسانية لا يمكنها - كما يفترض ذلك بوجه عام جداً - أن تكون إلا استثناءً يُنتظر منه أن يؤكد القاعدة . ويعاود الاستعراق الغربي ظهوره ، عند كل فرصة ، وإذا أريد الاعتقاد في دولة سويسرية ، فلفظاً يعتقد بسهولة في دولة مثل دولة سنفالورة ، حيث المتحدثات اللسانية ، الماليزية والقامبلية والصينية ، رفعت لغاتها الثلاث ، فضلاً عن الانكليزية ، إلى مرتبة لغات رسمية . وفي المقابل ، فإن تعريف اللسانة للهولندية بوصفها هامة جرمانية تُدبش أيضاً ونفاجيء ، وذلك لأنها اللغة القومية لدولة مثل هولندا ، وهي دولة مكونة بقوة ومعترف بها من الجميع منذ أمم بعيد . ودائماً باسم الاعتقاد عنه يمكن التناسي ، غالباً وعلى سبيل المثال ، أن ما من لغة من الأمم الأوروبية التقليدية ، ومهما تكن أهميتها ، لا تتطابق مع متحد لساني واحد . وربما يكفي أن نورد مثال فرنسا ، وهندلر يمكن أن نلاحظ - ونحن نبتعد مئة كيلومتر من باريس ، ونجانب المراكز الحضرية الأخرى في الضاحية - أن الاحادية اللغوية ليست هي دائماً للقاعدة المطلقة في فرنسا.

II/٣ - المواقف اللسانية

إن المتحدثات التي لتتجتها اللغات والمتحدثات التي تمارسها، كانت ولا تزال مرتبطة بالمسالك والمشاعر والمواقف ، وإن هذه

المواقف اللسانية لم تكن يوماً غريبة عن وضع التعريفات التي كان يُبحث عنها لأجل السنة الاقوام والجماعات التي تمارسها . وعليه ، كان يُعتقد أن استقلالية لغة ما ، والامة التي تتكلمها ، كانت تعود إلى تاريخيتها ، إلى تراث ثقافي واجبي ، الخ . والحال ، فإن تماسك المتحد اللساني كان يدين كثيراً إلى شعور الولاء الذي كان المتحد يتعهد تجاه لغة لم يعد من الواجب للبرهان على تاريخيتها ، لأنها كانت مكتوبة منذ ظهور القدم الوثائق ، ولأنها كانت مستقرة وصحيحة منذ الازل ، ولأنها عرفت القومية (التوحيد) والتعبير وكان للتعبير والتعبير^(١) الفضل الخاص في تثبيت المسافة ما بين اللسان^(٢) (Distance interlinguistique) عندما كانت موجودة ، وكان لها أيضاً الفضل في إبرازها وصوغها عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك . واللغة ، سواء أكانت نتاجاً تاريخياً وحيداً ، مميزاً ومقدساً ، أم لم تكن ، فقد كانت تسهم في خلق شعور بالتضامن بين الناطقين بها ، وكانت على هذا المنوال تكمل اندماجهم في المتحد ، وليس الولاء والتضامن الموقنين الوحيدين اللذين توصل استنسلارتهما اللغات والمقدمات التي تستعملها . فهذه المواقف اللسانية هي جزء لا يتجزأ من موضوع دراسة اللسان الاجتماعية ، ولكنها لم تعد تحظى اليوم بالقيمة المطلقة للسمات المحددة للمتحد اللساني وتجري المعارلات لتقديرها حتى قدرها عندما يتوجب تعيين سياسة لسانية وتجسيدها في مخطط^(٣) ، أي عندما ندخل في مجال ما يسمى البعض باللسان الاجتماعية المطبقة (Sociolinguistique appliquée) . كذلك ، تسجل اللسان الاجتماعية التغيرات التي

(١) انظر لاحقاً ، الفصل الثالث

(٢) انظر لاحقاً ، الفصل الرابع .

(٣) انظر لاحقاً ، الفصل الخامس

تظهرها هذه المواقف ، سواء في الوعي الذي يمكن لكل فرد أن يكوّنه عن وظائف اللغة والمجتمع ، أم لدى أولئك الذين يعتبرون اللغة والمجتمع موضوعات بحث أو انشغالات مهنية

التباين اللساني

II / ٤ - التباين ضمن اللسان وبينها

عندما كتب بلومفيلد (Langage, p. 33) أن جماعة من الناس الذين يستعملون منظومة علامات لسانية واحدة، هي متحد لساني، كان قد تخلى عن مفهوم التالف والاستقلالية في الجماعة بوصفهما سمات محددة للمتحّد اللساني . بيد أن هذا التعريف لا يأتي على ذكر تنوع الاستعمالات التي يمكن للجماعة أن تمارس بها المنظومة اللسانية ، ولا على ذكر فوارق البنى التي يمكنها أن ترتبط بهذا التنوع للاستعمالات . زد على ذلك أن هذا التعريف لا يأخذ في الحسبان حالة الجماعات التي تستعمل أكثر من منظومة علامات لسانية . ومنذ ذلك الحين أعطت اللسان الاجتماعية أهمية خاصة ، حتى لا نقول الأهمية الأولى ، للوقائع المتمثلة في التباين والتلونّات اللسانية . فمن الممكن أن يتميز النشاط اللساني لمتحد ما ، بالتباين ضمن الأكمن فقط ، ذلك التباين الذي يتجلى في استعمالات وفي بنى منظومة واحدة . كذلك من الممكن أن يتميز هذا النشاط بالتباين بين اللسان ، ذلك التباين القائم بين المنظومات عينها . وفي هذه الحالة الأخيرة ، يكون النشاط اللساني للمتحّد مطبوعاً ، ليس فقط باستعمال منظومتين أو أكثر ، متقاربتين تناسلياً أو غير متقاربتين ، بل يتميز أيضاً بواقع أن كلّاً من المنظومات المنصّرة ، مع احتفاظه بإمكانات تباينه الذاتية ، يرى هذه

الإمكانات تبرز من جراء احتكاك اللغات ذاتها (انظر لاحقاً ، الفصل الرابع)

II/ ٥ - التلونات الجغرافية والتلونات الاجتماعية

إن انخفاض وتيرة وحميئة الاتصالات بين شريحتين من السكان، يجلب مساراً من مسارات التفاضل اللغوي (Martinet, E. 1954-1964). وبناء على ذلك ، جرت العادة على تمييز التلونات الجغرافية ، في المقام الأول ، داخل التباين ضمن الأمن وهذا ما كان يسمى ، في البداية ، عاميات اللغة . وبالنسبة الى هذه التلونات ، فإن انخفاض الاحتكاكات بين الجماعات الذي أدى إلى التفاضل اللساني ، أعتبر أولاً كأنه مرتبط بالتباعد في المجال الجغرافي ، وبعد ذلك جرى تمييز تلونات اجتماعية سميت أحياناً بالعاميات الاجتماعية أو أيضاً باللهجات الاجتماعية (Sociolectes) . إنها تلونات قد يكون انخفاض الاتصالات بين الجماعات ، المؤدي إلى التفاضل اللساني ، ناجم في جوهره عن أسباب اجتماعية . وهذا قد يكون التفاضل اللساني قاصراً على المستوى في نقطة واحدة من المجال الجغرافي . مع ذلك ، ربما يكون من التبسيط الاعتقاد أن المسافة الجغرافية والتفاضل الاجتماعي يمكنهما أن يكونا عاملي تفاضل لساني ، مستقل أحدهما عن الآخر استقلاً . تماماً إن العلاقات بين هذين العاملين غالباً ما تكون في الواقع مكثفة جداً فتباعد جماعتين أو أكثر في المجال الجغرافي استطاع أن تكون له أسباب اجتماعية خاصة : وثمة تلونات لسانية يتعين اعتبارها كتلونات اجتماعية ، وتجرى ممارستها في نقطة واحدة من المجال الجغرافي . استطاعت في الأصل أن تكون من التلونات الجغرافية . الخ .

II/٦ - التصنيفات الوظيفية والأحكام القيمية

إن التلونات اللسانية ، لكنت جغرافية لم اجتماعية ، إنما تتحدد بوصفها مجاميع فروقات تقع ، في وقت واحد ، في مستويات المعجم والقواعد والصوتية ، أو بالحري في واحد أو اثنين فقط من هذه المستويات داخل المنظومة . وإن هذه المجاميع تختلف بـ وظائفها : وتصنفاتها الوظيفية إنما تستخلص من رصد استعمالها في عدد من الميقات غير اللسانية .

إن مصطلح تلون (Variété) يُراد به أن يكون مصطلحاً فنياً ، موضوعياً ، مجرداً عن كل عاطفة ، وبالتالي لا يمكنه أن يتضمن أي حكم قيمي . فهو لا يدل على وضع لغوي خاص ، وإنما يدل فقط على بعض الفروقات بالنسبة إلى تلونات أخرى (Fishman, Sociolinguistics, p.37) إن الكلام على تلون ما ، معناه فقط الاعتراف بوجود مجموع أو عدة مجاميع للفوارق ، وبوجود تلون واحد أو عدة تلونات لغوي ، ومعناه رفض إقامة أي تراتب بين هذه التلونات . وإن كل محاولة من جانب المختصين لاستعمال مفردات مثل (Babel, patois) بون معاودة تعريفها أولاً ، يخشى عليها أن تبوء بالفشل ، لأن هذه المفردات ليست في الواقع سوى تسميات خصوصية جداً يستعملها غير المختصين بشيء من الإزدراء ، حتى ليصعب الكلام على تلون لغوي لا يرويه مقبولا اجتماعياً (Martinet, Langue et fonction, P 134) ، وإن تسميات مثل عاميات ، لغة شعبية ، حكي ، لهجة أهل حرفه ، أو أيضاً مثل لغة أدبية / عالمية / ثقافية / حضرية ، حسن التصرف ، لغة مشتركة ، الخ . هي أيضاً تسميات خصوصية جداً ، وإن استعمالها دون معاودة تعريفها قد يكون خطيراً من الوجهة الطمعية مثل استعمال التسميات التي تشار إليها مارتيته ، مع مفارقة قوامها أن غير المختصين

ولحياناً المختصين أيضاً يستعملون بعضاً منها للكلام على تلوّنات يرونها اجتماعياً محايدة ، مقبولة أو يمكن القبول بها . وسواء كانت للمتغيرات - وبالتالي التلوّنات اللسانية التي تكونها - تنتمي إلى الصوتيات أم إلى القواعد أو المعجمية ، فإنها تعزى إليها قيم اجتماعية تعكس العلاقات الاجتماعية . حقاً إن تفاضل اللغات (والتلوّنات) هو واقعة بنيوية لغوية (Marcellesi et Gardin, La Ling- uistique sociale P 147) . بكلام آخر ، تُطلق على التلوّنات اللسانية أحكام قسّية هي في الحقيقة ناجمة فقط عن ظهور هذه التلوّنات في هذا السياق غير اللغوي أو ذلك ، سواء كان السياق جغرافياً أم اجتماعياً ، وبالتالي قد يكون من المطبق عموماً إمتلاك مصطلحات تسمح بالفصل بين التلوّن اللساني وتصنّفه الوظيفي وبين الأحكام القسّية المتعلقة بهذا التصنع .

II/٧ - تبين التصنّعات الوظيفية

رَدّ على ذلك أنه قد يكون من المطبق التمكن من امتلاك مصطلحات تميّز التلوّن اللساني من تصنّفه الوظيفي ، نظراً لأن هذا الأخير لا يملك على الإطلاق شيئاً ثابتاً في التساوق ذاته ، ولا أي شيء نهائي في التطور التاريخي . ومثاله أن الأندلسية هي اليوم تلوّن جغرافي من الأسبانية ، ونحصل بهذه الصفة في الأندلس ، لكنها تعمل كتلوّن اجتماعي في أقاليم إسبانيا الشمالية حيث تستعملها جماعة فرعية من البروايتيريا ، وهي احتياطي من اليد العاملة الرخيصة التي تستعملها بورجوازيات الصناعة والمناجم في بلاد الباسك ولوسيريا وكاتالونيا .

تاريخياً ، ليس للتصنّف الوظيفي لأي تلوّن لساني ، شيء ثابت ونهائي ، وإن أسباباً غير لغوية ، تماماً ، هي التي جطت التلوّنات الإقليمية / التي كانت عليها في الماضي التوسكانية ، اللندنية ،

القشتلانية أو الفرنسية / تترقى من جانب الجماعات التي كانت تتكلمها إلى وظائف لم يعد فيها أي شيء إقليمي . لأنها بقيت اليوم لغات إيطاليا وانكلترا وإسبانيا وفرنسا .

وإن أسباباً من التّوحد نفسه هي التي جعلت تلوّنات إقليمية أخرى . بعكس التلوّنات السابقة . لم تتغير وظائفها هناك تلوّنات لسانية تملك راموزاً (Code) مكتوباً . ويستعملها أدب مهم . وشاركت لزمن في أهمية بلاطات بروكس وتولوز أو ليون . ومع ذلك فإن الأوكسيتانية (Occitan) لا تزال اليوم مجرد مجموعة تنوعات إقليمية . وإن الوظائف الأخرى . غير الإقليمية . التي كل في مستطاعها القيام بها . تؤديها حالياً تلوّنات من الفرنسية . كذلك . قد يكون من الملزم التشديد على صعوبة التفريق في الأوكسيتانية بين وظائف محض إقليمية . لأن الأوكسيتانية تنزع إلى العمل لولا كتلون اجتماعي مرتبط جوهرياً بجزء وأيضاً بغئة عُمرية من الطبقة الفلاحية الفرنسية الجنوبية . الصفري والوسطى .

إن الكيشوا (Quechwa) بعدما أرالت من مجالها الجغرافي عدداً معيناً من اللغات التي كانت قريبة منها أو غير قريبة . صارت لغة العبادة والجهاز الإداري في إمبراطورية الإنكا . فكانت . حتى يوم حيازة راموز مكتوب . تؤدي وظائف اللغة الرسمية وأيضاً وظائف اللغة المتداولة في إمبراطورية كانت تمتد تقريباً من الشمال إلى الجنوب في شبه القارة الأميركية الجنوبية . وعلى مدى عدة قرون من الاستيطان الإسباني لم يعد مع ذلك شئ سوى مجموع من التنوعات الإقليمية للكيشوا . والبيتن في الواقع هو لأن كل جماعة من المتكلمين تتموضع جغرافياً . وكذلك اجتماعياً . بمكمل العلاقات التي تقيمها مع باقي المجتمع الشامل . ولأن التلون الذي تمارسه هو في أن واحد إقليمي واجتماعي . إن تلوّنات الكيشوا التي يمكن اعتبارها إقليمية . هي أيضاً تلوّنات اجتماعية . مرتبطة بجماعات الفلاحين

العقراء ، وهم هنود الأنديز (Andes) ، وحديثاً حظيت بمركز اللغة الرسمية الثانية في البيرو . وأن الفوارق التي تطبع تلكات هذه المنظومة في البيرو أن يعرضها طرح المسائل على منتظمي تفهيد هذه اللغة الرسمية الجديدة وتطبيقاتها .

٨/II - التلوّنات والمنظومة : المتغيرات الحرة

يمكن تمييز التلوّنات اللسانية ، حين يُستفاد من أساليب يطلق عليها اللسانيّون تسمية المتغيرات الحرة أو المتغيرات الاختيارية أو أيضاً للمتغيرات الأسلوبية . أما اختيار هذه الأساليب فيظل حراً ، بمقتضى سير المنظومة الصوتية التي لا تنيط بهذه الأساليب وظيفة تمييزية أو لا تنيط بها أكثر من وظيفة تمييزية ، وبمقتضى سير المنظومات النحوية والمجمية حيث لا تسهم الأساليب أيضاً في وضع فوارق معنوية ، وفي المقابل ، يتحدّد ظهور هذه الأساليب اللسانية بالمعطيات غير اللغوية ، ويستفاد من استعمالها اجتماعياً/ أو جغرافياً .

هناك مثل من الأمثلة الأكثر وروداً ، هو مثل المتغيرات المسماة حرة ، للصوت الصامت /r/ في المنظومة الفرنسية ، فإذا نطق المتكلم هذا الصوت ، مثلاً في المقاطع *Katr/ quatre* ، *batr/ Batre* ، أو *Sytr/ sucre* ، مع تموجات في طرف اللسان [r] ، أو بتموجات اللهاة [R] ، أو بمجرد احتكاك الهواء بين مؤخرة اللسان واللهة أو المنطقة الخلفية من غشاء الحنك [ʁ] ، فإن معنى *batre* ، *quatre* و *Sucre* لن يتغير مع ذلك . حتى أن المتكلم سيكون في استطاعته ألا ينطق بالصوت /r/ في هذا الوضع النهائي . وأن يلفظه لفظاً صفرياً (par zéro) [Syk, bat, Kat] دون أن يحسب عدم فهم أو تبدل في معنى المنطوق . لكنّ تباينات الصوت /r/ هذه ، الحرة بالنسبة إلى المنظومة الصامتة في الفرنسية ، يمكن الإفادة منها

اجتماعياً لو جغرافياً . لما لفظ [h] فيُعزى اليوم ، بوجه عام جداً ، إلى تباين الفرنسية الذي يعتبر كثته معياري ومُطَبَّع . وبشكل أساسي ، فإن [r] تطيح تلوّنات جغرافية في هذا اللسان . وإن للمتغير صفر في وضع نهائي هو بالضغط ما يسميه مارتان جور (Joos)^(٤) طابعاً (un marqueur) بالنسبة إلى تلوّنات في الفرنسية غير مطبّعة ، وهي تلوّنات تسمى شعبية واهلية (راجع الفصل الثالث) . من الواضح تماماً أن لغة ، كالعربية مثلاً ، يمكن لمنظومتها الصامتة أن تمارس تضاداً صوتياً / r ~ h / ، لا يمكنها أن تستعمل ، بلا مشاكل ، الحلق بصورتاتها / r / و / h / كطوايح مميزة لتلوّناتها الاجتماعية أو الجغرافية .

فمن الوجهة الدقيقة لملم الصرف (Morphologie) ، ليس (je) peux و (je) pur في الحقيقة سوى دالّين لمداول واحد . ومع ذلك ، فإذا كان من المعقّد تماماً أن هذه الأشكال غير مرتبطة اجتماعياً بالسياقات غير اللغوية نفسها ، فإن كتاباً مفهوماً ، تقليدياً مثل فن التصريف (Nouveau Besherelle, Haier, 1966) يظن أنه ملزم بالإيضاح ، تبدو صيغة Je pur ذات استعمال أميز من صيغة Je peux ، كذلك ، إذا كانت الأساليب المستعملة للدلالة على الكيفية اللفظية الاستفهامية في ?dors-je وفي ?est-ce que je dois ، يمكنها أن تعتبر كأنها متكافئة ومتعادلة من الناحية الصرفية ، فإنها من ناحية أخرى تعتبر غير قابلة كلياً للخفض أو للتحويل بحيث يحل أسلوب محل آخر ، ويمكنها أن تستخدم ، بكل فعالية ، كطوايح مميزة لتلوّنين مختلفين تماماً في الفرنسية

(٤) في مقر ويليام لايف (W. Labov: the social stratification of English in New York city) .

أن الطابع أو المعيّز هو وظيفة قليلة للتبدل حسب الاهتمام الذي يحمله المتكلم لخطابه . سنحتفظ هنا بالمعنى العام للطابع الذي يحمله له جور

II / ٩ - التلويّات والمردود الوظيفي للأعداد

غير أن الأساليب اللسانية المستعملة كطوابع مميزة لمختلف القلومات في لغة واحدة ، ليست متوافقة دائماً بشكل كامل بالنسبة الى منظومة اللغة ذاتها . إن الفرنسية تملك عدداً معيناً من هذه الأساليب أو الطرق اللسانية ، شبه المتوافقة بالنسبة الى المنظومة والمستعملة كطوابع لمتغيرات اجتماعية و/أو إقليمية وهذا مثلاً هو حال الطول الصوتي . فالمنظومة الصوتية للفرنسية المعاصرة العامة لم تعد تستعمل الطول الصوتي كطابع مميز للترابط ، وإن التضاد الوحيد حيث لا يزال لهذا الأسلوب اللساني وظيفية تمييزية هو تضاد / ē / و / e / . وبالتالي فإن الطول الصوتي هو بالضبط ما يشكل ، في نظر بعض المتكلمين ، الاختلاف في المعنى بين / lev lene و / lev lene / ، لو بين / mètr/ mètre و / mètr/ mètre / . ألا أن من المناسب التشديد على أن الطول الصوتي هو حقاً طريقة لسانية لم تعد منتسب ، في هرمية الأعداد ، إلا للأعداد غير الكليّة ، أي لتلك التي أهمها عدد كبير من المتكلمين ، فلم يعد يتعامل بها سوى بعض الآخرين .

ومذ ذاك ، جرت الاستفادة من الطول الصوتي في الثنائي
اللساني ، على نحو بالغ التشعب والاختلاف . وإن بعض تلوّنات
الفرنسية ستستعمله في التعارضات والاضداد الصوتية من طراز
/Syr ~ Sûre و /Sûr ~ Sûr الخ وكذلك من طراز /Syr ~ Sûre
/degute ~ dégouter و /Vû ~ Vu و /Vû ~ Vu الخ
/degit / degute و /degit / degute الخ وكذلك من طراز /degit / degute
seule و seul و /seul / seul الخ وكذلك من طراز /seul / seul الخ

(Martinet, langue et fonction, p. 129)

Martinet, le français sans tard, p. 155 à 167).

ومن بين التلونات الافتراضية ، تذكر التلونات التي يوضح تقليدياً

تحت عنوان **تلون شعبي** ، والذي يستعمل لهذا الأسلوب اللساني شبه المتوافر ، استعمالاً مختلفاً تمام الاختلاف بالنسبة إلى المنظومة التي هي الديمومة الصوتية . وإن واحداً من الطوائع الأضمن لهذا التلون . ربما يكون في نظريار غيرو (Pierre Guiraud, Le français populaire, p.119 et s) « لهجته الفاترة » أو « لهجته الجمهوريّة » . « اللهجة الضاحويّة » . ففي عبارة : il s'est barré, le salaud, vendredi, tu te rends compte [ise bāre l sālō vādnādi ty trā] . ربما يكون طول الصوتات ô, è, a وحتى ô (أو œ) مرتبطاً ، ظاهرياً ، باستعمال ، خاص هو أيضاً ، للتقويم النّبري [ise' bāre l'sālō vā'dnādi ty l'rō kōt] هو استعمال غير الاستعمال الذي يمارسه التلون المطّبع في الفرنسية ، وهو أيضاً غير الاستعمال المسمّى بالتعبيري في هذه اللغة . إن كل هذا يبرهن فقط على أن التقويم النّبري قد يكون ، هو أيضاً ، في الوضع الراهن للمنظومة الفرنسية ، طريقة لسانية شبه متوافرة ، أو حتى طريقة شبه متوافرة كلياً بالنسبة إلى المنظومة ذاتها ، وهي بالتالي خليفة بأن يُستفاد منها ، دون مشاكل كبرى ، في التلونات الاجتماعية و / أو الجغرافيّة .

وعلى قدر ما تكون الطريقة اللسانية المسماة «e muet» أو أيضاً «e caduc» غير متعارضة صوتياً مع غيابها وانعدامها إلا في عدد ضئيل جداً من السياقات

(L'eau/ Le heu/ Lo ~ leo,

l'être/ le hêtre/ leir ~ læir,

dors/ dehors/ dɔr ~ dəor,

piage/ peiage/ plaç pələç,

labiette/ la belette/ lablet ~ labälet, etc.)

تكون . هي أيضاً ، في الفرنسية الراهنة ، في وضع سمة شبه

متوافرة بالنسبة إلى المنظومة، سيمكن الإجابة منها في التباين اللساني بأشكال مختلفة . ففي المحكي الباريسي الدارج جداً ، يكون التعاقب *zero/ø* ، تقريباً دائماً ، منتظماً ألياً بواسطة السياق ، ويقول الصوتيون بشكل مألوف إنَّ ظهور الصائت [*ø*] ينتظم « بقانون الصوامت الثلاثة » الذي ينبغي بموجبه التلفظ بـ [*ø*] كلما حال هذا الصائت دون تشكيل مجموعة من أكثر من صامتتين (Marinet, *Langue et fonction*, p 22) . وسوف يتطبع التلَوْن المُقَدَّر ، التقليد الذي أوجد السجل الشعري ، أو أحياناً سوف تطبع بعض التلَوْنَات غير المقعدة ، التلَوْنَات الإقليمية خصوصاً في النصف الجنوبي من فرنسا ، الخ . بطالع توزيع ووتيرة استعمال [*ø*] استعمالاً مختلفاً تماماً عن الاستعمالات الملحوظة في هذا التلَوْن للفرنسية « الباريسية الدارجة جداً » .

II / ١٠ - التلَوْنَات وتجديد المنظومة جزئياً

غير أنَّ الفوارق التي تطبع تلَوْنَات لغة واحدة ، لا تستعمل فقط أساليب لسانية متوافرة أو شبه متوافرة بالنسبة إلى المنظومة ذاتها . إن مواطناً قشتاليّاً يلفظ *Zuecos Suecos* في عبارة «des sabots suédois» بصوت أصم يخرج من بين الأسنان بالنسبة إلى بداية المقطع الأول ، وبصوت صافر أصم نواقي سنخي بالنسبة إلى بداية المقطع الثاني . وهذا يكفي لإقامة تعارض صوتي . وبالمقابل ، فإن بوليفياً يقول [*Swek + swek*] مع صوتين صافرين أصميين في البداية ، لكنهما هذه المرة صوتان ظهريان - سنخيان ، وعندئذ لا يعود في الإمكان الكلام على تعارض */S/ ~ /B/* . وسيتمين حينئذ أن نعتبر تماماً أنَّ التلَوْن اللقشتالي والتلَوْن البولييفي للاسبانية يمثلان تنظيمًا للمنظومة مختلفاً جزئياً . في هذه الحالة ، على المستوى الصوتي

إن التلونات اللسانية لا تختلف فقط على المستوى الصوتي ، وإن معلومة تنظيم للمنظومة يمكنه أيضاً أن يكون من النمط الصوقي . ومثل ذلك أن التلون الاجتماعي الذي تمثله الفرنسية المقعدة ، يحافظ على منظومة شفوية مرتكزة على التفريق بين عدة أنواع من التصريف ، في حين أن تلونات أخرى ، اجتماعية أو جغرافية ، للفرنسية تمتلك منظومة شفوية بدون تصريفات مميزة^(٥) .

تفاعل لساني أم تفاعل اجتماعي ؟

II / ١١ - تعريف المتحد اللساني

اذن لا يمكن أن يكون كافياً واهياً ، تعريف المتحد اللساني الذي لا يأخذ في الاعتبار التباين ضمن اللسان ، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى التعريف الذي يخصص الطرف عن التباين بين الألسن ، ولا يعطي ، مثلاً ، أية مكانة للجماعات الثنائية اللسان أو المتعددة الألسن وربما أن المتحد الأحادي اللسان اعتبر لأمدة طويلة ، ضعفاً أو صراحةً ، كأنه النموذج والمعيار ، فإن الجماعات الثنائية اللسان والمتعددة الألسن عوملت ، هي أيضاً ، ولأمدة طويلة ، كأنها جماعات هامشية وكان شارل ف. هوكيت (Hockett) من جهته ، يعرفها كأنها متحدات تلعب دور الجسر بين المتحدات الأحادية اللسان . ولكن مع أخذ الوضع اللساني على الصعيد العالمي ، توجب حقاً أن نلاحظ أن الجماعات الثنائية اللسان والمتعددة الألسن كانت كثيرة جداً ، وكان من المناسب ، بلا ريب ، أن يعاد النظر في المكانة المعيارية للمنتوحة ، حتى الآن ، للمتحد الأحادي اللسان كتب

(٥) انظر الفصل الثالث ، III / ٢١

جون ج. غومبرز (J.J. Gumperz) في كتاب (Types, p.463) . إذا كانت
الثنائية اللسانية والتعددية اللسانية هما المعيار ، فما من موقف
قبلي (a priori) يتعين عليه إرغامنا على تعريف المتحد اللساني
بمقتضى لغة واحدة . وفي الواقع ، لا يمكن تعريف هذا المتحد إلا
إذا عصمنا الطرف عن عدد اللغات الممارسة فيه . على أن التباين
ضمن الألسن يمكنه ، من جهة ، أن يكون واسعاً جداً لدرجة أنه لا
يمكن لأي متكلم أن يضبطه كله . لذا ، لفت فيشمان إلى أننا لا
نستطيع كذلك تعريف المتحد اللساني إلا إذا أخذنا في الاعتبار كل
التباين ضمن الألسن وبينها . (Sociolinguistique, p. 46-47) .

في هذه الظروف ، كيف يمكن الكلام أيضاً على متحد لساني
يوناني ، ومتحد لساني روسي ، عربي ، كينبوي ، كيشوي أو
انكليزي ؟ واية حقيقة يمكنها أن تشمل ، مثلاً ، مصطلح متحد
لساني فرنسي ؟

II/ ١٢ - مثال المتحد اللساني الفرنسي :

لوصف واقع متحد لساني ، خصوصاً واقع المتحد الفرنسي ،
سيتمين امتلاك مصطلح يسمح بمقابلة التلون المقعد (المطبوع) -
ذلك الذي تحاول المدرسة دائماً أن تفرضه - والتلونات المحلية
للمنظومة ذاتها ، وهي تلونات سنطلق عليها تسمية التلونات
المحلية (Allolectes) لهذه المنظومة .

ومثاله أن المرء لو ولد وهاً يعيش في مونتارجي ، شاتودون
أو أرجنتاي ، يمكنه أن يستعمل في تسلياته أو في حياته المهنية
اللهجة المحلية (F₁) من الفرنسية ، وهي لون اكتسبه في عائلته ، إلى
جانب استعماله الفرنسية المقعدة (F₂) في أماكن أخرى . وفي سانت
أو في أبغوليم ، سيستعمل المرء لهجة محلية أخرى (F₃) تختلف عن
(F₁) و (F₂) معاً ، ببعض السمات الصوتية ، النحوية أو المعجمية ،

ففي الريف الشارفتي يمكن للهجة (f₂) أن تتراجع بدورها أمام محكي (Parler) يكون فيه مجمل الاختلافات بالمقارنة مع (f₂) و (F_n) كبيراً لدرجة أننا نكون في الواقع أمام تنظيم مختلف لمجمل الوحدات اللسانية . وبالتالي نكون أمام منظومة مختلفة . سنطلق على هذه للمنظومة مصطلح (Vernaculaire) لغة محلية ؛ وهي تقليدياً معروفة بوصفها لهجة بلدية (لهجة Oï) .

في ليموج أو في بلاك ، تتعايش الفرنسية المقتدة (F_n) مع لهجة محلية (f₂) وفي الريف الليموزي تفسح (f₃) المجال أمام لهجة بلدية أخرى (لهجة غربية شمالية) بشكل مألوف، وهي من تلوينات الأوكسيتانية المعصاة في الماضي باسم اللهجة المحلية الليموزية أما خطاب سكان ناربون فيتطابق إما مع (F_n) وإما مع لهجة محلية فرنسية (f₄) ، وفي الريف الناربوني ينحصر استعمال (F_n) و (f₄) أمام الاستعمال الشفهي للهجة بلدية (لهجة غربية جنوبية) كانت تدهى في الماضي اللهجة المحلية اللانغدوكية . (لغة الأوك (Langue d'oc) .

يقابل التلوينات المحكية من الأوكسيتان ، تلون مكتوب هو اللون الأدبي المتمثل بنصوص قديمة وحديثة ، والذي ينزع حالياً إلى الاندماج في مجال النسلية ، وكذلك في مجال المدرسة والثقافة . حتى بالنسبة إلى بعض سكان المدن . أن تلوينات الأوكسيتانية ، الإقليمية والأدبية ، هي موضوع دراسة في التعليم الثانوي (حتى وإن كان لا يخصص لها سوى وقت قليل ووسائل متواضعة) وكذلك في هذه معاهد جامعية . زد على ذلك ، أنها اليوم متداولة في قسم من الصحافة وفي الأسطوانات ، ولكن وسائل الاعلام بوجه عام لا تخصص لها سوى مكانة هامشية^(٦) . كما هو الحال أيضاً بالنسبة

(٦) راجع بهذا الموضوع تنظيم الثقلات الإقليمية . في Larousse . مجلة اللغة الفرنسية ، العدد ٢٥ (شبط . ١٩٧٥) .

الى « اللغات الاقليمية » الاخرى .

اذن ليس للجماعات التي تعيش في فرنسا القاموس الشفهي نفسه ففي مونتارجي ، شاتودون او لوجنتاي ، ليس القاموس الشفهي لأكثريّة الجماعات ، مميّزاً إلا بالتيّارين ضمن الالمن . وفي ليموزان او في الناريوتي ، يضيف القاموس الشفهي للجماعات لونا أو عدة ألوان من اللهجة البلدية الاوكسيتانية الى ثلوثات اللغة المسمّاة مشتركة . وفي بريتانيا (Bretagne) يضاف لون أو عدة ألوان من اللهجة السلتيّة - البريتانيّة إلى الثلوثات الفرنسيّة اما في الألزاس واللورين الشمالي الشرقي ، فيمكن للقاموس الشفهي أن يتضمّن ، فضلاً عن الثلوثات الفرنسيّة ، لونا من الفرنكونيّة ، المتحدرة من السويسريّة الألمانية القديمة أو المحدثّة ، وكذلك الاستعمال السلبي للألمانية سواء في القراءة أم في الاستماع ، وهناك أخيراً لون من الألمانية اليهودية التي يتكلمها عشرة آلاف شخص تقريباً . إذن يتميز القاموس الشفهي لعدد كبير من الفرنسيين بالتيّارين بين الالمن .

في ارجنتاي ، غاريون او ستراسبورغ يمكن للقاموس بعض الجماعات الشفهي أن يستبعد اللون الفرنسي المعقّد (F_n) ، وأن يتضمّن لونا أو عدة ألوان من المنظومات البرتغالية ، الإسبانية ، العربية ، البربرية (الأمازيغية) أو الإيطالية ... ، وأن يتقبّل لونا من الفرنسيّة تعاني بناءً واستعمالاته من التأثيرات المتبادلة تحت ضغط المنظومات الأخرى الداخلة في القاموس الشفهي حينه . وأن الجيل الأحدث بين هذه الجماعات ، عندما يحري إدخاله إلى المدرسة ، يمكنه أن يمتدّخل الفرنسيّة للمعقّدة (F_n) في قاموسه الشفهي وأن يزيل من الثلوثات الفرنسيّة المكتسبة ، التأثيرات المأجمة عن وجود منظومات أخرى . وقد يحدث أن يقتصر القاموس الشفهي لهذا الجيل الفتي ، عندما يفقد المنظومات البرتغالية ،

الاسبانية ، الايطالية ، العربية او الليبيرية وتلوثاتها . او عندما لا يحتفظ منها باستعمالها السلبي .

إلا أنَّ الجماعات أو الأفراد الذين يتضمَّن قاموسهم الشفهي لوناً أو عدَّة ألوان من المنظومة الفرنسية ، لا يتحصرون في نطاق أراضي فرنسا . ومثال ذلك في لوكسمبورغ حيث يشكل لون الفرنسية المقعَّدة (F_n) ، في استعماله الشفهي والكتابي ، جزءاً من القاموس الشفهي للبورجوازية والطبقات القيادية ، لأنَّ تعليم الفرنسية والألمانية يبدأ منذ السنوات الأولى في المدرسة الابتدائية ولأن كل ما يُكتب وما يُطبع هو بالفرنسية (أو بالألمانية) ، في حين أن كل حوار يدور بالليكسمبورجية (Reimen, Luxembourg, p 89)

(102)

أما في مناطق جزر الأنثي (Antilles) حيث يجري تعليم الفرنسية ، فيمكن للقاموس الشفهي الخاص بالجماعات الاجتماعية و / أو الاقليمية أن يتضمن الفرنسية المقعَّدة (F_n) ولوناً محلياً ، إلا أن هذا الأمر لا يحدث حقاً من استعمال لهجة مولدة (Créole) لا يمكن خفض بُناها المحلية ، مهما أمكن لأصلها أن يكون ، إلى البنى الخاصة بلون من الفرنسية .

ويمكن للقاموس الشفهي الخاص بسكان الكويك (Québec, Canada) أن يتضمن الفرنسية المقعَّدة (F_n) ، إلى جانب لهجة من لهجات الفرنسية المحلية ، ولوناً أو عدَّة ألوان من المنظومة الانكليزية . زه على ذلك أن الأكاديميين في ايقوسيا الجديدة يستعملون لهجة محلية فرنسية ، هي بشكل خاص لون مستعمل شفهاً ، ويجري تداولها في الوسط العائلي والملاهي

وفي بلدان المغرب ، تستعمل العبارات الإسلامية اللون الموسوم بالعربية الماثورة (الكلاسيكية) حصراً ؛ وفي العائلة ، يجري استعمال اللهجات العربية المحلية أو أحياناً المنظومة

الموريرية (الأمازيغية) . واللون الموسوم بالعربية المأثورة المعصورة أو أيضاً للعربية الحديثة يشغل جزءاً من مجالات المدرسة والثقافة والإدارات وبعض النشاط المهني . أما العربية الموسومة بالوسيلة (لهجات محلية تمارس الاقتراض ، لاسيما الاقتراض المعجمي من العربية الحديثة) فيمكن استعمالها في الإدارة أو في أماكن العمل والتسليّة . وأما المنظومة الفرنسية ، الممثلة بلون من الفرنسية المفقدة (F_n) ويلون محلي ، فيمكنها أن تتكاسم مع العربية وتلوناتها عدداً كبيراً من الميادين والمجالات ، باستثناء ميدان العبادات والشعائر . وميدان الأسرة بشكل عام جداً . عندئذ سنفحص عدد التلونات اللسانية الداخلة في القاموس الشفهي لبعض الجماعات المغربية .

يؤكد فيشمان (Sociolinguistique, p. 43) على وجود متعدد لساني منذ اللحظة التي يكون فيها للأفراد لون لساني واحد مشترك ، على الأقل ، ويكون لهم أيضاً معايير وقواعد لاستعمال هذا اللون استعمالاً صحيحاً . وإذا شئنا أيضاً الكلام على متحد لساني فرنسي ، فلن نستطيع أن ننمو هذا المنحى إلا لأنّ القاموس الشفهي لمجموع من المتكلمين يتضمن ، فضلاً عن الفرنسية المفقدة (F_n) التي يبدو توزيعها ذا ثغرات ونواقص ، لهجةً محلية فرنسية والقواعد لاستعمال هذا اللون ذات استعمالاً صحيحاً .

إن التوازن الداخلي لقاموس الفرد أو الجماعة الشفهي هو بالضرورة توازن هش وظرفي ، فيمكن التخطي من تكون لساني ، ويمكن لهذا اللون أن يتقاطع مع لون آخر ، إلخ . وفي هذه الظروف والشروط لا يمكن تصور المتحد اللساني إلا كواقع تتواصل أعادة تنظيمه باستمرار ، وهو لكي يُصَدّق نفسه ، لا يعود أمله ما يفعله بالتعايش الجغرافي بين جميع أعضائه ، ولا بتألف واستقلالية المجموع الذي يمكنهم أن يشكلوه . وفي تطلق المتحد اللساني

المعتبر على هذا النحو ، لا تعود المسألة مسألة وحدات قومية ،
دولانية أو إدارية ؛ وليس بمستطاع الاستقلال وبلجيكا وفرنسا
والكويك أو المغرب ، بوصفها وحدات من هذا النوع ، ان تنتمي الى
متحد اساني فرنسي .

II / ١٣ - المتحد الخطابي ، المدار اللساني

كان بلومفيلد يقترح (Langage, p.44) تعريفاً آخر للمتحد
اللساني. إنه جماعة من الناس تعمل وتتصرف بواسطة الخطاب.
انن يندرج الباحثون الذين يؤثرون مفاهيم الخطاب والتفاعل
الاجتماعي ، في مقاربة للواقع يقترحها هذا التعريف الثاني
لبلومفيلد اما هيمز Hymes (Speaking, p.92 els.) ، (أحد رؤاد
اثنوغرافيا الخطاب ، فيقدّر ان الموضوع الأول للبحث يتعين ان
يكون النشاط الخطابي (Speech activity) للسكان. ويتحدث غومبرز
(Types, p.463) عن المتحد الخطابي (Communauté de discours)
الذي لم يعد في الإمكان ان يتعدد ، حسب قوله ، بمقتضى لغة
واحدة ، ولا حتى بمقتضى لون لساني واحد . والتدليل على هذا
الواقع ، يفضل غومبرز عملياً مصطلح المدار اللساني (Aire
linguistique) . والمدار اللساني هو جماعة اجتماعية ذات لسان
واحد ، لسانين أو عدة لسان ، تعين بتناسكها الى تواتر التفاعل
الاجتماعي وكثافته . وهو مدار يتميز من المدارات المحيطة به ،
ويتحد بواسطة خط ضعيف على مستوى الإبلاغية الاجتماعية.
ويمكنه ان يتكون من جماعات صغيرة متحدة باتصال ثابت معن فرد
وفرد ، وان يغطي مناطق واسعة ، حسب درجة التجريد التي يراد
للبحث ان يطالها ؛ ولا يعطي غومبرز أية قیمة لاسمة للمتحد
التعريفية . ما عدا مفهوم التآلف الاجتماعي ، التفاعل الاجتماعي ،
وحده . وعليه ، فإن لليرير الجزائريين اللذين كانوا يعيشون في

العاصمة الجزائرسنة ١٩٨١ ، مثلاً ، يشكلون متحداً خطيبياً (CD) ويمكن لقاموس هذا المتحد الشفهي أن يتضمن ثلاث منظومات لسانية مختلفة ، البربرية ، العربية والفرنسية - ولوناً أو عدة ألوان من كل منظومة من هذه المنظومات . وبشكل عام ، ليست البربرية مكتوبة ولا يجري التدريس بها ، وبالتالي سيجري تمثيلها في القاموس الشفهي للمتحد الخطابي (CD) بواحد أو بأكثر من تلوّناتها الإقليمية ، وسيجري تمثيل العربية بلونها الجزائري وبللون الموسم بالعربية المانورة . سواء بالحد الأدنى من هذا اللون الذي يستلزمه الانتماء إلى الدين الإسلامي ، لو بأكثر من هذا الحد الأدنى ، وبالأخص عند المتكلمين الذين سيجري إدخالهم إلى المدرسة . وعندها يمكن لهؤلاء الآخرين أن يضيفوا إلى قاموسهم الشفهي العربية المانورة المحدثة والعربية الموسومة بالوسيلة ، وكذلك اللوناً من الفرنسية . ويمكن لمتحذات خطابية أخرى (متحد البربر الجزائريين الذين يعيشون في باريس ، ومتحد الصرب في تونس أو القاهرة ، والمتحد الذي يضم أفراد ولاية جاكارتا ، أو سكان شاتودون ، الخ) أن تتضمن في قاموسها الشفهي لوناً أو عدة ألوان من منظومة أو من عدة منظومات داخلة في قاموس المتحد الخطابي (CD) . إذن لا يشكل مجموع المتكلمين في منظومة لسانية أولون من منظومة لسانية ، متحداً خطيبياً واحداً بالضرورة.

إن المعتقد الساذج لدى غير المختصين وفرضية فلسفة اللغة ، كانا قد جعلتا من المتحد اللساني جماعة بشرية اتحادية الشكل ومستقلة تتكلم لغة ، هي ذاتها مؤتلفة ومستقلة والبحث اللساني يتخذ ، من جانبه ، تألف المنظومات كفرضية انطلاق . لكنه يصلح بأن فوارق واختلافات في مبادئ اللغة يمكنها أن ترتبط بتلوّن الاستعمالات . ومع الاستمرار بالقول والاختلاف بمفهوم المتحد ذاته برهفه مفهوماً مناسباً ، مفهوماً مفيداً على الأقل في مرحلة معينة

من مراحل البحث ، مفهوماً يرتبط حتماً وبكيفية ما بمفهوم الإبلاغ أو
الاتصال ، يرفض البحث اللساني ، مع ذلك ، أن يترك مصطلح
المتحد يسود بظلامه المسائل الفلسفية واللغوية ذاتها ، وبعد إعادة
النظر في هذه الفكرة المألوفة والفحمة ، فكرة تألف المتحدات
للسانية (Martinet, Langue et fonction, p.128) ، كان لابد من البحث
عن سمات تعريفية جديدة ، وقد يتجسد العقد اللساني ، أولاً
بمقتضى منظومة لسانية : ولا يمكن التعريف به إلا بمقتضى لون
واحد من منظومة واحدة : وإن مزاليا للجماعة الاجتماعية وعوامل
تماسك الجماعة الاجتماعي التي تؤلف المتحد اللساني ، والحرى
السلام على متعدد خطابي أو مدار لساني ، من الكلام
على متعدد لساني ، الخ ، إن المقترحات اليوم لشيء ، وإن
البحث من سمات تعريفية للمتحد اللساني يطرح ، وحده ، المشاكل
التي يمكن أن يصادفها كل علم ، مجدداً ، وبكل تعقيداتها - من
حيث اختيار مناهجه وطرائقه ، ومن حيث تحديد موضوعه بالذات -
كل علم ينكب على الإحاطة بالعلاقات والروابط بين الوقائع اللغوية
والوقائع الاجتماعية.

الفصل الثالث

المواقف اللغوية الأحادية

« لا يوجد شخصان يستعملان اللغة بالطريقة عينها تماماً » ١ مراتبه

اللغة الأحادية والمجتمعات « البسيطة »

III / ١ - البساطة: فرضية وواقع

هناك متحدات لا يستعمل أمثالها سوى منظومة واحدة لكي يقيموا الاتصال اللساني في ما بينهم . وخلافاً لما أمكن الاعتقاد فيه لزمن طويل ، ليس من المؤكد أبداً أن تكون هذه المتحدات هي الأكثر عدداً على الصعيد العالمي ، ولا أنها تمثل فيه المميز والقاعدة . وفوق ذلك ، لا شيء يضمن للثنائين ضمن اللسان ، وهو الوحيد الذي يظهر على هذا الصعيد ، أن يجعل من هذه المتحدات موضوعاً دراسياً بسيطاً .

لا يزال بعض المجتمعات ، اليوم ، محصوراً من حيث العدد ، ومعزولاً نسبياً . وإن معظم نشاطات تلك الواقع وتحويله تقع في هذه المجتمعات تقريباً على عاتق الجميع بالتساوي ، وإن كثيراً من المصالح فيها لا يزال مشتركاً بين لكثرية أعضائها ، ويطلب الاتجاه إلى اعتبار هذه المجتمعات كأنها مؤلفة ومتناسقة .

يقول البعض إنها بسيطة ، ويصفها البعض الآخر بأنها بدائية . وعندهم يفهم من الممكن التسليم نظرياً بأن الحاجة إلى تلوّنات لسانية متميزة بكل وضوح ، تظل فيها حاجة محدودة . وأن التباين ضمن اللسان الواحد ما هو إلا محدود الامتداد والسعة في هذا النوع من المجتمعات التي كانت موضوع توقّع في الدراسات الاشنولسانية الأولى

إلا أن فيشمان يلفتنا بحق ، عندما يتعلّق الأمر بالاتصال والإيلاج ، إلى عدم وجود متحد متجانس ، باستثناء ما هو قائم في العالم التبسوطي لبعض النظريين والباحثين . فالمجتمع الموسوم بالبساطة ، والمفترض أنه متجانس ، يمكنه إذن أن يشهد في داخله تمايز لونين لسانيين أو أكثر . زوّ على ذلك ، أن الاتصالات اليومية أو المتواصلة على الأقل ، التي توحد أعضاء مجتمع كهذا ، لا تضمن بالضرورة لكل فرد كسباً مباشراً لكل من التلوّنات القائمة . ومثال ذلك ، عندما تكون السلطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات السحرية - الدينية ، تكون المنظومة الترانسبية المقابلة في نهاية النسل غالباً . ويمكن لهذا النسل في تمايز اجتماعي محدود أصلاً ، أن يؤدي إلى تمايز لساني يتعارض مع التضام الداخلي المتبادل . وعلى هامش ذلك ، يصل الأمر بلون من هذه الألوان ، إلى حد فقدان وظيفة الاتصال ذاتها . وهذا هو حال بعض اللغات الخاصة

III / ٢ - اللغات الخاصة

عندما تظل السلطة أمراً شاملاً للجماعة بأكملها ، أو على الأقل للجماعة الفرعية ، جماعة الراشدين بأكملهم ، فإن التمايز الاجتماعي بين الراشدين والأولاد يمكنه أن يفرض على المراهقين احتفالات تلقينية يجري اعدادها ، تقريباً على الدوام ، باكتساب لون لساني

يسمى اللغة الخاصة (Langue spéciale) . وعندما تكون السلطة في أيدي بعض الأفراد ، يكون « الدور المنطوق بهؤلاء الأقوياء » (على حد تعبير اللسانيات الاجتماعية التفاعلية) هو أيضاً خليفاً بأن يُربط بلون خاص من القاموس الشفهي ، وهو لون يجري التوافق على الاعتراف له بأنه هو أيضاً لغة خاصة ، ويقصد باللغة الخاصة اللون الذي لا يُستعمل إلا من قبل أفراد أو جماعات فرعية . موصوفة في ظروف خاصة ، (Joseph Vendryes, Le langage, 1923) . وقد ينطبق الأمر هذا على الحكام والقضاة والرهبان والسحرة ورؤساء القبائل أو العشائر ، والجماعات الفرعية لقدامى أو لـ «نبلاء» متعلمين في مواجهة مروجيهم ووعيتهم ، أو أيضاً الجماعات الفرعية للراشدين في مواجهة الأولاد ، الخ . إن اللغات الخاصة ، المعرفة على هذا النحو ، لا يمكنها أن تكون ألواناً مرتبطة فقط بالمجتمعات المفترضة أنها بسيطة ومثالية . فالوحدات اللسانية والسير الاجتماعية للغات الخاصة لا يختلفان . بالطبيعة ، عن وقائع وسير الألوان الملحوظة في المجتمعات المركبة ، مثل اللهجات العامية أو أيضاً المصطلحات التقنية أو العلمية ، الخ . (انظر لاحقاً III/٨٠ و III/٨١) . يبدو أن اللغات الخاصة مطبوعة ، بشكل خاص ، على مستوى معجميتها . فهذه المعجمية لا تحتوي ، بعامة ، إلا على عدد صغير من الوحدات . فقد لا تملك اللغة الخاصة بالدوغون في سانغو ، إلا معجماً من ٣٠٠ كلمة تقريباً (M. Cohen, Matériaux, P.88) وهذا يفسر كون بعض الباحثين يتكلمون ، حينئذٍ ، على « بقايا لغات » . في لغة الدوغون الخاصة ، تشابه بعض الكلمات كلمات من منظومة دوغون ، دون أن تكون منها . وما أكثر الوحدات المعجمية في هذه اللغة الخاصة ، التي تبدو كأنها نتاج تشويهاة منظومية مفروضة على معجمات (lexèmes) الدوغون (Cohen, ibid.) . وأن

تشويوهات معقدة جرى رصدنا ، بشكل مكثف ، في لغات خاصة أخرى : فهي تستعين بباءات وواحد دلخية وواحد متكرر دائماً وأبداً ، أو أنها تستعين أيضاً بالتضيق ، وبالتحريك أو القطع لبعض المقاطع ، الخ . هنا أيضاً ، تفرض نفسها المقارنة مع بعض التلونات اللسانية المعروفة في المجتمعات المركبة . ففي الميدان الفرعسي ، نلاحظ أن Le Verlan وهي مقلوب ← « renvers » ← « VarVer ← Verla » هي بكل وضوح لون موضوع لغات ترميزية وبوسائل في غاية البساطة ، وأنها تنوع بشكل رئيسي من محميتها بواسطة القلب المنهجي للمقاطع . ومثل ذلك عنوان أغنية حديثة النشوء ، كان يقول :

[Les beté] = Laisse béton! = Laisse tomber

إن التمايز في معجمية لغة خاصة يمكنه أيضاً أن يلجأ إلى الاقتراض . ففي بعض الأحيان تأتي الوحدات المعجمية المقترضة من لهجات عامية في المنظومة التي يمارسها الأكثرية ، أو تأتي أيضاً من منظومات لسانية مختلفة . والحالة القصوى هي الحالة التي تكون فيها اللغة الخاصة ذاتها منظومة مختلفة عن المنظومة التي يمارسها المجتمع بأسره .

وبحسب الطرق نفسها ، يمكن للتشويه المنظومي المطبق على الوحدات المعجمية أن يطل الوحدات الصرفية . ولكن يُلاحظ أيضاً أن كثيراً من اللغات مطبوع بطرق صرفية تمكّل ، بخلاف ذلك ، تبسيطاً مفرطاً للطرق التي يمارسها التلون اللساني لدى الأكثرية ، مع ذلك ، يبدو أن الحالة الأعم لا تزال الحالة التي يكون فيها علم النحو وعلم الصوت المتعلقان باللغة الخاصة ، علم نحو وعلم صوت اللون اللساني للخاص بالأكثرية ، أو أنهما يظلان قريبين منهما .

ويحدث أن تكون اللغة الخاصة مطبوعة في كل المستويات (الصوتية والنحو والمعجم) بطرق لسانية تنتمي إلى حالة لغوية

قديمة . عندما لا تنزع اللغة الخاصة . بكاملها . إلى التساهي مع هذه الحالة اللغوية للقيمة . وهذا ما يبدو ممكناً حتى في غياب كل تراث مكتوب .

وفي أقصى حد . عندما تتراكم التشويشات المعجمية أو الصرفية . والمفترضات والبدائيات من كل الأصناف . يصل الأمر باللغة الخاصة إلى درجة لا تعود فيها سوى سلسلة من الصيغ الطقسية للفرغة تقريباً من كل معنى . وهذا الأمر يصلح عندئذٍ لغير المختصين . وكان هذا . بلا شك . واحداً من الأهداف الأولى للمشودة . ولكن هذا الأمر قد يصلح أيضاً لأولئك الذين يتعين عليهم أن يستعملوا هذه الصيغ . والملازمين عندئذٍ بأن يفرضوا على أنفسهم استنكارها دون فهم أو تقريباً دون فهم . وإذا توصل اللون المسمى لغة خاصة . بعد بلوغه هذه المرحلة حيث لا يعود يضمن وظيفة الاتصال التي تعتبر . تعريفاً وظيفية كل لغة . إذا توصل هذا اللون إلى الاستمرار أيضاً لزمان معين . فمرد ذلك إلى كونه قد اكتسب وظائف اجتماعية يمكنها أن تكون مضمونة . بحسب كل احتمال . بواسطة أية علامة أو منظومة علامات غير لسانية .

ومما لا ريب فيه أن اللغات الخاصة ليست هي الألوان الوحيدة الخليفة بالتمايز في المتحدثات الأحادية للسان . المحدودة نسبياً . للمؤلفة والمعزولة . ومع ذلك يتخلّ صحيحاً أن وجود هذه اللغات الخاصة يبين بكل وضوح كيف يتوصل فلان اجتماعي إلى التمايز لدرجة أنه يلحق الضرر بالفهم المتبادل . وحتى أنه يفقد وظيفته الإملاعية . إن التباين ضمن للسان الواحد يبلغ هنا حدوداً . لا يكفي تمايز اجتماعي ضعيف الانتشار . لجعله قابلاً للتوقع منذ الوهلة الأولى .

يمكن للممارسة المنهجية للزواج الخلجي أن يفرض على متحد أحدي للسان . محدود . مؤلف ومعزول نسبياً . تبادلات

تحافظ فيه على تلوّنات لسانية ، يكون واحداً خاصاً بالجماعة الفرعية للرجال ، وثانياً خاصة بالجماعة الفرعية للنساء ، وإن التلوّنات التي تسمى أحياناً لغات (خاصة بـ) النعماء يمكن أن يكون أصلاً - دون أن يكون مع ذلك ، وبلا شك ، الأصل الوحيد الممكن - تنوعات جغرافية في المنظومة التي تمارسها الجماعة الفرعية للرجال ، إن توزيع التلوّنات اللسانية حسب الجنس يمكن أن يستمر على مدى الأجيال ، وفقاً لكيفيات مختلفة ، وحتى أنه يمكن أن يستمر ، حتى لو لم تعد موجودة ممارسة الزواج الخارجي ، لو لم تعد موجودة تقريباً إلا كذكرى ، والنساء الداخليات في المقعد من طريق هذه الممارسة للزواج الخارجي ، عندما لا يحملن إليه لولاً جغرافياً من منظومة لسانية تمارسها جماعة الرجال الفرعية ، بل يحملن إليه منظومة أخرى ، عندئذ نخرج من نطاق التباين ضمن اللسان الواحد ، ونجد أنفسنا مجدداً في مقام ثنائية اللغة لوتعددية اللغة ، وهذا الأمر أبعد ما يكون من الحالات النادرة . (انظر لاحقاً ٢/٧ إلى ٩/٧) .

III/٣ - تقلّب المواقف اللغوية الأحادية :

يبدو أن عزلة المجتمعات الأحادية اللغة ، الصغيرة ، والمؤلفة نسبياً ، ليست أبداً سوى عزلة نسبية ، فبالإضافة إلى المبادلات التي تفرضها ممارسة الزواج الخارجي ، يمكن للمجتمعات اللغوية الأحادية المحدودة أن ترى نفسها وقد فرضت عليها تبادلات تجارية و/أو إدارية مع مجتمعات أوسع والقرى ، الأمر الذي يكفي لتهديد الأحادية اللغوية بالذات لهذه المجتمعات المحدودة عديداً . يذكر موريس هوي (M. Houis, Anthropologie linguistique de l'Afrique, P 150 et 151).

حالة المنطقة الجبلية في الجيرا (تشاد) حيث كان لا يزال

كل متحد من القرويين للمستقلين ، يملك تقريباً لفته الخاصة به حتى عهد قريب . وقد أنشأت الإدارة الاستعمارية في المنطقة سوقين ثابتين ، أحدهما سنة ١٩٢٦ ، والثانيهما سنة ١٩٢٢ في مرحلة أولى ، شجع هذا الأمر على استعمال العربية كلفة تداول بين المتحدرات ، واليوم كثيرون هم التماس ، اللغويون سن الأربعين في الجيرا ، الذين لا يتكلمون سوى العربية ، يعتبر م . هوي أن العربية ، بعد مرحلة من تعميم الثنائية اللغوية في كل متحد ، باتت من الآن فصاعداً ، في هذه المنطقة ، لغة وضع جديد من الأحادية اللغوية ، هو بدوره في طريقه إلى الشمول والتعميم وفي هذه الظروف ، لابد من التسليم حقاً بأن المتحدرات اللغوية الأحادية ، المحدودة عددياً ، المعزولة نسبياً وغير المتميزة اجتماعياً إلا قليلاً ، لا تمثل دائماً مواقف اجتماعية / لسانية بسيطة ، كما أنها لا تمثل أوضاعاً اجتماعية / لسانية مستقرة .

المجتمعات المركبة والقلونات اللغوية

• ما من متحد قليل الاتساع ، مزلف لغوياً .. ١ . ملحقته

III / ٤ - الموقف اللغوي الأحادي والمجتمعات المركبة.

يمكن للمتحدات اللغوية الأحادية أن تكون مجتمعات مهمة ، عددياً ، وتشغل من جزاء ذلك مجالاً جغرافياً واسماً ، مجتمعات جرى التوافق على وصفها بأنها مركبة أو مكثفة . ولئن تنوع شروط الوجود الموضوعية وتقسيم العمل المتقدم يولدان في هذه المجتمعات فروقات وتنقضات في المصالح ، في الوظائف والمشاريع الاقتصادية ، السياسية والثقافية / الاجتماعية ، محددة على هذا

النحو طبقاتٍ وجماعات اجتماعية لا يمكنُ لمسالكها ، ومنها المنشط اللغوي ، أن تكون متماثلة ومتماهية ، ولكن الطبقات والجماعات الاجتماعية ، مهما أمكن لفروقاتها وتعارضاتها أن تكون واضحة ، ليست إلا وحدات جزئية ، بلا واقع خارج المجتمع الشامل ، وليس لها وجود بدورها إلا من خلال العلاقات بين الطبقات والجماعات الاجتماعية . وهذه العلاقات تختلف بنوعيتها ، بدرجةها ، بتموضعها ، إلخ . دون أن يتعارض ذلك مع التداخل الاجتماعي ، مع تراكم الجماعات الاجتماعية ، ومع مساهمة أفراد كثيرين في جماعات مختلفة . في هذا النوع من المجتمعات اللغوية الأحادية المركبة ، تفرض نفسها إذن ، الحاجةُ إلى تلوّنات اجتماعية لغوية متكيفة مع العلاقات داخل الطبقات والجماعات الاجتماعية ، وإلى تلوّنات لغوية جغرافية في أن واحد ، وذلك على قدر ما تكون جماعة أو عدة جماعات أو كانت في الأصل مرتبطة ، بشكل خاص جداً ، بمنطقة من المجال الجغرافي الذي يشغله المجتمع الشامل . أخيراً ، تفرض نفسها الحاجةُ إلى تلوّن يعمل في مستوى المجتمع الشامل وبمحيط علاقات جماعية متبادلة ، وهو تلوّن يحدّد هنا بوصفه تلوّناً ناقلاً .

III/ ٥ - تشكّل اللغة المسماة مشتركة (عامة)

إن السمة التعريفية التي يؤخذ بها ، عموماً ، لأجل هذا الواقع اللغوي (كان يتوجب حقاً ارتكاب رؤيتها تظهر محدداً) هي سمة الوحدة ، التألف . وقد يكون للغة المسماة مشتركة طابع جوهري هو الحفاظ على الوحدة في الاستعمال الحيّ (Cohen, Matérieur, p. 70) . وهذه الوحدة ستكون ، في ما يتعدى التباينات المحلية والاجتماعية ، وبعد إلغاء كل الإتحافات ، للشكل الوحيد بين جميع أشكال العاميات ، للشكل الذي يفزع نحو اللغة المدعومة ، دون أن يندمج

بالضرورة معها (Dubois et al., Dictionnaire, p. 449) . الخ .

مع ذلك ، لا يجري دائماً توضيح المصدر الذي جاءت منه
المحاولات للتعلمة على وضع أو صون وحدة اللغة المسمّاة
مشتركة ، لمحو الانحرافات وتحديد مكانة هذا الشكل الوحيد في ما
يتعدى التباينات الجغرافية والاجتماعية . كذلك لا يجري التوضيح -
بأي هدف يمكن للغة المسمّاة مشتركة أن تترعرع إلى التلون الموسوم
بأنه مدعوم ، دون الاندماج معها اندماجاً لزامياً . عندما يتعلّق الأمر
بتعريف اللغة المسمّاة مشتركة ، تعريفاً لسانياً واجتماعياً ، يبقى
في الواقع كثير من الشبهات والالتباسات التي تنعكس في مصطلح
فني بشكل خاص . وعلى هذا النحو يجري في اتجاه «اللغة
المشتركة» عينه ، اقتراح Koiné كلفة نموذجية أو كلفة مقولة ،
لغة حضارة ولغة ثقافة (بالأخص عندما يتجاوز استعمالها حدود
دولة واحدة) ، لغة متداولة ، لغة استعمالية ، لغة مركزية ... حتى
ليحدث استتعار الحاجة إلى وصف مزدوج ، وعندئذ يجري للكلام
على لغة قومية مشتركة أو أيضاً على لغة ثقافية مشتركة (لغة
ثقاف) .

مع ذلك يبدو أن الاجماع قد انعقد حول المسار التكويني ،
حول التاريخ الأول تماماً للغة تسمّى مشتركة ، ليس هناك تكوين
للغات كبرى ترمي إلى أن تصبح لغات رئيسة أو فريدة إلا في
المناطق الحضرية المنطوية والعالكة ، تقريباً على الدوام ، منظومة
كتابية ، كما كان يشهد على ذلك مارسيل كرهين (Maréchal II, p.
70) إن واحدة من اللغات الإقليمية ، لغة الجماعة الاجتماعية الأميز
والأكوي ، تفرض نفسها على البلاد قاطبة (Philipp, Guide, p. 395) .
في الاصل ، على الأقل ، اللغة المسمّاة مشتركة هي لغة
عامية كان لها الحظ السعيد ، فاكتملت لأسباب غير لسانية -
كالاسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الثقافية - أهمية

خاصة في متحدّ معيّن (Marcelle et Gardin, Linguistique sociale, p. 84). إن اللغة المسمّاة مشتركة لا يمكنها إذن أن تكون في البداية سوى لون إقليمي (أو شبكة ألوان إقليمية متقاربة) . كان حظها الأول في أنها كانت محكية وبالتالي جرى ترقّيها في جماعة أو عدة جماعات صارت مهيمنة اجتماعياً.

إن المسار الذي تسلكه جماعة أو عدة جماعات ، لتفرض نفسها ، سيفير بالذات طبيعة العلاقات بين الجماعات وسيزيد من وتيرتها ومن كثافتها . إن هذا المسار يشهد من تداخل الجماعات الاجتماعية ، ويؤدي إلى المشاركة في جماعات اجتماعية مختلفة بالنسبة إلى عدد من الأفراد متعاطف على الدوام ، وهو بذلك بالذات يخلق ثم يحافظ في مستوى المجتمع الشامل ، على الحاجة إلى تنوع لساني تحدّده وظائفه تماماً كأنه فنوع ناقل ، بالتعامل مع ما يجري تعريفه ، في نطاق التباين اللغوي الداخلي ، بوصفه لغة نافلة ، لغة جماعة خاصة تستعملها جماعات متجاورة إما للاتصال في ما بينها وإما للاتصال مع الجماعة الأولى ، في العلاقات بين الجماعات (Phlipp. Guide, p. 397) . مع ذلك ، يتعيّن التشديد على أن التنوع الناقل المحدّد على هذا النحو ، لا يعمل فقط بين جماعات متجاورة ، بل يكون بشكل رئيسي مستعملاً بين جماعات متداخلة ، في أغلب الأحيان ، تداخلاً وثيقاً.

III/٦ - القوننة (الترميز والتفصيل)

إن التلون الإقليمي ، وقد أدّى وظائفه كتلون ناقل ، وحظي بالترقية على يد الجماعة أو الجماعات المهيمنة ، سيحتلّ بـ « فرصة ثانية » هي فرصة المرور بمسار القوننة (Codification) أو التكوين . فإذا كان تكوين منظومة لغوية معناه السعي لاستقرارها وترجيدها ، تسيباً ولتياً على الأقل ، فمن الواضح أن الخطورة

الأولى ، (وهي بلا شك واحدة من الخطى الأكثر حسماً في اتجاه تدوين معجمة ما) ، لأي نحو وكذلك لآية صواتة (ولكن مع نجاح أقل ، غالباً ، لهذه الأخيرة) تكمن أيضاً في الافتراض من قانون مكتوب ، ومن تكييفه أو أيضاً من تدوينه وصوغه .

لولا ليس مستعملو القانون المكتوب ، المتعلمون ، سوى جماعات فرعية محدودة ، في طبقة اجتماعية صارت مهيمنة ، لكنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمنطقة ما . كذلك لا يمكن للنصوص (قوانين ، أوامر وقرارات ، وثائق إدارية شتى أو أعمال أدبية) التي ينتجها هؤلاء المعلمون أن تعكس سوى تلوّن ضمن اللسان الواحد ، محدود الانتشار . ونتاج المتعلمين هذا ، جرى تشييته لآمد طويل بواسطة الوراقين والنساخين أولاً ، ثم بواسطة الطباعة ، فاكتمل بذلك فضل المتكّن من الانتشار على مسافات كبيرة ، وإن المدونات أو الوثائق المكتوبة ، إذ ثبتت منظومة لغوية لا تظهر فيها سوى خلافاً بنوعية محدودة ، إنما خدمت حقاً وبكل وضوح قنينة هذه المنظومة وتعميدها ، ولكنها أسهمت في الوقت ذاته ، وبكيفية فعالة جداً ، في التوحيد السياسي الذي قادته لصالحها الجماعة أو الجماعات التي صارت مهيمنة .

عندما تكون أو تصبح جماعة أو عدة جماعات مهيمنة ، فإن الجماعات الأخرى قد تكون مضطرة لإقامة علاقات معها ، قائمة أولاً على المحاكاة والتقليد . وهذا على الأقل ما يقول به معظم القُبحين على اللسان الاجتماعي الأميركية . وقد يجري تقليد الجماعات المهيمنة حتى في عاداتها اللسانية ، الأمر الذي من شأنه أن يجعل من هذه الجماعات جماعات مرجعية ، ومن عاداتها اللسانية اللغة المرجعية أو أيضاً اللغة المسيّرة .

وإن صواتة هذه اللغة المرجعية (المستقرة نسبياً بفصل قانون مكتوب) ، ونحوها وصرفها ومعجمها ، قد تفقدوا إذ ذاك نماذج

تصوغها ، بكل سرور ، الجماعة أو الجماعات المهيمنة ، لكي تقدمها كنماذج تقلدها الجماعات الأخرى . وما لا شك فيه أن من الواقعية أكثر ، أن نعتبر أن الجماعة أو الجماعات المهيمنة قد احتاجت ، في لحظة معينة من تاريخها بشكل خاص ، إلى فرض عاداتها اللغوية على من كان لا يملكها ، وإلى تعظيمه إياها ، وإنها بحثت منذ ذلك الحين عن استقرار النماذج الصوتية والنحوية والصرفية والمعجمية لكي تكتفيها مع شروط التعليم وأهدافه ومتطلباته . ويكلف جهاز كامل من المتخصصين (الأميين ، الكتاب ، النحويين ، المعلمين وكل أرباب اللغة الذين تبدو الطبقة المهيمنة قادرة وحدها على رعايتهم عالياً) بأكمل وضع النماذج الواجب تعظيمها ، كتابة الصرف والنحو ، القواعد ، المعاجم لوائح بالأخطاء الإملائية ، كتب أمثال والقوال وعبر ، عروض الشعر وقوافيه وبحوره ، الأسلوبية إلخ . ، أو مؤلفات أدبية ، وعندئذ يجري كل شيء في اتجاه واحد : تثبيت من خلال الاختيار ، واختيار من خلال التنقية أو بالمعكس من خلال الاقتراض . وبالتالي جرى التشديد بشكل مكثف على الطابع المركب المصوّي للغة المسماة مشتركة . ويكون منهجياً الاقتراض الذي قمارسه في بعض أطوار تكوينها . لأن هذا التكوين مرتبط بتطور مراكز قوة قادرة على اجتذاب عناصر باللغة التنوع ، وصهرها ، (Cohen, Morénasor II, p. 72) . يتمين الاختيار لأجل تثبيت وتوحيد النماذج التي يتمين عليها الفرد على شاغل التصويب اللغوي الذي يعزى ، صوماً ، إلى الأعلى . بيد أن هذا الشاغل لا تنقاسمه بالضرورة كل الجماعات المهيمنة . فهو لا يكفي وحده لتفسير الأهمية الخاصة التي يرتديها اللون اللساني المفوتن في المجتمعات المركبة ذات اللغة الوحيدة.

III/٧ - التعمير (التطبيع)

هناك كثيرٌ من التلونات اللسانية المقبولة لا يقبلها ، رغم تعقيدها ، العدد الأكبر بوصفها النموذج اللساني الوحيد الذي يُرتجى العمل به . ذلك أن استعمالها لا يعمُ الصعيد الشامل للمجتمع ، وبعبارة أخرى تقول إن هذه التلونات المقبولة لسانياً لا تعاني ، رغم ذلك ، ما يسمى مساراً تطبيعياً (وفي هذا المعنى أيضاً ، يحكى عن مسار تعيد وقولية) . ويوجه عام جداً ، إن التلونات المقبولة التي لم يجر تعييرها وتطبيعها (أو تعقيدها) هي تلك التلونات التي كانت مرتبطة بجماعات لا تملك الوسائل المادية لتععيد لسانى ، لأن تلك الجماعات كانت قد فقدت ، أو حتى أنها لم تكتسب ابداً الهيمنة والانتشار في المجتمع الشامل.

وعلى العكس ، من الميسور للجماعات التي تسيطر على سلطة الدولة والجهاز المؤسسي ، أن تطبع لونها لسانياً مقبولة . فعند آمد بعيد ، تفرض الطبقة المهيمنة قراراتها ونظامها بواسطة اللون اللغوي المتداول ، ثم المقنون والمقعد . وهذا اللون صار فطرياً ، وسيلة للحكم ومؤسسة دولانية بين المؤسسات الأخرى ، فالجماعة أو الجماعات المهيمنة ، بعدما اكتسبت أدوات التطبيع التي صاغها التعميد (قواميس ، قواعد ، كتب مرجعية ، إلخ) ، أسست وطوّرت ، في مرحلة ثانية ، المؤسسات المطبّعة للغة : الأكاديميات ، المعاهد ، منظومة تعليمية مع مؤسساتها ، ومؤخراً وسائل الإعلام الجماهيري . وعندما تمنح للجماعات المهيمنة اللون المتداول ، ثم المقنون والمطّبع ، المقام المؤسسي قفونياً ، الذي تتمتع به فطرياً منذ آمد طويل ، فإن هذا اللون يقود عندئذٍ لغة دولة ، لغة قومية أو لغة رسمية . إن اللون المقنون ثم المطّبع ، والمرتبطة على هذا النحو بالمؤسسات الدولانية الأخرى ، والمؤسس بدوره ، يكون

حينئذٍ مرتبطاً حقاً ، ارتباطاً موضوعياً بنظام القيم ، وبأهداف ومصالح الجماعة أو الجماعات السائدة . وقد حدث أن جماعات غير مهيمنة قوّفت لونها اللغوي ، ولكن يكفي عتدّل أن يظل هذا اللون في معزلٍ عن المؤسسات التطبيقية ، مثلاً في معزلٍ عن النظام التعليمي وعن وسائل الإعلام الجماهيري ، حتى لا يعمّ استعمالها على صعيد المجتمع الشامل ، وحتى تبقى من الألوان غير المطبّعة وغير المعيارية.

ليس أمراً غير مهمّ بالنسبة إلى اللون المتداول ، ثمّ المقنون ، ألا يتخذ مساره مكانته في إطار ميزان الهيمنة الاجتماعي ، ففي هذا الإطار ، في الواقع ، سيكون عليه ، أولاً ، أن يقوم بتصفية بعض الألوان اللسانية الأخرى (التي لا تتلاشى دائماً دون أن تترك ، إجمالاً ، بعض الآثار) ، وأن يحدو ، على هذا النحو ، اللون الأول ، وحتى الوحيد ، بالنسبة إلى عدد متزايد من المتكلمين ، ولكن ، في موازاة ذلك ، لا بد من هذا الأمر ، لأنّ اللون اللغوي يعمل في نطاق ميزان هيمنة اجتماعي ويظل هكذا تحت الرقابة الشديدة لأرباب الآداب ومحترفي اللغة التي يحدو تنبئها ، المُمدّد له سلطانياً ، نظياً للتعبير اللساني ، والتي يؤدي شكلها الأحدي الصلب إلى نفي الحاجة إلى التلون حتى في التساوق ذاته ، وانطلاقاً من اللون الذي يواصل تادية وظائفه التداولية ، يتميّز لونٌ مقعّد بصراعية ، ومُناط برؤائف مرجعية وتعليمية ، وهولون ستحاول الطبقة السائدة تطبيعها بلا كلل ، وتضميمه على صعيد المجتمع الشامل.

وإن ما يسمى عموماً لغة مشتركة قد يركز أولاً على محمل العلاقات التي يقيمها من خلال عمله ، عددٌ معين من التلونات ، وفي المقام الأول اللون التداولي واللون المطبّع : إن اللغة المشتركة هي أكثر من لون بسيط ، إنها منظومة ألوان لغوية.

III/8. اللون الشعبي

إن المسار التطبيعي يتضمن المسار التقعيدي (القانوني) ، لكن العكس غير صحيح : فهناك الكثير من التلونات المعقونة لم يجر تطبيقها . أخيراً ، هناك بعض التلونات التي لم يجر أبداً تقعيدها ولا تطبيقها ، واللون الشعبي هو من هذه الألوان . إن الجماعات الاجتماعية المهيمنة فرضت نفسها بهذه الصفة على جماعات لم تكن تشاركها ، في البدء ، اللون اللساني ذاته ، كما فرضت نفسها على جماعات تشاركها إتياء ، من بين هذه الأخيرة ، ثلاث بعض الجماعات لأمد طويل ، بعيدة عن متناول أدوات التطبيق ومؤسساتها . وبذلك القونة حرفاً ميثاً بالنسبة إليها . ففي نظرها لا تؤثر العادات اللغوية للجماعات المهيمنة ، وظائف مرجعية . ولم يكن شأظها الأكبر التصويب اللغوي ، ولم تكن تقيم ، على المحاكاة ، علاقاتها مع الطبقة المهيمنة . عندئذ ، استتب الخلاف بين اللون الذي واصلت هذه الجماعات ممارسته ، واللون الذي فقدته الجماعات المهيمنة ثم طمعت كمعيار . إذن ، من المناسب الاحتفاظ ، اليوم ، باسم اللون شعبية لتلك التي لها أصل إقليمي مشترك مع الألوان المطبقة والمتداولة ، لكنها ظلت على هامش القونة والتقييد ولم تشارك ، رغم احتفاظها بوظائفها الإلليمية ، في المسار التطبيعي المعياري . إن بيار جيرود (P. Girard) بحث الفرنسية الشعبية ، لا بوصفها اللون ، المحكي اليوم في أوساط الشعب ، بل بوصفها اللون المرتبط ، في الأصل ، بمنطقة باريس وجزيرة فرنسا (Le français populaire, p 1 à 12) . ويميز هذه الفرنسية الشعبية من العامية (Argot) ، وكذلك مما يسميه الفرنسية المألوفة ذات الاستعمال الثقافي التي قد لا تكون شيئاً لخر غير اللون المتداول من اللغة المشتركة

وإذا أخذ بهذا التصديد للون الشعبي ، فإن هذا اللون لا يمكنه ، بكل وضوح ، أن يظل وفقاً على المكانة اللسانية / الاجتماعية الفرنسية وحدها . ففي المقام اللساني / الاجتماعي الانكليزي ، مثلاً ، قد تكون لك (Cochney) معقنة جيدة جداً للوان شعبية . في حين أن من الصعب إيجاد المعادل لهذه الالوان في المكانة اللسانية / الاجتماعية الراهنة في الولايات المتحدة . بالتعارض مع الالوان المتداولة والمطبعة في اللسانية ، يمكن على الأرجح تمييز هوية لون شعبي قضائي ومما لا شك فيه ، أن اللون الثوسكاني الأكثر اتصافاً بالسمات المطبعية النوعية (Martinet, Lan- que et fonction, p. 136) هو الذي يستوجب أن تُحفظ له تسمية اللون الشعبي ، في الوضع الاجتماعي / اللساني الايطالي ، في مقابل الالوان المتداولة والمطبعة التي تؤسس الايطالية المعاصرة .

إن تحديد اللون الشعبي بوصفه اللون اللساني غير المقنون وغير المطبوع ، والذي يشترك في أصله الجغرافي مع اللون المتداول واللون المطبوع ، يعادل ، في المنطق ، ربط وجوده بتمايز اجتماعي متجذر في منطقة واحدة من المجال الذي يشغله المجتمع الشامل . إذن ، اللون الشعبي هو ، على هذا النحو ، ليس لوناً جغرافياً وحسب ، بل هو أيضاً لون اجتماعي ، إنقله في الأصل ، وفي الوضع اللساني / الاجتماعي الفرنسي ، لا يزال اللون الشعبي يعمل ، بكل وضوح ، كلون اجتماعي ، ومن النادر تقريباً أن تطبع صوائتته أو معجميته (النبرة الجهورية ، المحكي الضاحوي ، اللذان تحدث جيرو عنهما في كتابه . (Le Français populaire, p. 119 et s.) بطابعها خطاباً البرجوازية الباريسية الكبرى أو حتى الصغرى

غير أن الأمور ليست في كل مكان محسومة بكل جلاء ، وإن التعارض بين طبقة اجتماعية وأخرى لا يضمن أبداً ألا يكون خطاب

بعض المتميّزين قديماً للعزى بوحدة من سماته أو بأخرى ، إلى اللون الشعبي . ومثال ذلك في الوضع الإيطالي ، مثلاً ، حيث يمكن لنطق الحروف /p, l ɔk/ بـ [p, o ɔk] ، المميّزة للون الشعبي التوسكاني ، أن يظهر بكل وضوح في خطاب البورجوازية الفلورنسية ذاتها.

والقول إن اللون الشعبي هو جغرافي ، إنما يعني ربط وجود هذا اللون بأوضاع تفسح في المجال ، بعد ترجمتها إلى خرائط للجغرافيا اللسانية أو لعلم العاميات ، أمام ظهور بقع بيض (في فرنسا حول باريس ؛ وفي انكلترا حول لندن ؛ وفي الدانيمارك حول كوبنهاغن ، الخ) . وهذا يعني ربط اللون الشعبي بهذه التفرعات حيث لا يلتفت أي لون من هذه الألوان غير المُطبعة التي كانت تسمى تقليدياً العاميات (Patois) ، عندما كان الأمر يتعلق بالوضع الاجتماعي / اللساني الفرنسي ، أو باللهجات العامية (Dialectes) ، مثلاً في الوضع الألماني أو الإيطالي ، وهي ألوان غير مُطبعة احتفظنا لها ، هنا ، بتسمية اللهجات المحلية (Vernaculaires) . إن اللون الشعبي المحدّد على هذا النحو ، غير موجود إلا في مواقف لغوية أحيدة حقاً ، وهو يندمج في منظومة من التلونات هي اللغة المسماة مشتركة ، سواء بتاريخها لم يلعبه القواميس المتسلطة^(١).

III/٩. اللهجات الإقليمية واللهجات المحلية

كان توّسع اللون التداولي في المجال الجغرافي للمجتمع الشامل قد انتهى ، إنطلاقاً من هذا اللون وبواسطة مسارات بياني ، إلى اللهجات الإقليمية (Allotones)^(٢) . وإن معظم المنظومات اللسانية

(١) انظر لاحقاً ، III/١٦

(٢) انظر سابقاً : II/١٧

التي فرض تسميتها على مجتمعات مركبة ، تشغل مجالاً جغرافياً ذا مكانة مهمة تقريباً ، شهدت هذا النوع من الألوان التي تمثل في الواقع نزعة إلى اللاتقارب (Destandardisation) . إن الفرنسية المحكية في لييج ومنطقتها هي غير الفرنسية المحكية في الدرايل وحولها ، وكلاهما تختلفان عن الفرنسية المحكية في بزييه وحولها . لكن ما من واحدة من هذه الثلاث ، يمكنها أن تتعاضد مع اللون المطبوع من الفرنسية ، وكلها تختلف أيضاً عن الفرنسية العالية في وظائفها التداولية . وإن اللهجات الإقليمية التي يمكن سماعها في روما ، في ميلان أو في نابولي ، مطبوعة كلها بطرق لسانية لا تأخذ في الحسبان اللون التداولي ولا اللون المطبوع من الإيطالية . وسنلاحظ في إسبانية الإشبيلية علامات صوتية ، نحوية ومعجمية مميزة ، مبهولة في الإسبانية المطبوعة وكذلك في الإسبانية المتداولة . وإن الألوان الممارسة من الإنكليزية في برمنغهام وغلانكو أو دابلن ، ليست هي ما يُطلب من مذييع في الـ BBC^(٥) ، كما أنها ليست الإنكليزية التي تصطبغها القواعد والفوايس.

يمكن اعتبار اللهجات الإقليمية كأنها لغة مشتركة ثانية ، أكثر تكيفاً مع الحاجات اليومية ، لغة مشتركة ذات استعمال محدود (Marcel, Langue et Fonction, p.155) ، ويمكن للاختلاف اللساني المرتبط بتوسع اللون التداولي ، وينقص العلاقات بين الجماعات وداخلها ، أن يكفي لتطور لهجات محلية.

إلا أن هذا التمايز اللغوي غالباً ما كان مبرزاً بالعلاقات التاريخية أو الراهنة أيضاً بين اللون المتداول المنتشر واللهجات الإقليمية الموجودة قبل هذا الانتشار . لقد كانت هذه اللهجات الإقليمية لواناً إقليمية محلياً كانت اللهجات التي تتركب منها الألوان

(٥) هيئة الإذاعة البريطانية

التداولية والمطبوعة (والشعبية عندما توجد) التي تشكل اللغة المسماة مشتركة . وكلما صارت لهجة تداولية لهجة إقليمية قريبة جداً ، بسويماً ، من اللون الإقليمي الذي تفرّقت منه ، نتج بوجه عام مسار تقاطعي بين اللون التداولي واللهجة الإقليمية التي جرت تصفيتها من خلال اختلاطها المتصاعد والكامل مع اللهجة المتداولة . وإن الواقع اللساني للراهن للهجة المطبوعة لم يستطع إلا أن يطبع بتاريخه .

كذلك أمكن أن يحدث زوال اللهجات الإقليمية بسبب التخلي المحض . فلأسباب اجتماعية ، قرّر جيل من متكلميها ألا يتكلم هذه اللهجات الإقليمية مع الجيل الذي تلاه . إن اللهجة المطبوعة التي تمايزت من اللهجة المتداولة في هذه الظروف ، ظلت مع ذلك ، هي أيضاً ، مطبوعة بتاريخها . بواقع أنها جرى استعمالها لوقت ما ، من قبل مزودي اللغة ، ثم من قبل خلف هؤلاء المزودجي اللغة وفي أماكن أخرى ، صادفت اللهجة المتداولة في خلال توسعها الجغرافي ، لهجات إقليمية متباعدة بنهياً تباعداً كبيراً من اللون الإقليمي الذي كانت هي ذاتها قد صدرت عنه ، وحتى أنها صادفت أحياناً الرأى من المنظومات اللسانية لم تكن ، توالدياً ، ذات قرين معها . وعندئذ كان التلاقي أو التقاطع بين اللهجة المتداولة واللهجة الإقليمية يبدو أقل يسراً ، وحتى أنه كان يبدو مستحيلاً . وهنا أيضاً يمكن أن يحدث زوال اللهجة الإقليمية بفعل التخلي المحض . ولكن عندما كانت تصمد اللهجة الإقليمية ، كان ينشأ وضع من الانعكاسية اللغوية التي يمكنها أن تدوم أيضاً ، عندها يكون الواقع اللساني مطبوعاً ليس فقط بتاريخها ، بل أيضاً بوضعها الراهن كمستظمة متصلة (انظر لاحقاً ، ١/٧) .

حتى وإن استطاعت اللسانة الوصفية ، لوقت ما ، أن تهمل

اللهجات الإقليمية - من حيث هي ألوان متدمجة في منظومة تلوّنات هي اللغة المسمّاة مشتركة - ، فإن اللهجات الإقليمية هي ورائع بيئة ، بيد أن مجمل الفوارق التي تشكّلها كل لهجة إقليمية ، لم تتطور أبداً لدرجة أنه لا يعود في إمكان التفاهم الداخلي المتبادل أن يتوجد بواسطة لهجات إقليمية من أقصى المجال الجغرافي الذي يشغله المجتمع الشامل ، إلى اتصال ، وفي الحقيقة ، جرى كبح المسار التطويري اللساني بواسطة الحد الأدنى من التعلّون الذي يفترضه التعالّش ، والحد الأدنى من الروابط الضرورية بين الجماعات الاجتماعية والجغرافية في مستوى المجتمع الشامل . ولهذا السبب ، تظل اللهجات الإقليمية ألواناً لسانية ، بحيث أن ناطقاً بـلهجة إقليمية لا يتردّد في استعمال لونه الخاص به وهو يخاطب ناطقاً بـلهجة إقليمية أخرى (Martinet Langue et Fonction p. 135)

إن أهمية اللهجات الإقليمية واستعمالها في وضع لساني / اجتماعي معيّن ، تتوقّفان إلى حد كبير على الحراك الجغرافي الذي يتمتع به الأفراد الذين يعيشون في هذا الوضع . ويكون الحراك هذا كبيراً في بعض المجتمعات المركّبة ، لدرجة أن الكثيرين من المتكلمين لا يمارسون أيّاً من اللهجات الإقليمية المشهودة ، وحينئذ يكون اللونان الوحيدان اللذان يملكونهما في اللغة المسمّاة مشتركة اللونين المتداول والمطّبع . ولكن عندما يقيم هؤلاء المتكلمون إقامة مديدة في منطقة ، فلا شيء يمنعهم من الكسب اللاحق للّهجة هذه المنطقة . ويمكن للحراك الجغرافي أن يجعل بعض المتكلمين يتكلمون لوباً تتلاقى فيه أساليب لسانية واردة من لهجات إقليمية شتى ، وفي هذه الحالة ، وفي مستوى المتكلم بوصفه فرداً يستحسن الكلام على لغة فردية (Idiolecte) . يقصد باللغة الفردية مجمل المنطوقات التي ينتجها فرد واحد وبالأخص الثوابت اللسانية التي تكمن وراء المنطوقات

ويقصد بها مجمل الاستعمالات اللغوية الخاصة بفرد معين . في وقت محدّد (Dubois, Dictionnaire, p. 249) . وبالعكس يكونُ للعراك محدوداً بالنسبة الى بعض المتكلمين الآخرين ، لدرجة أنهم لا يكتسبون ولا يمارسون في مدى حياتهم كلّها سوى لهجة إقليمية واحدة . وسواء استعمل متكلّم ما لهجة إقليمية وحيدة ام استعمل تلقياً هجيناً ، يمكنه لو لا يمكنه أن يعطرس في وقت واحد اللّونين المتداول والمطبّع . وحتى في وضع لسانيّ أحدي ، لا يمكن إذن لتوازن قاموس شفهي أن يعتبر توازناً مستقراً ونهائياً .

III / ١٠ - التلوّنات الطفيلية : العاميّة (Argot)

فضلاً عن اللون الشعبي ، المتداول ، المطبّع واللهجات الإقليمية ، استطاع تاريخ المجتمع المركّب وتاريخ اللغة التي ترصدت فيه ، أن ينتجا اللوناً آخرى / مجاميع فوارق أخرى ، وإن يربطها بأوضاع غير لسانية معيّنة . ويمتاز بعض هذه الألوان بواقع أنها تتكوّن أولاً من مميزات معجميّة . وهي قبل كل شيء مجاميع من الفوارق والاختلافات الواقعية في المستوى المعجمي للغة ، وهي تعمل ، لهذا السبب ، متطفلة - إذا جاز القول - على الصّوّة وعظم الأصوات والنحو وأشكال اللون الشعبي ، نعني المتداولة والمطبّعة أو اللهجات الإقليمية .

إن واحداً من أفضل الأمثلة التي نختار أن نسميها هنا التلوّنات الطفيلية ، هو بلا أي شك التلوّن العامي (Argot) . وإن شروط صياغة اللون العامي محروقة . فمتذ القرن الخامس عشر ، كان يحكى في فرنسا عن اللغة الاصطلاحية (Jargon) وعن الجوبلان^(*) (Jobelin) . ظهرت مفردة (Argot) في القرن السابع

(*) عاميّة المتسولين والمتسكّنين في القرن الخامس عشر (المصوّب)

عشر ، على ما يبدو ، الدلالة على اللون الذي كانت جماعات الأشرار ، المتسولين والهامشيين من كل صنف ، تصوغه بوجه عام لغايات ترميزية أولاً ، ويهاجس التضامن الداخلي مع الجماعة ، وكذلك للدفاع عن الجماعة في مواجهة القمع الذي كانت تمارسه عليها أقلية المجتمع . وليست الفرنسية وحدها هي التي تملك لوناً عامياً ، ويجري بكل طبقة خاطر نكز أمثلة أيضاً عن عامية الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية أو الألمانية ، الخ . وبالنظر إلى الجماعات الاجتماعية التي تولد هذه العمليات وتستعملها ، يمكن الافتراض أن المعجمية العامية (التي يمكن اعتبارها كمعجمية متخصصة : هذيان ، سرقة ، إخفاء ، قبانة ، حياة جنسية ، فسق ، نهم ، إشغال شاقة وسجون الخ) لن تعمل أولاً ، مع نحو وأشكال وصواتة وعلم أصوات الألوان اللسانية غير المقولنة وغير المطبوعة ، مع الألوان الشعبية ، اللهجات الإقليمية ، وفي لوضاح الثنائية اللغوية واللهجات المطبوعة الخ . ولكن ، من الوجهة اللسانية المحض ، لا شيء يتعارض مع إمكان استعمال هذه المعجمية مع القواعد (النحر والصرف) ومع وحدات النطق الثاني لأي لون كان . بما فيه اللون المتداول أو حتى اللون المطبوع ، وهذا في الواقع ما يمكن حدوثه اليوم في نطق المعاجم اللغوية (انظر III/١٦)

إن المعجمية المكونة للون العامي تستفيد من موارد ومناهل - لها أهداف العامية الترميزية ذاتها - تستعملها الألوان اللغوية في أماكن أخرى . وعلى ضرار اللغات الخاصة ببعض المجتمعات الموسومة بالبدائية ، وه اللغات السريّة الخاصة بالمريدين ، (Phi- Epp. Guido, p. 399) يمكن للعامية استعمال التشويه المنظومي لدائر وحدات تنسب إلى الإرث الدلالي المشترك ، وذلك بتكرار الابداعات والداخلات أو اللاحقات ، وبمضاعفة ونقل أو بتر بعض المقاطع ، الخ . زد على ذلك أن العامية تمارس كل أنواع التدخل في

III/١١ - الألوان الطفيلية : المصطلحات التقنية والعلمية

غير أنَّ العامية، في المجتمعات المركبة، ليست اللون الطفيلي الوحيد الممكن ، كما أنها ليست الوحيدة التي يمكنها أن تمت بصلة القرابة (إن من حيث الموارد اللغوية التي تنهل منها ، أم من حيث الوظائف الاجتماعية المعزوة إليها) ، إلى اللغات الخاصة المشهورة في المجتمعات المسماة بسيطة . وعليه ، فإن اللغات التقنية هي حقاً ، على غرار العامية واللغات الخاصة ، ألوانٌ لغوية مطبوعة بشكل رئيسي بطابع المستوى المعجمي المتخصص ، اللازم لبعض أصناف المهن ، أو لبعض فروع التقنية والإنتاج والاقتصاد في مجتمع مركب . ويمكن لجماعة إجتماعية أن ترتبط بإنتاج/ بالقتصاد إقليمي ، عندئذ يكون من الطبيعي تماماً أن تكون للغة التقنية صوائتة وقواعد لهجات المنطقة حيث الجماعة مقبلة ، لو أن تكون لها صوائتة وقواعد اللهجة المحلية في مناطق الثنائية اللغوية . ويمكن الافتراض أن المصطلح التقني لأرباب حرفة ، مثل مصطلح البرازين ، أو المصطلح المتخصص الذي يستعمله صييدان الدكاكين ، أي العاملون في المعامل التجارية (Denise Francais, Les argots, p. 622 et 623) يمكن استعماله مع صوائتة وقواعد لهجات إقليمية أو محلية شتى ، ولكن أيضاً مع صوائتة وقواعد اللون الشعبي أو حتى اللون المتداول ، حسب الوضع الجغرافي والاجتماعي للمتكلمين الذين كلوا يستعملونه .

من المناسب التشديد على إمكان أن يكون لبعض هذه المصطلحات التقنية اشتراك مع العامية واللغات الخاصة، لجهة

استعمالها ، هي أيضاً ، لأهداف ترميزية . وبكيفية علمية ، يمكن لكل جماعة اجتماعية أن تصطنع ، بالضرورة أو باللعب ، معجمية هرمسية (باطنية) تهدف إلى استيعاد كل متكلم / مستمع لا ينتميان إلى المتحد الذي تكونه الجماعة . وغالباً ما يكون الحال هكذا بالنسبة إلى جماعات الشبان والشابات : وقد سبق أن كانت معجمية المدارس أو طلاب المدارس الكبرى ، مثلاً ، موضوع دراسات وصفية .

من ناحية ثانية ، هناك اللون لسانية محصورة ، هي أيضاً ، في مصطلحات متخصصة ، وتتشرك غالباً في صوارة وقواعد اللون المطبوع . وقد يكون كذلك حال مصطلحات شتى للعلوم . وبموجب كل احتمال ، يعود هذا الأمر أولاً ، إلى كيفية الاكتساب المدرسي أو الجامعي لهذه المصطلحات . يَبْدُو أن العلاقة القائمة بين المصطلحات العلمية وصوارة اللون المطبوع وقواعده ، ليست العلاقة الوحيدة الممكنة . فإمكان كيميائي أن يمارس مصطلح اختصاصه بإضافته إلى صوارة وقواعد اللون المتداول أو إلى ألوان اللهاجات الاقليمية التي يتكلمها . وعلى غرار العلمية والألوان التقنية أو اللغات المتخصصة ، يمكن استعمال معجمية علمية لغايات ترميزية أيضاً . فالطبيب ، مهما تكن دواله الحقيقية ، حين يتكلم على (Autolyse) مع معلونه وبمضور أسرة شخص القدم على الانتصار ، أو حين يتحدث عن (Né du Colon) لأم مريضة المصاب بسرطان معوي ، إنما يستعمل تماماً معجمية اختصاصه لأهداف ترميزية .

المعايير (الأعراف)

III/١٢ - المعيار وما فوق المعيار

إن القوتنة والتطبيع المعياري ، حين يطبقان على لون

لساني، إنما يشكّلان ما يسميه فيشمان معالجة اجتماعية نموذجية تصيف ، من خلال امتدادها ، إلى اللون المطيع نتاجاً هو أيضاً اجتماعي نموذجي ويطلق عليه تقليدياً إسم حسن الاستعمال أو أيضاً للمعيار (العُرف) ، إنه في الواقع نظام شكلي يحدّد الاستعمال الصحيح (Fishman, Sociolinguistique, P.39) - إنه الاستعمال المفروض بوصفه الاستعمال الأصوب أو الأميز ، من جانب قسم من المجتمع (Mounin, Dictionnaire, P.235) ، إنه نظام تعاليم يحدّد ما يتميّن اختياره إذا أريد التقيّد بالمثل الجماليّ لو الثقافي/ الاجتماعي لوسط ذي امتياز وسلطان . وأن وجود نظام التعاليم هذا يتضمن وجود استعمالات منظورة (Dubois, Dictionnaire, P. 342) ، وقد يكون من الأفضل تسمية نظام التعاليم هذا بوصفه ما فوق المعيار (المعيار الفوقي / الأعلى Sur-norme) . وما هو في الواقع إلاّ ثانياً ، لا يتضمّن الإكراه الفعلي الذي يكفل السير الحسن لكل منظومة لسانية بوصفها أداة إبلاغ واتصال . وأن هذا الإكراه لا يمكن تسويفه واعتباره ممثلاً للمعيار الوحيد المقبول في أن واحد بما فيه من ضرورة وكفاية . إلاّ بقدر ما يكفل هذا السير الحسن للمنظومة بوصفها أداة إبلاغية .

قد يكون أكثر يسراً على المرء أن يجد ، في الوضع اللساني/ الاجتماعي الفرنسي ، أمثلة عدّة تبرز تعارض المعيار وما فوق المعيار . فالمحظورات التي يطرحها المعيار الفوقي في مادة المعجميات ، عديدة ؛ ومن المألوف جداً أن تخالفها أكثرية المتكلمين الذين لا يستطيعون ، مثلاً ، التصميم على أن يطردوا من مصطلحهم فعلاً منزوعاً جيداً مثل (Se suicider) (المحكوم عليه في المعيار الفوقي إذ أن Se و Se suicider تشكّلان استعمالاً مزدوجاً ، ويكون من الأفضل استعمال عبارة (Se donner la mort) . وأن عبارة الحياطة (Passe-moi le ciseau) هي جملة مُدانة ، أيضاً ، بقدر ما

تحتكر التضار : Le ciseau les ciseaux ، الخ . لكن الكتاب الجيد
يحتقرون أحياناً الأولم المعجمية للمعيار الفولي . ومثال ذلك ما
كتبه ميشليه (Micheli) ذات يوم :

L'événement l'a placé entre deux alternatives... (Histoire de
France, XII, II, cité par le dictionnaire Robert, P.381, L6)

على الرغم من المعيار الفولي للتعبدي الذي يحاول دائماً

فرض :

Bien qu'il n'en ait pas envie

ou: Je m'en suis allé

فإن أي متكلم فرنسي (ومن ضمنه المعيار ، المفاجأ)
قادر في كل حين على القول :

- Il viendra malgré qu'il n'en a/ait pas envie.

ou: Je me suis en allé, etc.

غير أن المنظومة اللسانية ومعيارها هما كأداة إبلاغ موجودة
في كل متحدث بشري ، مستقلان إلى أبعد حد عن الأفراد ، كل
بمفرده ، فالعادات اللغوية تُفرض على الفرد كمجموع داخل في
مجل العادات الواجب اكتسابها في خلال التنشئة الاجتماعية ، تلك
العادات التي يتعين على الطفل الأخذ بها لكي ينتقل من البيولوجي
إلى الاجتماعي ، ويغدو عضواً كاملاً للمجموعة في الجماعة . إذن
ليس المعيار والمعيار الفولي من طبيعة متباينة : فكلاهما مؤسسة
اجتماعية ، وبالتالي إكراه اجتماعي . غير أن المعيار يُحفظ
بالضرورة في كل متحدث ، بينما المعيار القوي لا يتعلّق من ناحيته إلا
ببعض المجتمعات ، وليس فيه شيء محتوم.

(٢) بالمسبة إلى الامثلة على تعارض المعيار/ المعيار الفولي ، في مادة الصوت ،
انظر لاحقاً 25/III

إن منظومة لسانية كمنظومة جيواندجا^(٤) التي يتكلمها ما مجموعه ٥٥ صيغاً بدوياً في منطقة صحراوية نائية ، إنما تمثل معياراً بالضرورة . إنها مجموعة من البنى الصوتية والنحوية والمعجمية ، يستحيل الإخلال بقواعدها الأساسية دون إلحاق الأذى بعملها كأداة اتصال وإبلاغ . ولكن ، بالنظر إلى البنية الاجتماعية التي يعمل فيها هذا النظام ، لا يمكن لبدأ المصداقية على وجود معيار فوقي لهذا النظام ، مؤسس على لون مُطَبَّع ، ولا على وجود معيار فوقي لالوان جغرافية أو اجتماعية متميزة جداً . مع ذلك ، فإن كل انحراف في الجيواندجا كما في سواها ، لا يدخل في العدد الصغير من الفوارق المعروفة من الجميع والمقبولة منهم (ما من منظومة مثالفة بشكل مطلق) . إن كل انحراف غير مُرتكَب ، قد ينتج عنه حتماً خلق الالتباس أو عدم الفهم ، ولو كان ذلك لأمٍ قصير جداً . وقد يجد المسؤول عن إخلال كهذا بالمعيار ، في حال الجيواندجا ، ٥٤ شخصاً على الأقل ، مستعدين للرد بطريقة أو بأخرى على الالتباس أو عدم الفهم الذي يفرضه عليهم الإخلال بالأعراف : ٥٤ شخصاً مستعدون كلهم لالاندماش ، للهزم ، للاستياء : وهم مستعدون ، إذا كان المذنب وداً ، لقمع نفس نسبياً .

III/١٣ - المعيار الفاعل والمعيار المنفعل :

إن إكراه المعيار الفوقي ، المتولد من قوْنَة يعتبرها المسؤولون عنها كأنها نهائية ، يبدو ذا صلاية كبيرة ، خاصة عندما يُقارن بمرونة المعيار وحده . وتعود هذه المرونة الحقيقية للمعيار ،

(٤) (٤) إ. إ. (Iwadj) محكية ، لو كانت محكية في شمال أستراليا ، ذكرها جوزيف فرجان (J. Verguin: La situation dans le monde, p. 1129) .

الى شروط اكتسابها الى حد كبير.

وبالتالي ، فإن المعيار يفرضه الإكراه الاجتماعي ، غير أن
اكتسابه لا يتم أبداً في محيط لغوي ذي تألف مطلق ، ويكون حصوله
في المجتمعات المركبة أقل بكثير من حصوله في مجتمعات أخرى ،
لذا ، فإن العضو المقبل في المجتمع المركب سيكون عليه ، حتى
يقيم معياره الفاعل ، ذلك الذي سينظم زجرياً استعماله الشخصي
للغة (Martinet, *Éléments*, P. 149 et 150) ، لن يأخذ أولاً بالطرق
اللغوية المعمول بها في محيطه بشكل شامل ، الطرق التي لا يمكنه
التأقلم منها دون أن يصطدم بعدم الفهم وأن يتعرض لقمع الجماعة.
ولكن ، ما من طريقة من الطرق اللغوية التي سيتعرض لها
العضو المقبل في المجتمع المركب ، طيلة فترة اكتسابه اللغة ،
ستبدو له ، لاحقاً ، غير سوية ، وإن يدركها كأنها مختلفة لا يمكن
قبولها إطلاقاً . إن هذا التسامح غير الطوعي ، المكتسب جدياً إلى
جنب مع العادات اللغوية ، هو القاعدة لمعيار المنفصل (Martinet, *Élé-
ment* 5.6).

إن وجود المعيار المنفصل ، بما يمثل من لغة غير واحدة في
الغالب ، مع عدد معين من الطرق اللغوية ، سيكون حسب كل
احتمال ، ذا أهمية أولى بالنسبة الى المستقبل اللغوي للمنكلم
الفتي وحده ، هناك في عداد الطرق اللغوية غير الشمولية في
الجماعة ، المتوافرة أو شبه المتوافرة بالنسبة إلى المنظومة ،
والداخلة في نطاق المعيار المنفصل ، بعض الطرق التي ستبقى دائماً
بالنسبة إلى المنكلم مرتبطة بسياقات غير لغوية علمته جماعته
الاجتماعية أن يرفضها ، ومما لا شك فيه أن هذا يجبر الطرق اللغوية
بشكل نهائي ، على أن لا تستعمل أبداً من جانب المنكلم الا
استعمالاً سلبياً ، متفعلاً ، وفي المقابل ، فإن بعضاً آخر من الطرق
اللغوية الداخلة في المعيار المنفصل ، المطبوعة من الناحية

الاجتماعية بشكل متدنٍ لو لا مجال ، سيُمكن استخدامه قاعدةً للاكتساب ، ثم للاستعمال السلبي ، وحتى للاستعمال الإيجابي للألوان جغرافية أو اجتماعية من اللغة المسماة مشتركة ، غير اللون المكتسب الأول ، بما في ذلك اللون المطبوع معيارياً . وسواء أكان الاكتساب - إذا تم - والممارسة اللاحقة لهذه الألوان المكتسبة في الدرجة الثانية ، كاملين أم ظلاً جزئيين فقط ، فإن عليهما متوقف جوهرياً بسهولة التي سيتمكن المتكلم بواسطتها من الاستعمال التالي للعبة معاجم لغته أو سجلاتها ، (انظر لاحقاً ، III/١٦) .

III/١٤ - اكتساب المعيار الفوقي

يمكن لاكتساب المعيار أن يحدث في محيط لسانى تسوده ممارسة اللون المتداول ، أو بالحري ممارسة لهجة إقليمية ، أو أيضاً ممارسة اللون الشعبي . ولكن ليس من المستحيل تماماً أن يتمكن العضو المقبل في مجتمع مركّب أن يتعرض في وقت مبكر للفناء مع اللون المطبوع من اللغة المشتركة ، وهو اللون الذي يستطيع أن يكون مستعملاً - ولو بكيفية فردية جداً - في الوسط العائلي لو في محيط مباشر أوسع بالليل .

غير أن اكتساب اللون المطبوع يجري ، عموماً ، في وسط مدرسي ، ويبدأ فرضه منهجياً على الولد منذ سنة دراسته الأولى أن جوهر الجهود التي يبذلها مُطَبِّعو اللغة ، وبالتالي مدرّسوها ، صيرمي في الحقيقة إلى تمرير المعيار الفوقي واللون المطبوع الذي يسندها ويؤسّسها على الأقل في المعجم الشفهي المنقلد ، وإذا أمكن في المعجم الشفهي الفاعل . ومن الواضح تماماً أن نجاح هذه الجهود سيتوقف على نوعية المعيار الفوقي وعلى العلاقات التي يمكن وجودها بينها وبين المعيار .

سيكون اكتساب اللون المطبوع واحتمال دخوله في المعجم

الشطحي الفاعل لقرء ما . من مجال الممكن ، وسيظهر المعيار الفوقي وسيكون أكثر تفاناً من الناحية الموضوعية إذا كان نظام تعاليم هذا المعيار الفوقي لا يصف سوى قليل من الطرق اللغوية المتأصلة تماماً في المعيار.

في المقابل ، سيكون بإمكان اللون المطبوع أن يظل وفقاً على مجال المعجم السليبي ، وسيبدو المعيار الفوقي المرتبط بهذا اللون كأنه قليل التناول في بعض الظروف . وسيكون الحال هكذا عندما سيحاول نظام تعاليم المعيار الفوقي أن يستبعد حداً أقصى من طرق لغوية متأصلة بقوة في المعيار ذاته . وإذا كان المعيار الفوقي يرمي ، علاوة على ذلك ، إلى فرض طرق لم تعد مطبوعة إلا في أقلية محصورة جداً ، أو لم تعد ملحوظة إلا في مدونة أدوات التطبيق والتعهد (كتب قواعد ، قواميس ، إلخ) ، فإن هذا المعيار الفوقي ستتاح له كل الفرص لكي يُعتبر إكراهاً ضافطاً ، واستطراداً ، إكراهاً لا جدوى منه تماماً .

III/١٥ - المعيار ، المعيار الفوقي

والنقون اللغوي

بما أن مستعلمي منظومة لسانية سيحاولون دائماً تكريف هذه المنظومة مع تنوع حاجاتهم الإبلاغية ، وبما أنهم سيتوصلون إلى ذلك بوصفهم جماعات (المحاولة الفردية في هذا المجال تكون بشكل عام معرضة للفشل ، اللهم إلا إذا استأنفتها الجماعة وكفلتها) ، فإن المعيار (للمقعد : Norme) لا يمكنه أن يتضمن التآلف المطلق للمنظومة اللسانية . بل يتضمن ، بخلاف ذلك ، أن تحتك المنظومة موارء سيفيد منها النقون اللغوي المتساوق والتبدل اللغوي أيضاً ، وفي المقابل ، ينزع المعيار الفوقي (لا القعد Sur-norme) إلى أن يجعل من اللون المطبوع لوناً مقالفاً ومستقراً ،

منزجاً بوظائف مرجعية وتعليمية ، وفي هذه الشروط ، لا يستطيع مجموع الفوارق إلا النزوح إلى التزايد بين اللون المطبوع المتعلق بالمعيار الفوقي والألوان التي تواصل العمل بشكل لاسلسي وفقاً لمستلزمات المعيار. لذا فإن عمل مقونتي اللغة ومطبعيها ، عمل حافظي المعيار الفوقي ، يبدو وكأنه مهمة بلا انتهاء . إنه مشروع لا يستطيع إلا أن يسجل ، إلى جانب نجاحاته ، عدداً معيناً من الانتكاسات التي لا يكون بعضها صغيراً.

ومنذئذٍ يشكل لحظ الانتكاسات المقونتين والمطبعين أو المقعدين بالذات جزءاً من عملهم . وفائدة هي الأكاديميات أو المعاهد ، مهما بلغت سلفيتها ، التي لا يتعين عليها أن تتراجع ذات يوم ، وعندها سيفسحون المجال - ضيقاً قدر الإمكان ، في الحقيقة - في فصول كتب قواعدهم أو في أعمدة قواميسهم ، لما يسمونه السمات المألوفة أو المحليات المستعملة استعمالاً مألوفاً جداً. وفي الواقع تصدر هذه الطرق اللغوية عن اللون المتداول، اللون الشعبي أو اللهجات الإقليمية ، وبهذا الشأن يتحقق توحيد المطبوع (المقعد) ثم الحفاظ على وحدته واستقراره.

على أن القول إن الألوان اللغوية غير المقونة أو غير المطبوعة في لغة ما تظل تعمل بشكل رئيسي وفقاً لمستلزمات المعيار ، لا يعني أن استعمال هذه الألوان لا يعود يتحمل أبداً ، إكراهاً اجتماعياً لا مناص من لضمان حسن سير المنظومة بوصفها أداة إبلاغية ، وهذا لا يعني أن لهجة إقليمية أو لوناً شعبياً ، أو أيضاً لوناً محلياً ، لا تؤسس كلها في أوضاع ثنائية اللغة ، منظومة تعاليم تحدد ما يتعين اختياره إذا شئنا الامتنال للمثال والعادات الاجتماعية / الثقافية لدى الجماعات التي تمارس هذه الألوان ، وإذا شئنا أن نكون عضواً كامل العضوية في هذه الجماعات . عندها ، لا شيء يسمح

بالافتراض أن هذه المنظومة من التعاليم لا تتضمن ، هي أيضاً ، وجود استعمالات مستوردة ، ستقوم الجماعة بقمعها كاستعمالات ممنوعة

لقد لاحظ ويليام لايف (Labov) أن عمال نيويورك يعطون لولونهم اللغوي ويكل طيبة خاطر متضمنات تحسينية ، رجولية ، (Marcellesi et Gardin, Linguistique sociale, p. 139) . وإذا كان الحال كذلك حقاً ، فلا بد من ارتقاب إمكانية نزوح الجماعة الفرعية الاجتماعية التي يكوّنها رجال الطبقة العاملة النيويوركية ، إلى قمع استعمال المعالج والسجلات (انظر III/١٦) التابعة للون المطبّع ، وكذلك قمع اللون الاجتماعية لو إقليمية أخرى من الانكليزية الأميركية ، وفي هذه الحالة ، يتحدّث عارسيلفي وثمانان عن وجود معيار معاكس (Contra - norme) في الطبقة العاملة النيويوركية ، وليس من المؤكّد إطلاقاً أن المعيار المعاكس الذي وضعت هذه الطبقة الاجتماعية كان متعارضاً فحسب مع المعيار اللغوي المرتبط باللون المطبّع.

إن الحالة التي يذكرها جورج مونان (Mounin, Répression, p. 65-70) تبدو ذات دلالة في هذا الموضوع . فالمتحد الصناعي في روان القديمة ، المتاصل في منطقة ريفية ، على حدود البيكاردي والنورماندي ، كان يمارس ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٨ لوناً لغوياً يدعو المؤلف نوعاً من الفرنسية المؤقلمة (Un Français patoisé) . وكان يتعيّن على هذا اللون أن يمثل بشكل حسن حالة لغوية مرتبطة بمسار من التقاطع الجاري بين اللون المحلي من المنظومة الفرنسية ولهجة محلية قريبة منه بنسبياً . ونحن نقصص الوضع عن كتب أكثر ، نكتشف أنه في الواقع أعقد بكثير . فاللهجة المحلية المحكية في روان القديمة كانت هي ذاتها لوناً نورماندياً ملوناً بالبيكارديّة إلى حدٍ

بعيد . إنها إذن حالة لغوية تُعلن هي أيضاً مساراً تقاطعياً بين لهجة محلية نورماندية ولهجة محلية بيكارديّة.

على الرغم من طابع هذه الفرنسية المؤقتة (الذي قد يقول عنه البعض إنه طابع خلاصي) ، فإن الجماعة التي كانت تمارسه ، إنما كانت تكافح في كل لحظة ، كما يقول مونان ، كل ما كان يتهدّد التفاهم الداخلي أو بعبقته ، كانت تكافح كل ما كان يتعارض مع تماسكها اللغوي ، وهو عنصر أساسي في تماسكها كجماعة اجتماعية . وكانت هذه الجماعة تمارس في مادة اللغة نشاطاً تطبيعياً وقمعياً عنوياً في مواجهة كل ما كان يمكنه خفض المسافة اللغوية الفاصلة بينها عن الألوان المجاورة.

إذن تستطيع كل جماعة أو كل جماعة فرعية اجتماعية أن تربط بلونها اللغوي ثقلاً إضافياً من الإكراه الاجتماعي الذي يقترب ، مع أخذ كل شيء في الحسبان ، من المعيار الفوقي المرتبط باللون المطبّع أكثر مما يقترب من المعيار الكلي لحسن سير المنظومة بوصفها أداة إبلاغية.

إن الاعتراض ، المُعلن أو المُضمّر ، الذي تظهره بعض الجماعات الاجتماعية في وجه المعيار الفوقي ، وكذلك الاعتراضات القائمة بين الشبكات الإضافية من الإكراه الاجتماعي التي تربطها كل جماعة بلونها اللغوي الخاص ، إن كل هذه الاعتراضات يمكنها تسويق التصريف الذي يعطيه مارسيلشي وغاردان (Linguistique sociale, p 146) للمتحدث اللساني تسويقاً كالياً: إنه مجموعة جماعات اجتماعية تدخل في علاقات جدلية في سياق إبداعي واحد لجملة معايير يسودها معيار الطبقة المهيمنة ، لكنّها مجموعة موضوعة على المشرحة بلا انقطاع.

المواقف والتكولات اللسانية

III/١٦- المواقف (المواضع) والسجلات

عندما يبنى متكلم قولاً ، يمكن أن يكون اختيار السمات اللفوية ، وشكلها ووظيفتها ، مشروطاً بجملة المعطيات غير اللسانية ، تلك الماثلة في الواقع الخارجي ، والماثلة أيضاً في فكرة المتكلم أو في مشاعره ذاتها . وتشكل جملة المعطيات غير اللسانية هذه ما سنطلق عليه تسمية الوضع الفوري لفعل الكلام . وبالعكس ، عندما لا يمكن عزو أي دور واضح للوضع الفوري في اشتراط قول ما ، يُقال عادةً إن هذا القول خُرج الوضع (الموقف) في الواقع ، وحتى عندما لا يستطيع الوضع الفوري أن يربى نفسه منوطاً بدور في اشتراط قول ما (ملفوظ منطوق = Enonoe) ، ليس من الصحيح تماماً القول (إن هذا الملفوظ هو خارج الوضع ، فكل ملفوظ موجود أيضاً في وضع علم هو خلاصة التاريخ المشترك بين لغة ومجتمع ، وخلاصة التاريخ الشخصي للفرد المتكلم . إذن ، في هذا المقياس ، يكون قول ما دائماً في وضع ما ، وفي حال الأقوال المكتوبة ، مثلاً ، التي تعتبر بوجه عام جداً ، كأنها أقوال خارج الوضع ، فإن استعمال الراموز (Code) المكتوب يحيط وحده ، وإلى حد بعيد ، بشروطية الوقائع اللفوية المستعملة واختيارها وشكلها ووظيفتها ، إن هذا الاستعمال للراموز المكتوب هو في الواقع الوضع الفوري الوحيد ، في هذه الحالة . وعليه ، فإن هذا الاستعمال غير ممكن إلا بقدر ما يكون الوضع العام وتاريخه جامعين اللغة والكتابة .

إن المتكلمين الحائزين على عدة ألوان في معجمهم الشفهي

يستطيعون الانتقال من اللغة إلى الكتابة . فهم يقترضون معيّزات من شتى الألوان لصياغة المنشط اللغوي الجاري وإن متكلماً لا يملك سوى لون لغوي واحد، يجري مع ذلك اختيارات للطرق التي في متناوله . كل ذلك يتم وفقاً للوضع الفوري لفعل الكلام . وهذا يحدث بكل وضوح لكي يكون الخطاب متكيفاً اجتماعياً مع واقع هذا الوضع الفوري أو مع الوعي الذي يكوّنه المتكلمون عن هذا الوضع ، ومع التقدير الذي يضعونه لهذا الوضع ، ومع التحويل الذي يتخذونه لأنفسهم و/ لو يريدون إعطائه للمستمع الفردي أو الجماعي ، الخ . إن تكيفات الخطاب هذه مع معطيات الوضع المباشر ، جرى التنبيل عليها كأنها أساليب الخطاب ، أساليب الكلام ، ولكننا نستطيع تفضيل مفردة سجلات / معالج ، بقدر ما تجنبنا هذه المفردة التضمينات والأحكام القيمة المنطوقة بكلمة أسلوب ، وتجنبنا أيضاً التضمينات والأحكام المنطوقة بتسمية مستويات الاستعمال . الملحوظة هي أيضاً ، وفي هذا المعنى ذاته ، في الأساليب المختصة لهذا الموضوع .

III/١٧- التفعيل والسياق اللساني

كلما حمل الوضع المباشر مزيداً من المعلومات ، قلّت ضرورة استعمال الطرق اللسانية (Frédéric François, *Connaiss*, p. 69) . هذا هو الأمر الذي يصنع الفرق بين الأقوال التي من خلالها يستطيع المتخاطبون الاستفادة من هذه المعلومات التي يمدّهم بها الوضع المباشر ، وبين المتخاطبين بالقوال سيكون هذا الأمر معتقاً بالنسبة إليها . وعلى الرغم من عدم وجود القوال خارج وضع بالمعنى الدقيق للكلمة ، فإن هذه التسمية تخصص عموماً للمناشط اللسانية التي لا يكون من المستع عليها الاستفادة من المعلومات التي يقدّمها الوضع الفوري / المباشر لأجل تفعيل الوحدات الواردة في

الرسالة . وإن تفعيلها معناه نقل هذه الوحدات من المعنى اللامحدود الذي يكون لها عندما تكون معزولة إلى المعنى الدقيق الذي يتعين عليها اكتسابه في السياق اللساني . إلا وهو كل رسالة خاصة (Fran- çois, Conteste, p. 70) . وكتب هيمز من ناحيته : إن استعمال شكل لغوي يحدّد ماهية سلسلة من المعاني ، فيمكن لوضع (لغوي) قبول سلسلة معانٍ : وعندما يظهر شكل في وضع ، فإن الشكل يصنّف المعاني الممكنة في هذا الوضع ، غير تلك المعاني التي يمكن للشكل ذاته أن يشخص هويتها ؛ وعندئذٍ يصنّف الوضع المعاني المحتملة بالنسبة إلى الشكل اللغوي ، غير تلك التي يمكن لهذا الوضع ذاته قبولها . يتوقف المعنى الحقيقي على تفاعل الشكل اللغوي والوضع (Hymes, Speaking, p. 105) ، والحال ، فإن الوضع اللغوي إذا كان لا يقوم بالدور المناط به ، فإن هذا الدور في تفعيل الوحدات اللغوية لن يمكن توليفه إلا بالسياق اللغوي ذاته ، وهو السياق الذي يتعين عليه ، وانتدٍ ، أن يكتسب اتساعاً ووضوحاً خاصين .

III/١٨- الإبلاغ ضمن المواقف

في المواجهة بين المتكلم والمستمع ، إذا كان المنشط اللساني بكل معنى الكلمة يستطيع الإفادة مما يشكل المصك غير الشفهي للمتخاطبين (مواقف ، حركات ، إيماءات ، لوغيابها ...) وأيضاً مما يشكل العناصر ما فوق الجزئية أو الفردية المرافقة للسرّد الكلامي ، ولحق ذلك كله الإفادة من كل معلومة تقدمها بقية الوضع المباشر . سيجري الكلام في هذه الحالة على إبلاغ لغوي ضمن مرقف . وعندئذٍ سيحدث أقصى اقتصاد في الطرق اللغوية ، وسيتمكن أن يخسر وضع السياق اللغوي من أهميته ، وستكتسب الرسالة من ذلك سمات ومزايا خاصة .

إن التواتر المظفر بشكل عام تعبيراً ناقصاً ، للأقوال غير المكتملة ، يبرهن كفاية كيف أن القول الذي يفيد إفادة قصوى من المعطيات التي يلتزمها وضعه المباشر ، يقتصد اقتصاداً جذرياً بوسائله المعجمية والقواعدية والصوتية ، وفي هذه الحالة ، يبرهن تواتر هذه الأقوال غير المكتملة ، على أن المتكلمين هم قليلو الانشغال وقليلو الاحتياج إلى سبل لغوي واسع ودقيق.

إن الأقوال غير النصوية التي تظهر في الإبلاغ الشفهي ، الموقف ، تمثل هي أيضاً تخفيضاً كبيراً لاستعمال الطرق اللغوية ، وهو التخفيض الذي لا يعوض سوى اللجوء إلى معطيات الوضع المباشر ففي الفرنسية ، لا يمكن ملفوظ مثل *Il* حتى وإن كان مصحوباً بـ *moi* للصان غير مكثف ، أن يبلغ هدفه إلا إذا كان ، مثلاً ملفوظاً إسمياً صادراً عن شخص في عمله (خياطة ، معماري ، جراح ...) أو أيضاً إذا كان مصحوباً بحركة من المتكلم نحو المستمع (*File-moi ça, j'en ai besoin*) أو نحو الباب (*Ille, je l'ai assez* . vu..)

III/١٩- قواعد الإبلاغ الشفهي

في أغلب الأحيان ، تدبّر قواعد الإبلاغ الشفهي بجوهر مزاياها وسماتها في الواقع . إلى كون الأقوال المستندة إلى الوضع المباشر ، لا تستعمل سوى جزء من الإمكانيات التي تملكها المنظومة اللغوية . ومن بين طرق توسيع المنطوق الفرنسي ، غالباً ما تبرز قواعد الإبلاغ الشفهي الموقف ، التراكيب المحض أو الترابط ، ونقل من استعمال طريقة التوسيع بالإلحاق . ومثال ذلك أن المتكلم يستطيع ، في : *Il vient, il m'a raconté, des vrais caucasiens* . *Il vient, il m'a raconté, des vrais caucasiens* .

استعمال الملفوظ الأوفر ، وذلك بتحقيقه من خلال لجوء

محلوره ومسلكه ، انّ الملفوظ (المنطوق / القول) قد بلغ هدفه حقاً وأنه قد فهم - إن الشخص الثالث المعني بهذه المسألة - لم يكن قد جاء إلا بهدف نقل وقلع تشكّل في نظره إتهاماً للمستمع والمتكلم يجعله يعلم ، سواء باختياراته اللغوية أم بسلوكه غير الشفهي ، أنّه لم يعط ما كان يقصده سوى رصيد محدود - ففي قول كهذا ، يعتمد المتكلم بكل وضوح ، على الوضع المباشر بقدر ما يعتمد ، على الأقل ، على السياق اللغوي ليندّل على العلاقات القائمة بين الإجراء المحدودة فقط بالوفقات في القول ذاته .

يمكن للطرق اللغوية المستعملة استعمالاً ناقصاً في قواعد الإبلاغ الشفهي الموقلي ، أن تكون في عداد تلك الطرق التي تدخل في تعارضات المنظومة الأكثر ثباتاً واستقراراً ، ومثله يمكن في الفرنسية أن تُستعمل استعمالاً ناقصاً صيغ زمنية مندمجة إندماجاً قوياً في المنظومة كصيغة الماضي وصيغة المستقبل . عندئذ يكون الحاضر هو المميّز ، أو بكلام أدق يكون واحداً من مدلولات الحاضر الممكنة ، مدلول « غياب الزمن » - إن ملفوظات ، مثل -

[Il vient, i-m'raconte, j'en ai besoin, tu me le rapportes quand tu viens]

في التوالّ تبلغ هدفها تماماً ، على الأقل باستنادها إلى الوضع المباشر والسيّاق اللغوي على حدٍ سواء . وإنها لتبلغ أهدافها حتى في غياب كُليمات / مثل Hier أو Aujourd'hui / قد يمكنها على الدوام الاندماج في السياق اللغوي لكي تصاحب أو تحل محل صيغ لفظية جرى إقصاؤها في مستوى التركيب التعبيري الشفهي ذاته

[Hier il vient / il est venu, i-m raconte / i-m'a raconté, j'en ai / j'en aurai besoin demain, tu me le rapportes / tu me le rapportera quand tu viens / viendras...]

إنّ تستطيع ملفوظات الإبلاغ الشفهي التي تفيد إعادة

لصوى من وضعها الفوري ، أن تكون ناقصة ، لا نهائية ، لو أنها لا تستعمل الاحتياطي من الطرق اللغوية التي تمنحها المنظومة . وهي لا تستطيع فحص ، بل يتعين عليها أحياناً أن تكون غير قواعدية . لكي تتكيف على نحو أفضل مع الوضع المباشر الذي هو وضعها ، وكان هيمز قد شدد بقوله :

[A person who chooses occasion and sentences suitably, but is master only of fully grammatical sentences is at best a bit odd some occasions call for being appropriately ungrammatical (Communicative competence, p.227⁽⁵⁾).

VI/٢٠- الإبلاغ خارج الموقف والتلون المطبوع

عندما لا تكون المعلومات التي يقدمها الوضع المباشر ، قابلة للاستعمال لأجل تفعيل الوحدات اللغوية ، يتعين حينئذٍ الالتجاء إلى إرضان أكبر للسياق اللغوي ، فهذا الأخير يتعين عليه أن يكتسب مدى كافياً للتعويض عن عدم فعالية الوضع المباشر ، ولإرضان هذا السياق التعويضي ، سيكون على المتكلم أن يستعين بعدد أكبر من الطرق التي يمكن أن يوفرها له اللون الذي يتكلمه عموماً ، لكنه يستطيع أيضاً الاستعانة بالاحتياطي الذي يمنحه اللون المطبوع . وبالطبع هذا الأمر غير ممكن إلا للمتكلمين الممتدئين على هذا اللون ، وعندما يكون الحال هكذا ، يمكن لهذا الأمر أن يتضمن أيضاً

(٥) يبدو أن الإبلاغ الشفهي الموقفى وفراعه يتجهان نحو التعارض مع الإبلاغ المصنوع خارج الوضع ، خصوصاً في حالاته التي يقيمها مع اللون المطبوع (انظر 20/III إلى 25/III) . غير أنه قد يكون من غير المسوّج جعل هذا التعارض مطابقاً للعلاقات القائمة بين الرموز المصنوع والرموز المصنوع كما حدثها بارييل برهنتاين (Langage et classes sociales, p. 70-77, et P 91-118) على الواقع يدخل في تعريف هذه الرموز معطيات اجتماعية ، نفسية ولغوية أيضاً ، لم نأخذ هنا ، كلها في الاعتبار

لستعمال طرق لغوية يفسح تواترها الاستعمالي المنخفض جداً .
المجال للافتراض بانها في الواقع طرق خارجة من المنظومة الحالية
بالمعنى الدقيق . وفي هذا الحال ، يجري للكلام على معجم مدهوم ،
وحتى ماثور (كلاسيكي) لو حتى قديم .

إن الوظيفة الاحتياطية للطرق اللغوية التي يحتفظ بها اللون
المطبع في اللغة المسمّلة مشتركة ، هي من البيّنات في مستوى
المعجمية ، وإن لمظها واستنتاجها من الأمور العادية المتلفة ، لكنها
من البيّنات أيضاً في مستوى النحو والبني ، ولا يخلو من العائدة
للنظر اليها في لغة كالفرنسية جرت قوتنتها مطوّلاً وبدقة متناهية ،
ويحتل تطبيعها المعياري (تقعيدها) منذ أمد بعيد بوسائل قوية
وفاعلة . إن اللون المطبع من الفرنسية يؤدي ، اليوم ، وظائفه
المرجعية والتطعيمية إن لم نقل على مستوى الإرضاء العام . فعلى
الأقل على صعيد إرضاء المطبعين أنفسهم وما يتفرّل منهم من
طبقات وجماعات اجتماعية .

وخلافاً لما يجري في الموقف ، من الصعب خلال الإبلاغ
خارج الموقف ، إنكار بعض طرق المنظومة ، كذلك في الفرنسية ،
ودون إنكار التوسع بالتراكب أو بالترابط ، سيفيد نحو الإبلاغ خارج
الموقف ، إعادة كبيرة من التوسع بالإلحاق والاستتباع . ويرتبط
الاستعمال الأقصى والدقيق للتوسع بالإلحاق ، في اللون المطبع من
الفرنسية ، يرتبط بعيد معين من الاستعدادات القواعدية التي بدأ
الإبلاغ الشفهي للموقف والألوان غير المطبوعة ، يتحرّر منها ، منذ
أمد بعيد . يمكن لهذه الاستعدادات أن تفرّض اشكالاً ، لا يتوصل
إلى الحفاظ على استعمالها استعمالاً فردياً سوى قوتنة دائية وتطبيع
متأخر ومكابر . وإن ظهور بعض صيغ نصب الفعل (Subjunctifs)
يشير لدى المستمع ردود فعل تبدأ من الاحترام أو القواطع نحو
مستعملها ، وصولاً إلى الانزعاج منه ، مروراً بالاندهاش والهزل أو

التضليق ، وهذا ما يطلق عليه مارتان جوز (Martin Joos) أحياناً باسم
شكلانية مزعجة وإعرجاج معاكس للمجتمع تماماً.
(Joos, Isolation of styles, p 189- 190).

III/ ٢١- المنظومة الشفوية للفرنسية المتداولة

إن الألوان غير المطبعة في الفرنسية تستبعد ، من جانبها ،
هذه الأشكال وتمتلك منظومة شفوية تختلف اختلافاً كبيراً عن
منظومة اللون المطبوع . وإنا لندينُّ لاندريه مارتينه (De l'économie
des formes verbales en français parlé, le français sans fard, p.91-
121) .

بالرصف الأكثر واقعية لهذه المنظومة . إن المنظومة
الشفوية للفرنسية المحكية ، الفرنسية المألوفة ، الفرنسية ، في
بوابيها ، ، الفرنسية التي يجيد جميع المتكلمين الراضدين
استعمالها والتي يستعملونها دون خوف من الانخداع (Martinet, lan-
que et fonction, p.161) هي منظومة - بخلاف منظومة اللون المطبوع -
قد يكون من غير المجدي بالنسبة إليها طرح وجود تصريفات شتى .
فيمكن الكلام على منظومة شفوية بلا تصريف ، بمقدار ما تكون
جميع الأفعال فيها متراخية بالكيفية نفسها ، بإضافة المركبات
الإعرابية (أواخر الكلمات . Désinences) ذاتها لموضوعة ما ،
عندها يكون التباين الأساسي للذات هو تباين الموضوع ، ولكن
بالنسبة إلى قلة من المعجمات الشفوية (Lexèmes) فقط ، في حين
أن أغلبيتها تحقق المثال ألا وهو وحدة الجذر (Radical) . في هذه
الشروط ، قد يكون من غير الحكمة التقليل من قيمة الفوارق القائمة
في مستوى المنظومة الشفهية . بين ألوان الفرنسية المطبوعة
والوانها غير المطبوعة ، خصوصاً إذا تناولنا أعمالاً تستعمل ما يسميه
لابوف (Labov) (Sociolinguistique, p. 200) مُشير للخطر اللغوي ،

ذلك الذي يسمح بقياس التعارض الذي يحطه متكلم بين استعماله الشخصي والاستعمال الذي يعتبره صحيحاً .

III/٢٢ - العُرف الكتابي والتكولات اللسانية

إن استعمال الراموز الكتابي أو المكتوب يحرم الوضع المباشر من مساهمة فعالة في تفعيل الوحدات اللغوية . وبالتالي يجبر السياق على تقديم مساهمة قصوى . لهذا يجري عموماً اعتبار المنشط اللغوي المكتوب كواحد من الإيلاغات خارج الموقف ، سيستمر إلى أبعد حد ممكن ، مساهمة احتياطي الطرق الذي يحمله اللون المطبع .

غير أن عدداً معيناً من الحالات يفصل المنشط اللغوي المكتوب واللون المطبع ، أقله لدى المتكلمين الذين لم يكتسبوا أبداً استعمالاً فعالاً للون المطبع . كما يحصل أن يكون مقبولاً من الوجهة الاجتماعية ضم المنشط المكتوب إلى الوان غير مطبعة . واليوم يمكن بشكل مألوف جداً طبع اللون الدارج من الفرنسية ، وإن بعض المنشورات تجلب إليها ، على هذا النحو ، قسماً من قرائنها . وفي ناحية أخرى ، لا يكون هذا الضم مقبولاً ، ومثال العربية ذو دلالة في هذا المجال ، فكتابة أو طبع الوان غير مطبعة من هذه اللغة لا يزال يطرح عندها من المشاكل ، ويواجه كثيراً من المضاعفات الاجتماعية . وإن واحدة من الصعوبات الأولى التي يلاقيها ضم الراموز المكتوب إلى الوان غير مطبعة ، ناشئة عن عدم مناسبة التقاليد الإملائية المرتبطة منذ زمن بعيد باللون المطبع (المقعد) . ويكفي أن نلاحظ تقريب النتائج التي يؤول إليها مجهود كتاب يحاولون كتابة حوار يمكن عزوه إلى اللون الشعبي أو إلى اللون العامي من الفرنسية . وإن المحاولات الجارية لكتابة العاميات العربية ستقود

اولئك الذين يتصلون مسؤوليتها إلى ابتكارات إعلانية في معظم الأحيان .

حتى في المجتمعات التي يبدو فيها مقبولا ضم الرموز المكتوب إلى الألوان غير المطبوعة ، لا يكون هذا الاختيار سهلاً ، بالضرورة ، ويريئاً اجتماعياً . إن ضم الرموز المكتوب إلى لون غير مطبوع ، يمكنه ان يكون واحدة من الكيفيات للإعلان عن تضامن معين مع الجماعات الاجتماعية الناطقة بهذا اللون ، وبالتالي عدم التضامن مع المتمسكين باللون المطبوع .

III/ ٢٣ - الإبلاغ الشفهي خارج الموضوع

عندما لا يستطيع المنشط الشفهي الإفادة من المعلومات التي يقدمها الوضع المباشر ، فهو هو أيضاً إبلاغاً خارج الوضع (الموقف) وحسب كل احتمال سينتج عنه الالتجاء إلى اللون المطبوع ومميزاته . ويلاحظ فيشمان (Sociolinguistique, p. 46) إلى أن الشكل الصحيح للغة ما ، اللغة العامة الصحيحة ، هو الوسيلة الإبلانية الأضمن للتواصل مع المستمعين الذين لا يعرف المتكلم عددهم ولا تتوقعهم . إنها الوسيلة الأضمن المتداولة بين جماعات ليس بينها علاقات أخرى . الجماعات التي تُطال بواسطة الإعلام الجماهيري ... إنها اللون الإبلاني المستقل عن المتكلم والمستمع والذي يمكن التوقع بأنه سيكون فهمه ممكناً إلى حد كبير . وهكذا يقترح فيشمان تعريفه الخاص بالإبلاغ الشفهي خارج الوضع ، ويشند في وقت واحد على العلاقات التي يقيمها هذا الإبلاغ واللون المطبوع . فلا شيء يسمح بالافتراض أن هذا اللون المطبوع لا يؤمن عدداً الوظيفية الاحتياطية للطرق المعجمية والقواعدية التي يؤمنها في خلال استعمال الرموز المكتوب .

ولكن بلوغ الطرق القواعدية والمعجمية للون المطبوع ، في إنشاء الإبلاغ الشفهي ، غالباً ما يظل أقل يسراً مما هو عليه الحال في الإبلاغ المكتوب ، حتى بالنسبة إلى طرق المتكلمين المعتادين منذ لمد طويل على هذا اللون . وفي الوضع الاجتماعي / اللغوي الفرنسي الراهن ، يستطيع المتكلمون المنتسبون حتى إلى البورجوازية العليا أو الوسطى ، الإعلان عن خطر لغوي كبير ، يُترجم بـ « معايير شديدة التقارب في السياقات الشكلية ، وبمجهود تصويري واضح » .

(Labov, Sociolinguistique, p. 183- 184 et 203)

وفي أثناء ندوة صحافية متلفزة ، أمكننا أن نسمع من فم واحد من كبار المسؤولين في الدولة الفرنسية :

«Cela ne signifie pas que nous entrons dans... que nous entrons...

qu'en entrant dans ce processus, nous avons...»

لا بد هنا من أن نلاحظ جيداً ، ظناً لغوياً بيناً ، بشكل خاص في مواجهة الاستعمارات النحوية التي تفرضها طريقة التوسع بالانحاق ، في اللون المطبوع من المنظومة الفرنسية . ونظراً لعدم تمكن المتكلم من التوصل ، في شروط الإبلاغ الشفهي وخارج الوضع ، إلى الطرق القواعدية التي كان ينوي أولاً الإفادة منها ، يبدو أنه اضطر إلى إجراء تعديل جزئي في المعنى الذي كان يتوقفه لقوله ، مما جعله يتوصل عندئذٍ إلى سلسلة أقوال ناقصة ، وحتى لا قواعدية .

III/ ٢٤ - صواتة الإبلاغ الشفهي خارج الموضع

عندما يكون شفهاً الإبلاغ خارج الموضع ، يمكن أن نتصايل أخيراً ما هي صواتة ؟ واية طرق استطاع المتكلمون أن يأخذوا بها

في هذا المستوى لأجل اللون المطبوع ، وما هي الوسائل التي يملكون
لفرضها ، وما للنتائج التي توصلوا اليها ؟

يشدد فيشمان (Sociolinguistique, p. 44) على أن بعض اللون
المعجم اللغوي يجري اكتسابها ، في المجتمعات المركبة ، أولاً
وإن استعمالها يجري من ثم في الاتصالات اللغوية الفعلية
والمتواصلة داخل الجماعة الاجتماعية . وبالعكس لا يجري اكتساب
اللون الأخرى إلا لاحقاً في حياة المتكلمين ، ويكون استعمالها
مدفوعاً ، أساساً ، بدافع إرادة الاندماج في جماعة مرجعية لا توجد
إلا نادراً ، وقد لا توجد أبداً ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، وربما تمثل
الامة متحداً لغوياً من هذا الطراز الأخير ، وعندئذ تمثل اللغة
المطبوعة اللون المقابل لهذا المتحد .

في هذه الشروط ، لن نحظى أبداً بالميزات الصوتية للون
المطبوع إلا باكتساب قبلي متاخر . ومن بين الوسائل التي يملكها
المقصدون لفرض هذا الكسب المتأخر لمميزات اللون المطبوع
الصوتية ، لا يمكن تناسي التقاليد الإملائية وتأويلها ، التي تفضي
إلى ما سمي أحياناً صواتة قرائية . ومن المعترف به عموماً أن
الفرنسية هي لغة لعب فيها الإملاء (ضبط الكتابة) دوراً كبيراً ،
ولا يزال يؤثر في النطق بلا ريب . ومثال ذلك أن التقليد المكتوب
يعطي لبعض الصوامت ترسيماً مزدوجاً ، في حين أن تعارض
الحروف البسيطة أو القصيرة مع المزدوجات أو الحروف الطويلة
ليس له ، حتى الساعة ، وجود صوتي حقيقي في منظومة الصوامت
الفرنسية . وعندها ، يكثر بعض المتكلمين من أشكال التردد
والتأخر . نادرون هم حفيو التلفزيون الوطني الذين لا يذهبون في
لحظة أو في أخرى ، إلى مد حرف الـ / m أو الـ / L في Collusion /
Commenter / أو Pollution / ويشكل أقل وريداً وانتظاماً بالنسبة
إلى كلمات / College / Commission / أو Collimateur / .

ومهما تكن لو مهما كانت الوسائل التي اختارها التقعيد لكي يفرض على الاستعمال الشفهي للون للفرنسي المُنطبع ، صواتة خاصة ، موحدة ومستقرة ، يمكن التنازل عما إذا كانت الأهداف المنشودة قد تحققت . هناك ٦٦ ضابطاً من الجيش الفرنسي ، ولدوا جميعهم وترعرعوا في باريس ، يشكلون جماعة فرعية يمكن اعتبارها ممثلة للمتكلمين تعوَّبوا باكراً على اللون المُنطبع من الفرنسية ، سواء في استعمالها الشفهي أم في استعمالها المكتوب . ويبيّن استطلاع ميداني أجري على هؤلاء المتكلمين (Martinet, phonology as func-tional phonetics, London, 1949) أن من أصل هؤلاء المتكلمين الستة والستين لا يوجد إثنان يملكان منظومة صوتية متماثلة في كل نقطة . في هذه الشروط ، يبدو المعيار الفوقي أقل فعالية واستقراراً وتوحيداً في مستوى الصواتة عما هو عليه في مستويات القواعد أو المصنعة . وقد يكون مفيداً ، في المسبل الذي فتحه مارتييه (Pronon-ciations, p. 223-235) ، التعرف الأفضل على السلوك الصوتي للجماعة المهنية / الاجتماعية التي يشكلها المدرسون ، وذلك باعتبارهم جماعة من أهم الجماعات الاجتماعية التي تحاول الطبقة السائدة استعمالها لاجل التنطبع أو التقعيد اللغوي . لكن لا شيء يسمع ، من وجهة قَبَلِيَّة ، بأن نعود إلى المدرسين صواتة أكثر وحدة من صواتات الجماعة الاجتماعية التي وصفها مارتييه

III/٢٥ - التنافر المعياري والتصويب اللغوي الفوقي

جري التشديد غالباً على أن اللغة كانت مجموعة عادات ، كان سيرها يُعتبر مُرضياً بقدر ما كان يتأى عن رقابة المتكلم وصبطه الواعي . وبشكل خاص تُبرز الملاحظة في مستوى العادات النطقية التي يتضمنها النظام الصوتي . وإذا تمكنت العادات النطقية الأولى

المكتسبة من الماني عن رقابة المتكلم وضبطه الواعي ، فإن هذا يفسر إلى حد بعيد جداً طابعها المستقر والمضمون ، وبالتالي يفسر الصعوبة القائمة وراء الرغبة في معارضتها . وهذا يفسر عنادها الذي يسير غالباً في اتجاه معاكس حتى لإرادة المتكلمين . إن مهمة القيمين على معيار فوق في ملدة للصوت ، ستكون صعبة بقدر ما تصادف أولاً لا وعي المتكلمين ، وبقدر ما تصادف أيضاً لا وعي المقعدين أنفسهم . وللاقتناع بذلك ، قد يكفي النظر ، على سبيل المثال ، في موقف مقعدي الفرنسية ومطبعيها من الفعالية الجارية في راتوب (Ordre) الصوامت الحنكية لهذا اللسان .

نادرة كانت الانتقادات المعيارية للالتباس المكتسب منذ أمده بعيد بين الصامت الحنكي للجاني / ʌ / والزمرة / ʌ / وبين الصامت الحنكي الآخر في التوضع بين / ʌ / و / ʌ / . وحتى يرد القيمون على المعيار ، تمهّن أن تنزع الزمرة / ʌ / ذاتها إلى الاندماج مع / i / . اندماجاً ظاهراً مثلاً عندما تلفظ / Suje /soutier/ و / escalier / /eskaʃe/ . إن قوة الزد المعيارية أسهمت في جعل الالتباس يتراجع اليوم ، ذلك الالتباس الذي لم يطل ، ربما ، إلا بعض أجزاء الأراضي الفرنسية . (Martine, Feerschnit Onishi, P 341-348).

يعتبر لا يوف أن التدخل التقعدي يمكنه أن يناقض المنظومة اللغوية وفعاليتها لدرجة التوصل إلى شكل لغوي مصوب يحدو لا منظومياً ، بعد استعماله في الأوضاع القاهرة (System in creole, P 452) . هذه الحالة الواقعية لا تنعكس في الخطر اللغوي الصريح لدى الكثيرين من المتكلمين فحسب ، بل تنعكس أيضاً في التصويب اللساني الفوقي الذي لا يمكن فصله عن هذا الخطر ، والذي يميز خطاب الجماعات الممارسة ، في البدء ، لونها غير مطبوع ، والمعتادة ، بالتالي ، قليلاً على اللون المطبوع .

(Labov, Sociolinguistique, P. 193 et S.)

III/٢٦ - الميادين :

يقدر فيشمان أن ثمة فائدة كبرى من فحص الانتظامات المشتركة القائمة على صعيد كبير بين الألوان والوظائف المعترف بها اجتماعياً لهذه الألوان إطلافاً من مفهوم الميادين (domaines) إن الميادين (المجالات / الحقول) هي بنات اجتماعية مستفادة من تحليل ومن تخصيص دقيق لمواقف مناسبة بكل وضوح^(٦) إن الميادين متعددة وكثيرة ... المدرسة . المكتبة . الأسرة . جماعة الحي . مجموعة التسلية . البعض لا يقبل إلا الاستعمال المكتوب للمنظومة اللغوية ، والبعض الآخر يقبل استعمالها الشفهي لا أكثر . بعض الميادين تتحدد بوصفها تفالسية ، لأن عدة منظومات أو عدة ألوان تظل ماثلة فيها ، وبعضها الآخر يُعتبر حصرياً وذلك بقدر ما تتقبل فقط منظومة واحدة أو لوناً واحداً ، ومهما يكن الأمر ، يمكن للميدان أن يظهر كمفهوم مناسب ، بمقدار ما يرسم ، بين وضع عام ووضع مباشر ، وحدة قياسية ومسطى وبالتالي أيسر على الاستعمال في بعض مستويات البحث أو الوصف . وهناك تيارات أخرى من البحث الاجتماعي/ اللغوي تفضل على مفهوم الميدان ، فحص المنطق اللغوي للجماعات أو لفروعها الاجتماعية وذلك من خلال

(٦) بالنسبة إلى السمات الاجتماعية التفاضلية ، وفي المستوى الجزئي لتحليلها ، الموقف الاجتماعي المناسب بكل وضوح هو ذلك الذي تندمج فيه ، بالطريقة المأمولة حسب النمط الشفهي ، المسطيات الثلاثة التالية : إنطرا علاقة التوزيع ، اللحظة ، ومكان

العلاقة .

(Fishman, Sociolinguistique, P.81) بمقاربة أخرى ، يكون الموقف المباشر مناسباً بكل وضوح عندما يتطابق تطبيقاً كلياً مع مسطيات الوضع العام . حتى لا يكون ثمة مفاجأة من اكتشافنا فيها من يتكلم أية لغة أولون . مع من يتكلم . أين ، ومتى

العلاقات التي يجمعها هذا المنشط مع النشاط الانتاجية .
النشطة الرامية إلى صون العلاقات أو إلى تغييرها . أو أيضاً تلك
الرامية إلى معاودة انتاج قوة العمل أو إلى ترميمها .

III/ ٢٧ - الميادين والسجلات :

يمكن أن نتوقع من العلاقة القائمة تاريخياً بين ميدان ولون أو
عدة ألوان من اللغة المشتركة ، أن تشترط السجلات داخل هذا
الميدان . وعندما شدّد فيشمان (Sociolinguistique, P.58) على أن
بعض التطابق يجب أن يوجد بين لون ما وخصائص المحيط
الاجتماعي قبل أن يكون ممكناً استعمال لون آخر لأغراض الكناية ،
قبل أن يكون ممكناً انتقال الكناية وظاهياً (معبراً عن تعارض بارز
بين الهزلي والجدّي ، بين الموافق وغير الموافق ، بين المهمل
والمهم ، في تبادل لغوي جار) . لم يقدّر فيشمان بغير التشديد على
ضرورة هذا الانسداد للسجلات بواسطة العلاقة بين :
الميدان/ اللون (الألوان) . وهكذا ، سيتمّين على المنشط اللغوي
الممارس في ميدان التعليم أن يأخذ في الاعتبار العلاقة القائمة من قبل ،
بين التعليم/ اللون المطبوع . لكنّ المتكلم سيمكّنه أيضاً أن يختار في هذا
الميدان استعمال لهجة إقليمية ، اللون العالمي ، اللون الشعبي من اللغة
المستعمدة مشتركة ، أو أيضاً ، لهجة محلية ، في مواضع الثنائية اللغوية .
وبذلك سيقرّف فقط بأنّ الوضع المباشر (فرصة ، تبادل لغوي مع
مستمع معروف كمتكلم بهذه اللهجة الإقليمية أو المحلية .) كان
موضوعياً لا يحتمل سوى الاستعانة بلون غير مطبوع . يسمح وحده
بتكييف السجل (المعجم) والوضع المباشر .

ولكنّ عندما يختار متكلم ما سجلاً ، وبما أنّ الارضاع

المباشرة والسجلات تدخل في علاقات توابلية ناشطة^(٧) (Joos, Isolation, P.189) ، يمكنه باختياريه هذا ، أن يحدّد ، سواء بالنسبة إليه أم بالنسبة إلى المستمع ، الوضع المباشر كما يناسبه أن يكون ، أكثر مما هو معطى له موضوعياً ، وبالتعارض مع العلاقة تعليم / لون مقعد ، يختار متعلّم ناطق بالعربية استعمال لهجة محلية في ميدان التعليم ، وسيحوّل الوضع المباشر الأشدّ إكراهاً (برهان علمي ، نقاش فلسفي ...) إلى وضع يُراد منه أن يكون غير إكراهي (راحة ، تسلية ، فرصة ...) أو بالعكس ، يُراد منه أن يكون وضع يؤثر ، تعارض نظري أو شخصي مع التعليم أو مع المعلم إن استعمال لهجة محلية عربية في ميدان التعليم يمكنه أن يظهر ، بين أمور أخرى ، إرادة خلق ما يستهّج جوّز وضعاً مباشراً معارضاً للمجتمع ، ومنفذ ، يكون واضحاً أن السهلات لا تتكيف مع المعطيات الموضوعية للوضع المباشر وحسب ، بل تتكيف أيضاً ، وعلى الأقل ، مع المعطيات النفسية لهذا الوضع : ما يعلمه المتكلم أو يظنّ أنّه يعلمه من معطيات الوضع ، والتفسير الذي يعطيه لنفسه أو يريد أن يعطيه لنفسه منه ، والتفسير الذي يعطيه له لو يريد أن يعطيه للمستمع الفردي أو الجماعي ...

III/ ٢٨ - الكفاية الإبلاغية :

إن حسن اختيار اللون اللغوي الذي سيتمثّل وفقاً للمستمع ، للمكان، للزمان أو بمقتضى المنشط اللساني ، هو ما أطلق عليه هيمز ، في منظار قريب من القواعد التحويلية والتوليدية ، الكفاية أو الكفاءة الإبلاغية (Hymes, on Communicative compe-

(٧) يستعمل جوّز (الفرصة الاجتماعية والاصطوب) ، بينما تقترح ممن (الوضع المباشر والسجل)

(tenor, P 277 278) . بالمعاقلة مع الكفاية النحوية . وهي هذه المعرفة الضمنية التي يملكها المتكلم عن بُنى اللغة والتي تسمح له بأن يفهم ويفتح عدداً لا يتناهي من الجمل . فإن الكفاية الإبلاغية هي تلك التي تسمح بإدراك الجمل . لا يوصفها وقائع لغوية وحسب . بل أيضاً يوصفها وقائع مناسبة اجتماعياً . ويفضل اكتساب هذه الكفاية . يصبح الطفل قادراً على تمييز اللحظات التي يتعين فيها الكلام أو عدمه . ويتعلم ما يلزم للكلام فيه وما لا يلزم . وأين يتكلم وكيف يتكلم . وهكذا . يغدو قادراً على المشاركة بنفسه في مناشط الجماعة اللغوية . وتقويم قيام الآخرين بهذه المناشط . ويوضح هيمز أنه لا يجوز اعتبار كسب الكفاية الإبلاغية بوصفها تلقياً متأخراً أو زرعاً في معارف الولد . فعلى العكس . أظهرت معطيات متعلقة بالسنوات الأولى لكسب القواعد الانكليزية أن الأولاد يطوِّرون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع . وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكاني (Araucan) من تشيلي . قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها . اكتشف واقعة أن تكرار ملفوظ استفهامي هو . من جانب المستمع . إهانة للمتكلم . إذن . يصبح التشديد على وجود قواعد استعمال قد تكون قواعد النحر والصرف . من دونها . غير قابلة للاستعمال تماماً .

III/ ٢٩ - تصنيف السجلات :

« ليس للكلام على مستويات بدلاً من سجلات .
طريقة دفاعية في الكلام »

[جورج مونان]

على غرار مفردة لون/تكون . يفترض بمفردة سجل أن تكون مصطلحاً فنياً . منزهاً عن كل عاطفة . لا يتضمن أي حكم قيمي . ولا

ينطوي على أي تراتب . وإنما إذ نصف مستوى واستعمالاً أو أسلوباً بأنه مبتذل ، علمي ، شعبي ، عادي ، شائع ، مسنود أو فبيل . . إنما تقترح مرة أخرى سلم قيم وتصنيفاً هو في الواقع النقي عينه للسجل المعتبر كأنه تكييف للمنشط اللغوي مع وضعه المباشر . هناك بعض المستويات والاستعمالات أو الأساليب تعتبر كأنها ممكن أن يوصى بها اجتماعياً ، وأخرى تعتبر محايدة ، وأخرى أيضاً تعتبر قابلة للإدانة تماماً . إن الاستناد إلى المعيار اللغوي ، وإن كان ضمنيّاً ، ليس هو مع ذلك أقلّ ثباتاً ، ولا يمكنه إلا أن يضفي السواد على كل محاولة وصف .

يقترح جوز في مقال الصادر عام ١٩٥٩ ، تصنيفاً في خمس وحدات : السجل الحميم (Intimate Style) ، السجل الدارج (Causal Style) ، السجل غير المميز (Consultative Style) ، السجل الشكلي (Formal Style) والسجل المجمّد (Frozen Style)^(٨) ويتصوّر جوز نفسه هذا التصنيف كأنه سلم ، لكنّه سلم قائم أولاً على المعطيات النفسية للموقف المباشر ، وبالأخص تلك المعطيات التي تصنع العلاقات بين المتكلمين ، فتجعلها علاقات حرّة كثيراً بالنسبة إلى العلاقات الأكثر قسراً وإكراهاً :

«We Can say that «styles» belong with is called «set» in psychology, not descriptive linguistics, Joos, Isolation, p. 187-191).

وبكل تحفظ ، يضيف جوز أن بعض السجلات تبدو له محبوبكة الصياغة لدرجة أنه يعتبرها ، في الوقت الحاضر ، كأنها غير قابلة للتحليل ، ويعطي البعد الاجتماعي للمسائل حين يوضح أن

(٨) أي بالفرنسية Le Registre intime, le registre courant, non-marqué, formel et gelé.

ومن الواضح لنا أننا في تمريننا هذا المقلد الفرنسي ، لا الإنكليزي .

فرضيته المتعلقة بوجود خمسة أصاليب (سجلات) ربما لا تصلح
إلا بالنسبة إلى اللغات القومية ، وبعبارة أخرى بالنسبة إلى اللغات
المشتركة التي تكون ، في المجتمعات المركبة ، مفردات تلوّنات
حقيقية .

III / ٣٠ - التسجيلات والتلوّنات

يبقى من غير الميسور إيجاد معيار تصنيفية للمواقف
المباشرة التي تتكيف السجلات معها . فالمواقف التي تتقبل أو
تفرض المنشط اللغوي لا تنتمي عدداً ، ومكوناتها لا تكون قابلة
دائماً للواقع ، كما أنها لا تكون قابلة للتحليل بكل وضوح . وعليه ،
فإن وضع تصنيف للسجلات على أساس تصنيف مواقفها
المباشرة ، قد لا يمثل سوى فوائد قليلة . دون إبتسار لوجود سمات
تحديدية غير لسانية ، بالنسبة إلى سجلات الخطاب ، يبقى من
الممكن أن نتصورها من زاوية علاقات تبعيتها مع لون أو عدة ألوان
تؤلف اللغة المسماة مشتركة . ويمكن لسجل أن يكون تابعاً للون
العامي ، بقدر ما يمكنه أن يضع في لعبة المشاركة عدداً من
المميزات المنتمية إلى هذا اللون ، أكبر من عدد المميزات المنتمية
إلى أي لون آخر من اللغة المشتركة . ويمكن للسجلات التابعة للهجة
إقليمية أن تدخل في لعبة المشاركة عدداً من مميزات هذا اللون أكبر
من عدد المميزات المنتمية إلى اللون المطبوع ، المتداول ، الخ ، وقد
تتبع للون المتداول السجلات التي يمكن للمتكلم بها أن يتجنب
استعمال المميزات الأكثر وضوحاً في لهجته الإقليمية في اللون
الشعبي في اللون المطبوع والمقعد ، ولكن يمكنه أيضاً أن يتجنب
استعمال مميزات اللون التقني أو الطمي الذي يمكنه أن يمارسه في
مجال آخر ، الخ ، يستطيع المتكلمون أن يختاروا سجلاً تابعاً للون

المتداول ، عندما لا يعرفون كل مصطلحات الوضع المباشر لو عندما يريدون اجتباب تعريفه كما هو لو كما يناسبهم أن يكون . وإن المتكلم إذ يختار سجلاً تابعاً للون المتداول ، يترك للمستمع ، بكيفية ما ، مبادرة تقديم الوضع المباشر ومبادرة تحديده كما سيناسبه عندما سيفهم متكلماً بدوره . كما يمكن للمتكلم أن يكون مهتماً بعدم لفت انتباه المستمع إلى أصل الشخصى ، الاجتماعى أو الجغرافى . إن قولاً مثل (Mon père i fait ilic) قد يذكر المستمع ، حكماً وضرورة ، بأصل المتكلم الاجتماعى ، سواء من حيث معنى القول أم من حيث شكله . إن قولاً مثل (Qu'est - ce que je mets pour dîner - ce que je prépare pour déjeuner?) مع قيمة (المقتطف من مدونة جرى جمعها في المنطقة البيتروازية) قد يحمل مخاطر عدم الإشارة إلى أصل المتكلم الجغرافى ، عندئذ يمكن للمتكلم أن يختار سجلاً تابعاً للون المتداول ، وأنه يفعل ذلك حتى لا يستوقف انتباه المستمع ، وذلك ببساطة عما قيل ، لصالح الطريقة التي قيل فيها ، ويكون الهدف الأول لهذا الاختيار هو أن يوفر بشكل أبصر الإبلاغ على مستوى التداخل الجماعى . هذه بلا شك هي الوظيفة الاجتماعية التي تمحّد على الفضل نحولوناً تداولياً وما ينتج من سجلات ، وقد يكون اللون المتداول وسجلات ، قبل كل شيء ، هذا الواقع اللغوى الذي تؤول إليه المجهودات التي يبذلها المتكلمون ، بلا كلل ، لكي يربّوا الفضل ربّ على مستلزمات الإبلاغ بين الجماعات ، فيصنّفوا بقدر الإمكان وفي مجرى المنشط اللغوى ذاته ، للمميزات التي تصنع من جهة ثانية للون الممارس أو الألوان الممارسة.

III/٣١ - السجلات المركبة

إلى جانب السجلات التي يمكن تسميتها بصيغة بقدر ما تتبع

بشكل خاص جداً للون لغوي ، لابد من تصور وجود سجلات مركبة حيث يظهر ، على الرغم من الهيمنة المسيطرة لسمات تنتمي إلى لون A ، عدد لا يمكن إنكاره من سمات صادرة عن لون B أو عن لون C. أو عن اللونين معاً . كذلك ، لابد من التصور ، في سجل واحد ، إمكان توازن مجمل سمات A ومجمل سمات B أو C للنخ، دون أن يكون هناك، حقاً ، هيمنة مسيطرة ، لهذا السجل لو اذاك ، كما يلزم من السمات من لون B لكي يغزو السجل البسيط أولاً ، والتابع للون A ، سجلاً مركباً ؟ عندما يمتلك اللون B سمات صوتية قواعدية ومعجمية في وقت واحد، ما هي السمات التي ستكون الأفضل لتمرير سجل تابع لـ A ، إلى سجل مركب A-B ؟ على هذا النحو جرى التساؤل ، ما هي سمات اللون BEV^(٩) التي ينبغي لمتكلم اميركي أسود ، إقتراضها من هذا اللون لكي يستطيع خطاباً ، الدائر في لون آخر من اللون الانكليزية الاميركية ، ان يجد سجله (معجمه) المتكيف مع الأوضاع المباشرة التي يخلقها دخوله مجتداً في الجماعة العائلية / جماعة العمى ، او جماعة التسليات ، عندما تكون هذه الجماعات قد جرى هجرها منذ زمن بعيد .

وكما يوجد في اللغات القومية المعاصرة تشكيلة كاملة من الأشكال (الألوان) المتباينة ، القائمة تدريجياً والمنصهرة في بعضها البعض (Marinet, langue et fonction, p. 139 - 140) ، يوجد في خطاب معين ، تشكيلة كاملة من السجلات المختلفة ويمكن للسجلات التي لا تشكل وحدات متألقة ولا متفصلة ، ان تنتقل

(٩) Black English Vernacular (اللهجة المحلية الانكليزية السوداء) لتسويح هذه التسمية ، ولأجل من أجل وجيز إلى القوائم القومية التي تشمل عليها ، يمكن مراجعة Peter TRUDGILL, Sociolinguistics, Penguin Books, 1974, P.65
et c.

تدرجياً من السجل البسيط إلى السجل المركب ، وبالعكس - إن وجود تواصل خطابي (Continuum de discours - مصطلح وضعه دافيد دكمب لوضع جمليك ، انظر لاحقاً IV / ٢٩) يقوم إنطلاقاً من شتى ألوان لغة واحدة ، لا يعود بعنقذ فرضية ينبغي استبعادها بلا فحص وتمحيص .

III / ٣٢ - الوظائف اللغوية للغة

في نظر رومان جاكوبسون (Essais, p. 207- 241) ، العوامل التي لا يمكن التفاتل عنها في كل إبلاغ شفهي هي : المرسل إليه ، المرتبط بالوظيفة الصوتية التبادلية (Fonction constative) : السيلقي ، المرتبط بالوظيفة المرجعية : الرسالة ، المرتبطة بالوظيفة الشعرية : الاتصال المرتبط بالوظيفة (Phatique) . وعامل الراسوز (Code) المرتبط بوظيفة اللغة التقعيدية (ما فوق اللسانية) . ويكون المتكلم أو المرسل مرتبطاً ، من جهة ، بالوظيفة التعبيرية . وعندما يكون الخطاب مُركّزاً على المرسل ويهمل إلى التعبير المباشر عن موقف الفاعل تجاه ما يتكلم عنه ، عندئذ تعمل الوظيفة الثانوية للغة . إلا وهي الوظيفة التعبيرية . كذلك ، فإن هدف الرسالة كرسالة أي التشديد على الرسالة لحسابها الخاص بها ، إنما يُظهر الوظيفة الشعرية للغة ، الخ .

غالباً ما جرى التطبيق على فرضية جاكوبسون ، ويبقى تعليق هيمز (Speaking, p. 99- 138) واحداً من أهم التعليقات ، لأنه يندرج بكيفية انتقادية منظورات جاكوبسون ذاته . هذا التعليق يناقش أولاً عدد وتوعية العوامل والوظائف المميزة في فرضيات جاكوبسون إن وظيفة قابلة للتحدد في متحد ما ، يمكن غيابها في متحد آخر ، وحتى وإن ظهرت بعض الوظائف كأنها ملحوظة عالمياً ، فمن الأفضل أيضاً

البحث عن تحديد ما هي الوظائف الخاصة بكل حالة معينة لقد سبق لجاكوبسون أن كان متحفظاً في التشديد على أن تتنوع الرسائل لا يمكن في احتكار هذه الوظيفة أو تلك ، بل يمكن في الفوارق التراتبية بين هذه الوظائف في كل رسالة ، عندها ، تكون بنية الرسالة تابعة قبل كل شيء للوظيفة السائدة من ذي قبل . اما هيمز فيعتبر من جانب ان الميزة المعقدة لبعض الرسائل قد لا تكون الهيمزة المسبقة لواحدة من الوظائف الثانوية للغة ، بل تكون بالأولى التوازن التناغمي أو التغلبي بين عدد من هذه الوظائف . احيراً يؤكد هيمز على أن الوضع المباشر ، المُهمل في فرضية جاكوبسون ، هو عامل من المراتبة الأولى ، وأنه كامل وراء معظم العوامل الأخرى . يقول : من الأرجال إبراز وتمييز عدد صغير من العوامل لإقامة الوظائف الثانوية للغة وتأسيسها ، دون اعطاء مكانة لمعطيات الوضع المباشر الأخرى ، أو للوضع المباشر ذاته بوصفه معطى كلياً .

في الحقيقة ، من حفظنا التساؤل عما إذا كان من الضروري ، لتبرير تنوع الرسائل ، إصدار فرضية وجود ستة عوامل لا يمكن التنازل عنها في الإبلاغ الشفهي ، وست وظائف ثانوية للغة . اليس تنوع الرسائل هذا يمكن تفسيره وبشكل كافٍ ، بضرورة تكيف الخطاب مع كل أو بعض وضعه المباشر ؟ وإذا أخذنا بثانية هذه الفرضيات ، فإننا سنأخذ أيضاً بملاحظتين لهيمز (Speaking, p. 120) . الأولى هي ان وجود عدد صغير جداً من السمات اللغوية يكفي لكي يُعزى خطابٌ إلى سجلٍ ما بدلاً من عزوه إلى آخر ، لو إلى لونٍ ما بدلاً من لون آخر .

وملاحظة هيمز المهمة الثانية (ibid., p. 112) هي أن عامل اللغة هو أيضاً عامل متغاير في بعض المتحدات . وهذا معطى لا تتناوله فرضيات جاكوبسون .

III/٣٣- السجلات والتباين بين اللغات

وهكذا يمكن أن يتم تكيف الخطاب مع معطيات الوضع المباشر ، باستعمال مميّزات تنتمي إلى ألوان مختلفة هي منظومة واحدة ، وكذلك بالانتقال من منظومة لغوية إلى منظومة أخرى بالنسبة إلى بعض الناطقين بالعربية ، معيّدي الانتقال من التعلق على حدث عائلي إلى التطبيق على حدث من الحياة المهنية أو السياسية مثلاً ، إلى إبدال لهجة عربية اقليمية من الإنكليزية أو الفرنسية ، وإن إبدال الاسمانية من الإنكليزية ، لدى المتكلمين المفتحين إلى المتحد البورتوريكي النيويوركي يمكنه أن يكون مرتبطاً بتغير في معطيات المتكلمين النفسية ، ومثاله أن الانتقال من التوافق إلى التنازع بين المتكلمين قد يكون كافياً لذلك (Fishman, Sociolinguistique, p.55) ، وعندها ، سينعّي على تعريف صحيح للخطاب أن يأخذ في الاعتبار ليس التباين ضمن اللغة وحسب ، بل أيضاً الإفادة الممكنة من التباين بين اللغات في المتحدات المتعددة اللغات.

III/٣٤- إعداد الرسالة والمقومات الموقفية

عندما يوضع الخطاب بكيفية يكون التشديد فيها على الرسالة لصالح الخطاب بالذات وعندما يكون الخطاب مستهدفاً من حيث هو خطاب وتتطلب الوظيفة الشعرية للغة ، حسب جاكوبسون ، على كل ما عداها ، لا يكون من المستحيل اعتبار ذلك بمثابة تكييف للمنشط اللغوي مع وضعه المباشر ، وإذا كان الحال كذلك ، فعندما ستكون مقومات هذا الموقف التي سيكتف المتكلم خطابه معها بشكل خاص ؟ إن الباحثين الذين اتكروا مسألة وضع الرسالة كرسالة إما يعطون الأولوية ، عموماً ، للمكونات النفسية الممكنة عزوها إلى المرسل ذاته . تأتي في المقام الأول مفاهيم الاختيار ، الإرادة ،

النّية لدى المرسل ، وهكذا . يعتبر كونراد بيرو (Conrad Bureau, Stylistique, p 109) أنّ وضع الرسالة كرسالة هو عمل طوعي على اللغة وباللغة . ويقدر ما يكون المتكلم هو مُفعّل المنظومة ، سيكون الشاعر أو الكاتب ، كلاهما ، اللّذين يبحثان عن تفعيل اللغة في أقصى حدودها ؛ وينظرهما يكون هذا التفعيل الأقصى هو المبرّر الأول لطريقة استعمالهما للغة (Ibid., p.20).

لقد أمكن في بعض الأحيان الرّغم بخفض مفهوم الأسلوب إلى مفهوم الاختيار ، واعتبارهما متماثلين . غير أنّ بعض الباحثين يرون أنّ من الأصوب عدم إدخال مفهوم الاختيار إلّا بوصفه شرطاً للأسلوب . عليه ، فإن لويس بريميتو يعتبر أنّ الأسلوب هو الكيفية التي تتمّ بها عملية ما بالفعل ، وذلك على قدر ما تكون هذه الكيفية ليست هي الوحيدة الممكنة ، وإنها كانت بالتالي موضوع اختيار الفاعل (Prieto, Langue et Style, p 5) . وفي إطار ما يتعلّق بالنحو في خلال وضع الأسلوب ، يعتبر بيرو أنّ كل جملة هي نتيجة عملية إجرائيّة أجبرت الكاتب على أن يختار ، ليس جملةً بين عدّة جمل واقعية (اللغة لا تقدّم سوى إمكانيات نظرية للجُمْل) ، بل بعض قواعد بناء بدلاً من قواعد أخرى ، لكي يتوصل إلى إنتاج جُمْل واقعية مميزة بهذا الفائض بالنسبة إلى اللغة التي هي الأسلوب . ان وجود القواعد واستعمالها يرجعان إلى اللغة ، لكنّ اختيار القواعد وطرق استعمالها يرجعان إلى الأسلوب . من بين الإمكانيات النظرية للجُمْل التي تقدّمها الفرنسيّة وعدد معيّن من لغات أخرى (مُسند إليه + جملة تابعة + فاعل + مسند إليه : فاعل + جملة تابعة + مسند إليه + جملة تابعة أوليّة + جملة تابعة غير أوليّة ، الخ) ، سيكون الاختيار الواقع على هذه الامكانية أو تلك ، هو الذي سيتعلّق عندئذٍ بالأسلوب وبيعه القصوي .

(Bureau, Stylistique, p.21)

III/٣٥- الرواميز العليا

(المتخالفات : Surcodes)

إن الاستعمال القطعي لمنظومة اللغة لا يدير سوى جزء من الرسالة ، وإن المتكلم يمكنه أن يسمح لنفسه باستعمال تباينات البنى على المستوى الصوتي أو المعناني للوحدات الدلالية ، أوفي رأيتوب هذه الوحدات وتراتها في المنطوق . ويمكنه أن يمارس حرية اختيار معينة لكي يعطي وجوداً حقيقياً لاحتمالات المنظومة (Bureau, Stylistique, p.19) . لقد سبق لبعض احتمالات المنظومة هذه أن استفادت منها التقاليد الأدبية لتأسيس سلسلة منظومات تنضاف إلى الإكراه الذي تمثله المنظومة اللغوية ذاتها . إن الإكراهات القياسية أو الإكراهات التي تحدد الأنواع الأدبية المختلفة ، الخ . ، هي التي يسميها بيرو الرواميز العليا القبلية (Surcodes à priori) . وفي أثناء عملية الترميز الفوقي الأسلوبي ، وخارج الرواميز العليا القبلية ، ستعمل إمكانية الاختيار الممنوحة للمُرسل ، بخلق رواميز عليا تمكن قراءتها لاحقاً وحسب في الخطاب . أن تنظيم احتمالات المنظومة اللغوية في إبطاعات وتمائلات أو تعارضات نحوية ، معنائية ، الخ ، سيفضي إلى منظومات حرة ومكونة ظاهرياً ، وإلى تجديدات وابتكارات متسارعة ومتعلقة بالفرد المُرسل وحده . إنها الرواميز العليا اليفعية . وهذه الرواميز العليا يغدو الترميز الأسلوبي الفوقي استكمالاً للفردى ، لفراة المُرسل ، في عمل الاتبناء اللغوي . إن الأسلوب ، أكان هدفه جمالياً أم غير جمالي ، هو اختلاف في استعمال الرموز المقابل لاختلاف في اكتناه الواقع . والمطابق لرؤية الوجود رؤية مخالفة (Bureau, Stylistique, p.30-31) . والحصيلة هي أن لا شيء يمكنه أن يتعارض مع اعتبار الترميز الأسلوبي الفوقي بوصفه مسجلاً للخطاب وتكيفاً مع وضع

مباشرة قد يكون أحد مكوناته المميزة هو المرجل ذاته في علاقاته مع الرموز ومع المرجع ، المرجل بوصفه فرداً يحمل ، بـكيفية ما ، نظرة فريدة الى بعض الوقائع الاختيارية (Ibid., p. 17) . ومما لا شك فيه أنَّ الترميز الأسلوبى الفوقى ، يُظهر بشكل أفضل من كل سجل آخر للخطاب ، أنَّ التباينات الممكنة لدى مستعمل ما للمنظومة اللغوية ، ليست ممكنة بالضرورة لدى مستعمل آخر ، وإنها تستطيع أيضاً أن تختلف عن تباينات خاصة بالجماعة كجماعة .

III/٣٦- الترميز الأسلوبى الفوقى

والتباين اللغوى

إذا كان الترميز الأسلوبى الفوقى يظهر إرادة المبدع في جعل اختلاف خطابي يطابق رؤية للعالم مختلفة ، لا بد من التوقع أنَّ بإمكان هذا الترميز الفوقى جعل كل الألوان التي تصنع اللغة المشتركة ، الوافاً مساهمة ومشتركة . ومن الواضح تماماً أن الترميز الفوقى لن يستطيع إهمال الاحتياطي من الأساليب اللغوية الذي يمثل اللون المُطْبَع والاحتمالات التي تظهرها المنظومة من خلال له وفيه . إن العلاقات المحقودة منذ أمد طويل بين الترميز الأسلوبى الفرقى واللون المُطْبَع والمعياري الفوقى ، تميز إنتاجاً فائضاً جداً ففي كثير من المجتمعات اللغوية ، سرعت الجماعات الاجتماعية السائدة إلى الاستيلاء على هذا الإنتاج واستعماله في الثقافة الرسمية . وفي نطاق الميدان الفرنسى ، مثلاً ، كان لإنتاج مسنن - جون بروس ، قبلئذ على الأقل ، حظ أوفر لكي يندمج في الثقافة الرسمية من إنتاج غامبتون كوتي أو إرسيتيد برون.

غير أنَّ العلاقات المميزة اجتماعياً بين ترميز أسلوبى فوقى ولون مُطْبَع (مُقَد) ، لا يجوز لها أن تُنسبنا لن الترميز الأسلوبى الفوقى لم يعد مرتبطاً باللون المُطْبَع وحده ، أكثر مما هو مرتبط بأي

لون لخر من اللغة المشتركة . من المُسلّم به ، وحتى من الشائع ، أن اللون المطبّع واللون المتداول ولهجة إقليمية أو عدة لهجات إقليمية ، تسهم جميعها وتتشرك ، لغايات اسلوبية ، في خطاب واحد وهكذا ، وعلى الرغم من التراث الثقافي الاجتماعي المعارض ، أخذ التردد يتضائل اليوم ، شيئاً فشيئاً ، في العالم العربي إزاء إشراك اللون للمقعد والالوان غير المقعدة ، في أهداف الترميز الاسلوبي الفوقي .

في الهدف ذاته ، يمكنُ لمميّزات اللون العلمي من الفرنسية أن تتعايش مع مميّزات اللون المطبّع أو المتداول ، فميّزتها التخريبية ، ومزاياها الرمزية - اللبّية ، واستعمالها لاحتمالات المنظومة تقرب العامة من الصياغة الاسلوبية ويمكنها أن تجعل منها ذروة اللعبة اللغوية (Denise François, Les Argots, p.620-646) . وعندما لا يوجد لون مطبّع ، يمكن للترميز الاسلوبي الفوقي أن يفيد من التلون ما بين العاميّات وحده ، أي من مجموع الألوان غير المطبّعة.

هكذا يبدو تماماً حال الخطاب الذي يحلّه جامس ج. فوكس (FOX, Rotinese view of language, p.66- 88) . ويتعلّق الأمر بنصوص مجموعة من روتي (Roti) ، وهي جزيرة في الأرشipel الأندونيسي . إنها نصوص طقسية تُقال ، تُرسل أو تُفنى في مناسبات التفاعل الاجتماعي الشكلي ؛ تسمى (Biris) وهي تقابل رواميّز فوقية قبلية ، متشعبة جداً ، فتركيبها قائم على توازي المقاطع الطويلة نسبياً ؛ والمعجمية الضرورية لهذا التوازي / العدد الأكبر من الكلمات المترادفة / توفرها مختلف عاميّات روتي ، والمستعملون وأغنى لواقع لث في أزواج الكلمات المترادفة ، تأتي إحدى المعجمات من زمرة العاميّات الغربية ، وتأتي المعجمة الأخرى من زمرة العاميّات الشرقية . يضيف فوكس أن الشعور الناتج لدى

المستمعين هو شعور بالغربة . وإن المبدع (هو بلا شك جماعي أكثر مما هو فردي في حالة هذه التصوُّص بالتحديد) اذ يستفيد على هذا النحو من التباين بين العائيات ، إنما يبدو حيثنَّ كأنه يلم غاية الترميز الأسلوبى الفوقى وأنَّه قام على هذا النحو بواسطة فروقات في استعمال الرموز ، بإبلاغ فرقٍ ما في اكتناء الواقع ويضيف المؤلف أن الاستعمار المنهجي للتباين العامي لغايات أسلوبية ليس خلاصاً بالتراث الروتي وحده ، وأنه ملحوظ في أماكن أخرى ، في الإبداعات الطقسية للبورنيو (Borneo) ، في بعض متحدثات المايا ، وفي الشعر العبراني في العهد القديم ، الخ .

إن استعمال التباين بين اللغات ، أي الانتقال من منظومة لغوية إلى أخرى ، جرت دراسته كتكييف للخطاب مع المرجع ، مع المرسل إليه ، مع المكان لو لحظة الخطاب ولكنه دُرِس على نحو أقل من حيث هو مساهمة ممكنة في الترميز الأسلوبى الفوقى ، ومن زاوية الإمكانيات التي يقدمها للمرسل لكي يبلغ فرقاً في اكتناء الواقع ، باستعمال شخصي لشئى الرواميز التي بعورته . لماذا لا تكون اللحظة أو وتيرة الاستقالات من لغة إلى أخرى في خطاب متكلم متعدّد اللغات ، قابلة للاستعمال لغايات الترميز الأسلوبى الفوقى ؟ وكما كان صعباً تحديد السجل (المعجم) دون الإحاطة في وقت واحد بالتباين ضمن اللغات وبين اللغات ، سيكون بلا شك هذا العمل جردة نالصة لموارد الترميز الأسلوبى الفوقى ، بقدر ما يكون تناسياً للموارد التي يقدمها التباين بين اللغات في المتحدثات المتعدّدة اللغات .

المواقف
اللغوية المتعددة

التعددية اللغوية والمجتمعات « البسيطة »

IV / ١ - الثنائية اللغوية .

التعددية اللغوية ، الاحتكاكات اللغوية

ليس الثنائي ضمن اللغة هو الوحيد القادر على طبع النشاط الخطابي لمفرد ما . فالثنائي بين اللغات ، ذلك الذي يلاحظ بين المنظومات ذاتها ، يمكنه أيضاً أن يطبع هذا النشاط . إن الثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية ، أي أن استعمال منظومتين أو أكثر ، من جانب المتكلمين في متعدد واحد^(١) ، لا يمكنه إلا أن يبدل معطيات الثنائي ضمن اللغات ، الخاص بكل منظومة من المنظومات المعنية ، لكنه لا يتعارض مع وجود هذا الثنائي ذاته .

إن التعريفات وتوجيهات البحث التي يقترحها أوديل فاينريخ (Uriel Weinreich, Contact) ، بالنسبة لاحتكاك اللغات والمواقف

(١) بما أن الثنائية اللغوية ليست سوى حالة قصوى من التعددية اللغوية ، فإن هذا المصطلح الأخير ، الأعم ، يستعمل هنا . إلا إذا كان من الضروري أن نوضح أن المقصود هو استعمال اثنين فقط .

اللسانية الاجتماعية المتطرفة بها ، لا تزال على الرغم من قسمة ذات سلطان مرجعي دائم . يُقال إن لغتين أو أكثر هما على اتصال واحتكاك ، إذا كانتا مستعملتين استعمالاً تعلقياً من قبل الأشخاص أنفسهم . والأفراد الذين يستعملون هذه اللغات هم ، عندئذٍ ، مجال الاحتكاك . وامتدة الاتصالات بالنسبة إلى معيار كل لغة ، التي تنتج في خطاب المطلقين بعدة لغات ، كنتيجة لاعتيادهم على غير لغة ، أي كنتيجة لاحتكاك اللغات ، متجري الإشارة إليها كوقائع تبادلية . ويوضح ليفنبرغ أن المسألة ذات الفائدة العظمى في التداخل اللغوي هي تفاعل العوامل البنوية واللابنوية التي تحرك التبادل أو تحول دونه . وبضيق ، كذلك ليس من الممكن الاطالة تماماً بوقائع تبادلية ، بهذه الوقائع الخطابية وتأثيرها على معيار كل من اللغات المعرضة للاحتكاك ، إلا إذا كان اللساني قد أخذ في اعتباره العوامل غير اللغوية . إن هذه العوامل النفسية والاجتماعية الثقافية ، تشكل الوضع العام والأوضاع المباشرة لاحتكاك اللغات واتصالها وهذا يعني أن المواقف اللغوية المتمدة ستكون ، حسب كل احتمال ، بين أكثر المواضيع تركيباً وتعقيداً ، التي سيكون على اللساني واللساني الاجتماعي أن يعضلها .

IV/٢ - اتصال اللغات والمجتمعات ، البسيطة ،

إن تجمعاً بشرياً ، قليلاً عددياً ، معزولاً نسبياً ، وديم التمايز اجتماعياً ، يمكنه بكل وضوح أن لا يستعمل سوى منظومة لغوية واحدة ، لكن كثافة سكانية مرتفعة جداً وعدداً كبيراً من المتكلمين بلسان واحد ، ليسا في الظاهر شروطاً أولية لوجود متحدات ذات خطاب متعدد اللغات (Jackson, Colombian Vaupès p.50-64) ، ذلك أن المجتمعات المسمّاة بسيطة يمكنها أيضاً أن تقدم أوضاعاً مكثفة من التعددية اللغوية وإن واحداً من أهم الامتدة التي وصفها

وشرحها علماء الإناسة اللغوية ، يمكنه حقاً أن يكون مثال مجتمع
هنود فوييس (Vaupès) . (Sorensen, Amazon, p.78-93) .

IV/٣ - مثال فوييس : موقف علم

في وسط بلاد الأمازون الشمالية الغربية ، ما بين حدود
كولومبيا والبرازيل المشتركة ، هناك مدار من مدارات التعداد اللغوي
يتطابق تقريباً مع وحدة جغرافية ، وحدة حوض نهر فوييس وروافده
- يصب نهر فوييس في الريبونجرو ، وهو من روافد الأمازون
(Sorensen, Amazon p.78) . من المناسب أن نشير إلى أن هذا
التعداد اللغوي البلدي يبدو أنه استثناء ، على الأقل بالنسبة إلى
البلاد الكولومبية . فالأغلبية العظمى من القبائل الكولومبية هي
بكلياتها ذات لسان واحد ، باستثناء بعض الأفراد الذين يعلمون من
الاسبانية ما يكفيهم للخدمة كترجمين لدى السلطات أو الرافدين .
وكثيرة أيضاً هي الجماعات المعزولة التي لا تملك أية وسيلة اتصال
لغوي خارج متحدثيها (Condmont, Colombia, p.1197) .

يعطي الكتاب الأميركيون الشماليون لمنطقة فوييس مساحة
تساوي مساحة إنجلترا الجديدة ، ويمتدّن سكانها الهنود بوصفهم
جماعة ثقافية ذات إيلاف أو تلف عظيم جداً . إن هنود فوييس هم
عشرة آلاف تقريباً . أكثر من نصفهم بقليل يعيش في الأراضي
الكولومبية ، لكن مفهوم القبيلة / الأمة هو مفهوم بلا وزن ، بالنسبة
إلى المجتمع الهنود وثقافته (Sorensen, Amazon, p.81) . وهذا
الامر يُرى على نحو أفضل عندما يُعلم ، مثلاً ، أن التوزيع
الكولومبي لا يمنح صفة مواطن لأي هندي إلا إذا كان يتكلم
الإسبانية ويجيد كتابة اسمه (Condmont, Colombia, p.1198) .
وتبقى نسبة السكان ضعيفة : ٢٠٠ نسمة / كلم^٢ . والسكنى مبعثرة ،
ذاك أن الهنود يقيمون منازلهم فوق أراضي متصلة وغير محدودة على

طول الأنهر ، بالقرب من الأنهر السريعة ، هناك حيث تكون الظروف مؤاتية أكثر لصيد الأسماك الذي يتل بالنسبة إليهم واحداً من النشاط الاقتصادية الأساسية . ويوجه عام ، يعتبر هؤلاء السكان الهنود حضريين ، على الرغم من أنهم ينتقلون غالباً وبسهولة انطلاقاً من مختلف المنازل المشتركة .

فالمنزل المشترك . كوحدة سياسية واحتفالية أساسية . وكمجموعة لمعادلة التوزيع الاقتصادي . هو مجموعة نوى عائلية ، ويمكنه أن يحتوي منها على ثمانية . وإن منزلاً مشتركاً يضم بعض الاستقرار عبر الزمان ، ينتهي به المطاف إلى أن يكون شبكة حقيقية لخطوط القرابة الأبوية . هناك وحدات أخرى ، أوسع من المنزل المشترك ، تبني المجتمع الهنود . فالمشيرة هي وحدة تضم عدداً معيناً من السلالات الأبوية ، إنها وحدة سياسية واحتفالية ، ذات اسم وموقع ، وتشمل مكانة مركزية في المجتمع الشامل .

IV/ ٤ - القبيلة ، الوحدة الزوجية

الخارجية ، الجماعة اللسانية

يوجد في فوريس وحدة اجتماعية تضم عدة عشائر ، لا يتردد البعض في تسميتها قبيلة ، لكن باحثين آخرين يرفضون إطلاق هذه التسمية عليها ، لأنها ليست وحدة إقليمية ولا وحدة جربية . كما أنها لا تملك مزايا ثقافية خاصة بها ، وهي تُحدد جوهرياً بوحدةها اللسانية . ولا يشير إليها ج . جاكسون إلا بوصفها وكلاً لغوياً (Language aggregate) . وفي منطقة فوريس ، يعد جاكسون أكثر من ٢٠ من هذه الوحدات اللسانية التي تتطابق . في البنية الاجتماعية ، تمام التطابق مع وحدات الزواج الخارجي من خط الأب . ويكتب سورنسن من جانبه: للقبيلة الاتساع ذاته الذي للجماعة اللسانية

المؤلفة من أفراد استعملوا اللغة كلغة أساسية أو لغة الأب^(٢) في طفولتهم ، داخل النواة العائلية . فاللغة التي تعطي الهوية للجماعة اللغوية / القبلية هي في وقت واحد لغة الأب ، لغة المنزل المشترك واللغة القبلية لكل فرد من أفرادها . وهي ، تعريفاً ، لغة أخرى ، غير اللغة التي تُحدد بها هوية جماعة الأم . ويعترف الهنود بمجموع المنازل المشتركة للمنطقة بلغة الأب ذاتها ، بأنّها الوحدة الاجتماعية القصوى ؛ إنها للقبيلة ، وهي أيضاً الوحدة الزوجية الخارجية . وبموجب التعريف الخامس بثقافتهم ، يتضمن معيار التمايز بين القبيلة عدم التفاهم بين اللغات في نظر الهنود . إن هندية لوهنديا لا يمكنهما الزواج من داخل جماعتهما اللغوية / القبيلة دون ارتكاب مُنكر (incest) . وعلى هذا المنوال قد تتزوج في أخاها ، وقد يتزوج هو أخته بالتالي .

IV/ ٥ - اللغات المتواصلة واكتسابها

بولادته ، ينتسب الهندي الفتي - لكان حبيباً أم صبية - إلى جماعة والده اللغوية / القبيلة ويسكن حتماً في المنزل المشترك حيث يعيش الأب . والأم تنتسب ، من جانبها ، وبشكل دائم إلى جماعة لغوية / قبيلة / مختلفة ، وهو انتساب لا يمكن للزواج أن يسقطه . وعندما تخاطب امرأة لولادها ، تستعمل باستمرار لغة المنزل المشترك ، لغة زوجها . لكنّها بوجه عام ليست المرأة الوحيدة من جماعتها اللغوية في المنزل المشترك ، وغالباً ما يمكنها إيجاد مجاورات لكي تستعمل معهن لغتها الخاصة بها . إن في ذلك مناسبة

(٢) ثمة تروند هنا في استعمال تسميات « لغة أبوية » أو « نسوية » نظراً للتضمينات العائلية التي كانت متعلقة بها ، ولعدم الوضوح الناتج عنها من الوجهة العلمية . وبدأ لّن من الأفضل من حيث اللغة الوصفية استعمال لغة الأب ولغة الأم .

للأولاد لكي يكتسبوا أيضاً لغة أمهم . وفوق ذلك ، إن عادة تزويج صبي من ابنة خاله ، أي من امرأة من جماعة أمه اللغوية / القبيلة / نفسها ، تشجع بالتالي الأم على تطعيم ولدها لغة الجماعة التي تنسب إليها . علاوة على ذلك ، هناك في المنزل المشترك جماعة أو عدة جماعات نسائية من قبيلة (قبائل) مختلفة في وقت واحد عن قبيلة الأب وعن قبيلة الأم ، وعندئذ يتقاسم الفتیان إلى استماع ، وربما إلى اكتساب لغة ثالثة ، لغة رابعة ...، حتى في حرم المنزل المشترك الواحد .

تنتسب اللغات المحكية في هذا المدار اللغوي النعدي ، إلى عائلات مختلفة . عائلة التوكانوان الشرقي ، الأراواك ، وبشكل أساسي عائلة بيررا - بارانا . وإن عائلة توكانوان هي العائلة الأكثر عدداً وكذلك الأكثر شهرة . واللغات المختلفة الممثلة لهذه العائلة ، يعتبرها الناطقون بها أنفسهم كأنها لغات غير مفهومة على التوالي . وأن أقرب لغتين في هذه الجماعة هما أبعد من بعضهما ، مما هو حال التباعد بين الدائيمركية المقولية واللون المحكي في جوتلند ، كما يوضح سورنسن (Amazon, p 91) فالفرق بين هذه اللغات تتعلق بالمعجمية والقواعد وبمقدار أقل بالصوتية . أخيراً ، لا بد من الإضافة إلى هذا المدار اللغوي النعدي يتطابق مع ذلك المدار حيث تستعمل التوكانوا - وهي اللغة الأم في عائلة توكانوان الشرقية - كلغة علاقات بين القبائل .

عندما لا يملك القتي الهندي للتوكانوا كلغة الأب أو كلغة الأم ، وعندما لا يكون قد تعلمها في الاتصال مع إحدى جماعات النساء في منزله المشترك ، فسوف يتعلمها بالاحتكاك مع الزائرين الكثيرين الذين يترددون على هذا المنزل . ولكنها تامة هي الممارس المشتركة التي لا تقسم في عدد قاطنيتها أي فرد من الجماعة اللغوية / قبيلة توكانوا . واليوم لا تزال هذه الجماعة هي الأكبر عدداً

وقد أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ المنطقة ، حتى وإن كان الامتياز الذي لا تزال تنعم به في هرم القياكل لم يعد فيه أي شيء عدواني حالياً . إن التوكاكو ، كلغة قبليّة ، تمكّ عددًا وافرًا من المتكلمين بها ، وامتداداً جغرافياً ، كالميين على الأقل ليكون فيها ستة ألوان عاميّة . وهي كلغة علاقات بين القبائل ، يجري اكتسابها في صورة من صور عاميّاتها (Sorensen, Amazon, p. 88) .

IV/٦ - التصنّع الوظيفي في اللغات المتواصلة

لا يتفاخر الهنود أيّ تفاخر بتعدد اللغوي ، بل يعتبرونه أمراً عادياً . فما من هندي يزعم معرفة لغة لا يعرفها في الواقع ، ويبدو تماماً أن الهنود لاميالون ، ومتكلمون ربما ، من تعددهم اللغوي . إن هذا الموقف اللغوي الذي يعتبره سورنسن قابلاً للغزو إلى هنود فوييس ، يُستخلص من رصد سلوكهم الشفهي في معظم المواقف المباشرة . وإن الانتقال من لغة إلى أخرى ، أو استبدال ملفوظات تنتمي إلى لغة أخرى ، في خطاب منطوق بلغة معينة ، لا يتطابق عند المتكلمين الهنود مع إرادة وضع معاجم أو سجلات مختلفة ، مثلاً . وعندما تدور محادثات بلغتين أو بأكثر من لغتين ، لا يلتفت أحدٌ إلى ذلك بوجه خاص . ففي هذا النوع من المحادثات ، يبدأ كل واحد الكلام بلغة الأب الخاصة حتى يؤكّد هويته وانتمائه القبلي . ولكن بعد وقت ما ، ينتقل المتكلمون الأكبر سناً ، وبلا تعليق أو تفسير ، إلى لغة المنزل المشترك حيث حصل التبادل اللغوي ، ظاهرياً من باب اللياقة مع الضيوف ، أو ينتقلون إلى لغة توكاكو بوصفها لغة علاقة ، أو إلى لغة أخرى ، بما يتوافق مع المتكلمين الآخرين من غير الضيوف ، الخ .

بين العشرين لغة الموجودة في فوييس ، لا ينطق بكلٍ منها

سوى عدد صغير من المتكلمين . فما من لغة تبدو ذات دور مميز في التراتب الاجتماعي . زد على ذلك ان بمستطاع جميع اليهود أن يتواصلوا بواسطة التوكانو . فتكلم المنطقة ثقافياً هو من النيات ذات يوم . سأل جاكسون مخبريه . لماذا تتكلمون كل هذه اللغات بدلاً من الاعتماد . حصراً ، على التوكانو ؟ فحصل على الإجابة التالية : إذا تكلمنا جميعنا التوكانو، فمن أين يمكن أن نحصل على نصائنا ؟ في الحقيقة ، هذه بالذات هي وظيفة الجماعة اللغوية / القبيلة ، كوحدة اجتماعية متكاملة حول توزيع النساء ، الذي هو الضمانة الحقيقية لاستقرار التعدد اللغوي في المنطقة . إن اللغة هي راية الجماعة ، وبالنسبة إلى كل متكلم ، النصنع الوثائقي الأول للغة التي يتكلمها ، هو أن تكون رمزاً للانتماء إلى الجماعة . إذن ، لكل هندي أسباب معتارة (إجتماعية ، إن لم تكن دائماً لغوية) لإعلان عدم المطالبة المتبادلة بين لغات المنطقة .

IV/٧ - سمات التعددية اللغوية الهندية

في وضع فوبس الاجتماعي / اللغوي ، يمكن لباحث أن يفضل ، كموضوع دراسي ، الجماعة الاجتماعية الأصغر حجماً ، مجموعة النواة العائلية ، أو زمرة اجتماعية أكثر كثافة ، جماعة المنزل المشترك ، أو أيضاً على مستوى أعلى من التكثف ، مدار التعدد اللغوي بكامله . ومهما يكن اختياره ، سيجد نفسه ، بثبات ، أمام تعدد لغوي جماعي ، متميز باستقرار لا يبدو أنه قد تضرر جدياً في الماضي ، من جراء الغزوات الأوروبية والتوسع (النمسي جداً في المنطقة) البرتغالية والإسبانية بوصفهما من اللغات العلائقية الممكنة . وفي الظروف الملتصمة ، لا شيء يدعو للتوقع يلمن هذا

الاستقرار يمكنه أن يتطور نحو سلسلة من تبدلات اللغات^(٢) . أي نحو وضع يمكن ، في مرحلة أولى ، لبعض من اللغات العشرين المحكية حالياً ، أن يزول لصالح عدد أصغر من بينها ، وأن يتطور على مدى أطول بلا شك ، نحو وضع من أحادية اللغة / توكانو . وأن واحداً من الاستنتاجات الأولى التي يمكن استخلاصها من دراسة الوضع في فوبيس ، هو أن المجتمعات المكثفة ليست ، في الظاهر ، الضمانات الوحيدة الممكنة لاستقرار تعدد لغوي معين ، فمؤسسات التعدد اللغوي ، وأبعده ، وكتلة السكان ، وبالتالي العدد المرتفع للمتكلمين الذي يمكن لهذه المؤسسات أن تقدمه لكل من اللغات الحاضرة ، الخ .، ليست شروطاً لولائية لوجود تعددية لغوية ولا لاستقرارها.

إن تعدد اللغات عند الهنود في فوبيس يمكنه ، كماي تعدد لغوي ، أن يحل في منظار علمي تعددي ؛ وفصلاً عن وجهات النظر اللغوية والاجتماعية بحق ، يمكن تناوله أيضاً من وجهة اكتسابه ، بقدر ما يمكن تناوله من وجهة أوسع ، هي وجهة علم النفس . وبمقتضى الترجمة المفهارة ، قد يكون من الممكن حينئذ أن نُعزى إلى هذا التعدد اللغوي سمات ومرايا شتى.

وإذا أخذنا في الاعتبار واقع أن متكلماً هندياً يكتسب على الأقل ثلاث لغات منذ طفولته الأولى ، فمن الممكن ، عقلياً ، أن نصف هذا المتكلم بأنه متحدث اللغات باكراً^(٣) . ولكن هل سيتوجب

(٢) تستعمل المصطلحات الانكليزية ، في هذا المعنى ، Language-Shift ، التي جرت ترجمتها غالباً بكلمة إبدال

(٤) المصطلح المستعمل هنا هو ذلك الذي لترجمته وتلغشته أندريه تابوريه - كبلر
André Tabourat-Keller, Plurilinguisme et interférences, Gailde, p 305-310.

أيضاً اعتباره متعدد اللهجات (Diglotto) أو متعدد اللغات ، متأخراً ،
لخذين في الاعتبار واقع أنه يكتسب ، بوجه عام ، لغةً رابعة ،
خامسة أو سابعة ... اعتباراً من مراقبته أو في وقت لاحق أيضاً
من أيام حياته ؟

إذا وقع الاختيار على تحليل نفسي لحالة هؤلاء المتعدي
اللغات ، فربما سيلاحظ أنهم يملكون إجادة متساوية ، تقريباً ، على
الأقل ، في كل من اللغات الثلاثة أو الأربعة ، المكتسبة أولاً ، الأمر
الذي من شأنه أن يصحح عندئذٍ بأن نرى فيهم متعددي لغات
متوازنين . ولكن ، إذ نفترض التوصل إلى تدقيق الومضات وصل
القياس ، ماذا سيكون الأمر عندما يصل إلى تحليل الإجابة اللغوية
بالنسبة إلى اللغة المحكية الخامسة ، السابعة أو العاشرة ؟

إن مسافة من الطبيعة ذاتها ستطرح نفسها عندما سيهتم
تقويم المعرفة التي يملكها المتكلم الهندي من كل من لغاته
المختلفة إن معرفة تعاقبية لكل من لغاته الأولية ، الثلاث أو
الأربع ، أي أن معرفة تسمح له بإرسال ملفوظات بالسهولة نفسها
التي يتلقى بها الملفوظات في هذه اللغات ، يمكنها أن تجعل من
تعدد اللغوي تعدداً لغوياً متماثلاً . لكن ماذا يمكن أن يكشف تقويم
معرفة اللغات المكتسبة في الأخير ، والتعددية اللغوية الهندية الأ
تعدو بالمقدار نفسه تعددية لغوية لامتناهية من بعض جوانبها
ومعالمها ؟ ألا يتعين وصف التعددية اللغوية المعاشة في المنطقة
بأنها استثنائية ، وذلك على قدر عدم ارتسام هرمية نفوذ واضحة جداً
بين اللغات المحكية ، ولأن هذه اللغات تحظى كلها تقريباً بالمقام
الاجتماعي ذاته في نظر الهنود كافة ؟

التعددية اللغوية الهندية ، مبكرة / متوازنة ومتماثلة ، ولها
السبب بالذات يتعين عليها أن تكون تعددية ثابتة / مستقرة ، بيد أن
بعض معطيات قوبوس الاجتماعية / اللسانية يمكنها حقاً أن تكون

عوامل قوية لعدم الثبات والاستقرار . ومثاله ، أن جميع اللغات العائلة في المتحد ، جرى اكتسابها من طرف الناطقين بها ، بالرجوع إلى وضع معلمي / ثقافي واحد . وإن كل التوضيقات المختصة للمجتمع اليهودي ، إلا تمنحه في الواقع ثقافاً كبيراً جداً من وجهة النظر هذه ؟ إذن ، يفترض بالهنود ألا يملكوا سوى منظومة مدلولات واحدة في مقابل الآلات لفقهم المختلفة ، وعندها قد تكون أمام حالة نموذجية من التعددية اللغوية الموسومة بأنها مركبة . والحال ، فإن التعدديات اللغوية المركبة تمتاز ، بوجه عام جداً ، بنقوديتها ، بقابليتها للاختراق أو النفوذ . ففي المسير اللغوي ، قد لا يمكن إلا بصعوبة ، لو قد يمكن أبداً الفصل بين صوائت كل من اللغات المتواصلة ، ونحوها وصرفها ومعجميتها . في هذه الشروط ، تغزو إمكانية التداخلات بين المنظومة الحاضرة ، إمكانية كبيرة جداً من الوجهة النظرية ، ولا محدودة إذا جاز القول . فإذا كانت شتى اللغات المتواصلة لا يمكن إبقاؤها منفصلة إلا بصعوبة ، فإن الوضع اللغوي التعددي يكون من الداخل ، مهدداً في استقراره وحتى وجوده ذاته . والحال ، مهما تكن التعددية اللغوية الهندية مركبة وقابلة للنفوذ ، فما من شيء يسمح للباحثين بأن يقرروا أن هذا الأمر يطول استقرارها في المدى القريب .

IV/ ٨ - مسائل نظرية :

يمتد في الواقع أن الوصف والخراسة اللسانيين الاجتماعيين ، لوضع مثل وضع فوهيس ، يدعوان إلى إثارة عدد معين من المسائل النظرية ، ويدعوان أيضاً إلى معاودة التفكير فيها . إنطلاقاً من معطيات الوضع هذا ، وإذا لم يكن هذا الأمر قد سبق الشروع به في أماكن أخرى ، قد يكون من الملح أن يُعاد النظر

في فرضية كانت ، بالأمس ، لا تزال سائدة : لغة واحدة ، ثقافة واحدة . ففي هذه الحالة ، يشدد سورتسن (Amazon, P 91) على أن التآلف الثقافي لا يعني تآلفاً لغوياً ، وثقافة المنطقة الهندية ، المشتركة بين الجميع ، هي ثقافة واحدة وموثقة ، في حين أن ما يعتبر بالنسبة إلى البعض لغة الأب ، يعتبر بالنسبة إلى الآخرين لغة الأم ، ويعتبر بالنسبة إلى آخرين أيضاً لغة مجهولة .

ولفوق ذلك ، عندما يعمل بعض الباحثين في حلقات تهيمن عليها النظريات التحويلية والتوليدية ، وهم مشغولون بمسائل فوبس ، إنما يصل الأمر بهم أحياناً إلى مغالطة النظر في بعض المقدمات (Prémises) الكبرى والوسطى ، الأساسية لهذه النظريات . فإذا كانت النظرية اللسانية متعلقة بالمعرفة الضمنية التي يملكها فرد مُزِيل/مُسْتَقْبِل نموذجي ، إحدى اللغة في متحد خطابي متآلف بذاته ، فصلاً سيحل بالفرد ، كما هو الحال في فوبس ، الذي لا يكون مرسلاً/مستقبلاً نموذجياً ، إلا بشرط أن يكون متعدد اللغات ، لا إحدى اللغة ؛ إن العلاقة بين القواعد والكفاية اللسانية الفردية تطرح هي أيضاً بعض الأسئلة . فإذا افترضنا أن القواعد يتمين عليها لن نعكس ، بكيفية أو بأخرى ، الكفاية اللسانية الفردية ، فإن قواعد اللغات المختلفة لمتكلم من فوبس لن تكون ملائمة (Jackson, Colombian Vaupés, P 63) .

IV/ ٩ - الفصل الوظيفي بين اللغات

يسري فيشمان (Sociolinguistique, P. 87-88) أن اللسانية الاجتماعية قد اكتشفت أن استعمال عدة رواميز متفصلة داخل مجتمع ما ، وإبقاها مستقرة ، كانا يتوقفان على الخدمات التي يقدمها بعض الرواميز ، بشكل مختلف عن الوظائف الممنوعة إلى البعض الآخر . وإن المتطلبات اللغوية الحاضرة قد تتوفر لها جميع

العرص والحفظ لكي تكون في وضع غير تنازعي ، وبالتالي ثابت ومستقر ، نظراً لأن تصنفاتها الوظيفية تختلف عن بعضها . ومن ثم لا يكون ثمة داع ، في مئة قصيرة ، لتصوّر إمكان إبدال اللغات ونزول لغة لعدة لغات منها لصالح لغة (لعدة) لغات (أخرى) ، وإمكان التطور في اتجاه وضع لغويّ أحديّ جديد .

حول هذه النقطة أيضاً ، يتطلب واقع فوبيس اللساني/ الاجتماعي أن يُعاد التفكير والتمعّن في التسيّرات النظرية ، إن استقرار هذه التعددية اللغوية واستمرارها غير التنازعي لا يدينان ، في الظاهر ، بشيء كبير لفصل وظيفي بين اللغات الحاضرة ، لأن التصنّف الوظيفي الأول ، بالنسبة إليها كلها ، هو ذلك الذي يجعل منها رمز الهوية الفردية والانتماء إلى الوحدة الاجتماعية/ الزوجية الخارجية . وفي هذا الوضع اللغوي التعددي ، ليست الفوارق ، بالمعنى الاجتماعي ولا بالمعنى الجغرافي ، موزعة توزيعاً متكافئاً . وبالتالي من الصعب الرّد على السؤال ، في إطار تعدد اللغات في فوبيس ، من يتكلم أية لغة (أو لون) ، مع من ، أين ومتى ، بمقتضى الهدف المنشود ، وبحسب الموضوع المعالج الخ . بالصيغة التالية : إن متكلماً لا يستعمل اللغة X (أو لوناً من ألوانها) في الأوضاع المباشرة (مستمع ، مكان ، لحظة ، موضوع معالج ...) A و B ، واللغة Y في الأوضاع C ، D و E الخ . إن صيغة مماثلة لا يمكنها واقعياً أن تحيط بالاختيار الذي يجريه المتكلم الهنودي المتعدد اللغات في بداية التبادل اللغوي ، بين المختلف اللغات التي في متناولها . كما أنّها لن تحيط ، وحدها ، بالامتقالات^(*) من لغة إلى أخرى في مجرى النشاط الخطابي من

(*) تستعمل الانكليزية مفردات . Language-Switch أو Code Switching التي تترجم إلى الفرنسية أحياناً بمفرد Corrélation (إبدال)

المستحيل التقليل من قيمة واقع أن كل وضع مباشر يرتسم في وضع عام يمكن لبعض معطياته أن تلعب ، قبل كل شيء ، على القواعد التي تحكم مثلاً في الاختيار الصحيح للغة ما ، أو في الانتقال الصحيح إلى هذه اللغة ، في هذه الحالة ، ليس الاعتبار الأساسي في فروبس داتماً هو أن تكون اللغة المختارة مفهومة من الجميع أو على الأقل من جانب العدد الأكبر من المشاركين ، غير أن هذا لا يعني ، أيضاً ، أن الاختيار الأولي أو أن الانتقالات من لغة إلى أخرى تكون ، في ذاتها ، حاملة لمعلومات اجتماعية . ومع ذلك ، فإن المعلومات المنقولة لا يمكن تأويلها إلا بمقتضى حال لغة الأب عند كل من المشاركين .

لغة واحدة أم لغتان ؟

يهود العالم كأنه محيط من التجاذبات المتنافسة ، مع ملتقيات تؤدي بعد مسالة قصيرة إلى مفترقات ، ويبدو كأنه محيط من مراكز التجاذب الجديدة المتطورة في كل مكان تقريباً والمهددة في كل أن بالإحلال بثوارن المسامح القائمة ،
A. Marinet (Langue et fonction, P 128).

IV / ١٠ - المسألة بين اللغات :

معروف قليلاً وبشكل مبني تاريخ اللغات الحاضرة في فروبس ، ووفق ذلك ، لا يزال عندنا منها بمنأى عن أي وصف تسارقي . كذلك لكي يعالج الباحثون المعطيات التي يملكونها عن هذا الوضع اللغوي للتعدد ، إنما يتقانون عادة إلى طرح مسألة اختيار المعايير الواجب استعمالها لتقرير ما إذا كان واقعا أو أكثر من واقعين لغويين هما لغتان (أو لغات) مختلفة ، أو بالعكس ، ما إذا كان يجب اعتبارها فحسب كانتا اللغتين الواحدة اعتباراً من أية فوارق في البنى ، واعتباراً من أي عدد من هذه الفوارق ، توجد

مسافة حقيقية بين اللغات ؟ وفي غياب البيّنات البنيوية ، ما هي العوامل غير اللسانية التي يتوجب تصريفها مع فوارق البنى لإقامة المسافة بين اللغات ؟ احدية لغوية لم تعددية لغوية ، كيف نقرّر ، في بعض الأحوال ، نوعية الوضع المعروض ؟ إن فوارق البنى في بعض المنظومات المتواصلة في فوييس تزيل كل لبس وعموض ، لكنّ الحال ليس كذلك دائماً . ففي خلال استطلاعه للميداني ، تعيّن على سورنسن أن يستعمل كمعيار للتفريق بين بعض اللغات المائلة هنالك ، ما أسماه لامحقوقيتها المتباعدة ، نظراً لعدم وجود تقاهم بين المتكلمين يضمن وجود لغات متباعدة ، وليس عدم وجود من لغة واحدة ، وكانت الطريقة المستعملة في سياق الاستطلاع تقوم على تربّس الفرص حيث كان هنديّ يطرّ أنّه لم يفهم شخصاً ما ، في خلال مناقشة تستعمل فيها عدّة لغات (Sorenson, Amazon, P.81).

بناءً على تصريح أولئك الذين أعلنوا ، بعد سورنسن وبإجماع كافٍ ، اللامعقلية المتبادلة بين العشريين لغة المحكية في فوييس ، يبدو من المناسب التشديد على أن براهين عدم الفهم هذا ، يفترض أنّ تكون صعبة الإثبات . فالتمذد اللغويّ عامّ في فرييس ، والهنود الذين لا يتشابه معجمهم الشفهي هم الاستثناء (خاصة إذا أخذنا في الاعتبار وجود التوكانو كلفة علاقات) ، فلا توجد حدود جغرافية ولا حدود من أي نوع كان بين اللغات الحاضرة ، وليس بالإمكان توقّع تراكيب اللغات في المعجم الشفهي (إذ كلها ممكنة نظرياً) لفرد ما ، أو في المعجم الشفهي لعائلة ، أو أيضاً في المعجم الشفهي لمتزل مشترك (Jackson, Colombian Vaupès, P 55-57) . وفي هذه الشروط والظروف ، لا يفترض أن يكون من المهمات الميسورة ، التقرير بعدم وجود تقاهم بين متكلمي اللغة A ومتكلمي اللغة B ، أو بين متكلمي اللغة B ومتكلمي اللغة C ، وأيضاً بين متكلمي اللغة B ومتكلمي اللغة C ، الخ ، ولا التقرير بعدم

وجود معقولة متباعدة بين اللغات المتواصلة في شوييس . ففي القرار الذي اتخذته الباحثون بهذا الصدد ، من الممكن ان يُكتشف مُجدداً إنعكاسٌ مطابق كثيراً للعوقف اللغوي للمتكلمين الهنود انفسهم .

في الواقع ، إن عدم الفهم كميّار لوجود لغات متباعدة يعادل تعاملاً ما يعادلّه التفاهم المتبادل كميّار لوجود لغة وحيدة ، واحدة . كتب ملوتيفه : علينا القول بوجود لغة منذ ان يقوم إتصال وإبلاغ في إطار نطق مزيج من الطراز اللغوي ، وبيننا أمام لغة وحيدة ، واحدة ، طالما انّ الإبلاغ متواتر عملياً . والمؤسف هو انّ معيار التفاهم المتبادل ليس حاسماً دائماً ، إذ يوجد عام توجد جميع الدرجات الممكنة بين الفهم المباشر/ الفوري وعدم الفهم المطلق (Martinet, Eléments, P 147) . فوجود تفاهم متبادل لا يعني إذن أننا أمام لغة واحدة ، وحيدة ، فبعد مرور مفاجأة الاحتكاك الأول بين دانيماركي ونرويجي ، وبعد مرور وقت على ما يسميه هوجن شعبه الإبلاغ⁽⁶⁾ ، من الممكن ان يقوم بين المتكلمين تفاهم مقبول بقدر ما يكون هذا التفاهم كافياً في الأوضاع المباشرة لتلبية حاجات العيش المشترك بين هؤلاء المتكلمين .

بالمعكس ، لا يمكن لعدم التفاهم بين المتكلمين انّ يكفي وحده لتعيين ما إذا كنا أمام منظومات مختلفة ، ومثل ذلك ، في سلسلة التلونات الجغرافية A ، B ، C و D ... من لغة معينة X ، يمكن وجود عدم تفاهم ، دون مشكلات كبرى بين متكلمي A و B و C و C' و D ، الخ . وحتى أحياناً بين متكلمي A و C ، أو متكلمي C و E ... في حين لا يوجد سوى عدم التفاهم بين متكلمي A و E . وفي

(6) E. Haugen, Semicomunicação, the language gap in Scandinavia Sociological Inquiry, Vol. VI, 1966, P 280-297

السوالع ، يمكن لعدم التقاطع أن يزول إذا قلم تفاعل اجتماعي متواصل بين متكلمي A و E . فإذا كان اللغتان A و E غير قابلين للمهم المتبادل ، فهل يتعين عليهما دائماً أن يُعتبرتا كلوتين من اللغة X ذاتها أو كمنظومتين متباينتين ؟

IV/ ١١ - المقومات البنوية

إن الإجابة الوحيدة الصالحة علمياً ، التي يمكن للعصاني أن يردّ بها على هذه المسألة ، هي وصف تباينتي يشدّد نقطة فنقطة على الفوارق البنوية بين A و E . بيد أن المسألة بين اللغات تكون ذات تحليل رديء إذا وقفنا عند الفوارق البنوية وحدها . وفي ما يتعدى الدراسة التباينية للمنظومات ، سنلزم الإحاطة بتفاعل الوضائع البنوية مع المقومات غير اللغوية .

ومن المناسب فحص الفوارق البنوية التي تسهم في المسافة بين اللغات^(٧) ، وتمييزها من الوجهتين الكمية والنوعية . كم يلزم

(٧) نشير هنا إلى معالجة جان سيغي (La dialectométrie, P. 1-21) للوقائع البنوية . المتخيلة في هذا الإطار ، فبعد استعراض نتائج العمل الذي قام به في كتابه (L'Atlas linguistique de la gasconne) . وضع (Séguy) سيغي طريقة منهجية تسمح بتكوين المسافة اللغوية الفاصلة بين مواضع الميدان المدروس ، إلى هذه الطريقة ، كتطبيق لمسافة هارمنج (Harnming) ، تكتم فقط التداخل (Séguy, Ibid, R.2 et 19) دون حساب المسافة الشخصية (Ibid, P 19 et 23) . والمقصود هو معالجة إحصائية للمنزلات الكمية . إلى حد تشكيلها النهائي والفسوري رياضياً (Ibid, P 2) سيغي يستخلص إلى * مكونات ، * ثوابت كمية (Paramètres) للمسافة اللغوية (معجمية ، صوتية تعاقبية ، صوتية ، أشكال شفوية ، قواعدية) . ثم يبنى * شبكات / مقويات (Matrices) ، واحدة لكل تلية كمية ، مقيماً العلاقات بين الوقائع اللغوية (وعندها ٤٢٦ في الميدان المدروس) والمواضع الجغرافية وتُحسب خطاً . كلما حطت الخلفات المتعاقبة لموضوع واحد ، بالانسية إلى العرضيين الجغرافيين ، علامات متباينة . ومجموع هذه النقاط سيغير إلى المسافة اللغوية بين المواضع الجغرافية (Ibid, P 11) .

من الفوارق البنيوية حتى تُعتبر منظومتان كأنهما متباينتان ، وأين
يتوجب تحديد موقع هذه الفوارق : في الأصوات ، الأشكال ، النُحو
والصّرف ، المعجم ؟

يقرّر مارتينه أن الاستعمال المتعلق لمنظومتين صوتيتين
متباينتين ، من المرجّح أن يكون المعيار الأقل التباساً لوضع لغوي
ثلاثي ؛ ويقرّر أيضاً أن الثنائية اللغوية ، بأوسع معنى للكلمة ، هي
استعمال الأشخاص أنفسهم لمنظومتين صوتيتين وقواعديتين
متباينتين ، بقبولين المتخاطبين الذين تتّوجه اليهم (Martinet, Langue
et fonction, p 131- 135) . من الممكن إذن الاستنتاج مما تقدّم أن
الفوارق المتجلية في مستوى الصّواتات والمنظومات القواعدية هي
التي تسهم ، على نحو أفضل ، في إقامة المسافة بين اللغات .

IV/ ١٢ - التعددية اللغوية وتقارب المنظومات

تبدو النتائج التي توصّل إليها جون ج. غومبرز ودورث
ويلسون في أثناء وصفهما وضع كوهوار (Kupwar) اللغوي المتعدد
(Convergence, p.151- 167) ، سائرة في هذا الاتجاه ، وبخاصة فيما
يتعلّق بالمنظومات القواعدية . إن كوهوار هي متحدّ قروي في إقليم
سانغلي ، في ولاية مهاراشترا في الهند . تتواصل ثلاث لغات في
هذا المتحد البالغ عدد متكلميّه ٢٠٠٠ . فمنذ ستة قرون تقريباً ،
تتعايش الكانادا (Kannada) ، لغة دراڤيدية ، والماراثي (Marathi) ،
لغة هندية / آرية . أما الأورديو (Urdu) ، وهي أيضاً منظومة هندية /
آرية ، فقد وصلت مع الهيمنة للموغلوية ، واستقرّت في المنطقة منذ
أكثر من ثلاثة قرون . إذن ، للوضع في كوهوار هو وضع تعددية
لغوية مستقرة ، متواصلة مع اللغات غير المتقاربة كلها توالدياً . إن
هذه التعددية اللغوية هي أيضاً تعددية لغوية اجتماعية ، حيث جميع
اللغات الماثلة أمامنا ، ليس لها المكانة ذاتها بالنسبة إلى جميع

أفراد المجتمع ، لكنها تعرّك في المقابل وفقاً للفئات الاجتماعية
ويمكننا أن نعتبر أن استقرار هذا الوضع اللغوي المتعدد يعود إلى
فصل وظيفي واضح بين اللغات : فكل متكلم يكتسب (ومن ثم
يمارس) لغة واحدة في النواة العائلية ، في مجال الحياة الخاصة
ثم ، يغدو متعدد اللغات منذ أن يشارك في التفاعل الاجتماعي خارج
الأسرة ، في المجال العام . فبقدر ما سيكون الفصل بين الإثنيات
(الأعراق القومية) هو القاعدة بالنسبة إلى الحياة العائلية في
كوهوار ، وبقدر ما ستظل اللغات مرتبطة بهذا الفصل ، لن يكون ثمة
أسباب موجبة لزوال هذه التعددية اللغوية . (إلا قليلاً Gumperz et
Wilson, Convergence, p 154)

تمثل التغيرات التي طرأت على اللغات الثلاث المتواصلة ،
تكييفاً تدرجياً للفوارق الفواعلية ، وتطورياً لغوياً بحيث أن اللغات
المستعملة في انتقالات متواصلة من لغة إلى أخرى لا يعود لها
سوى ، بنية سطحية وحيدة ، واحدة (Ibid., p.154- 155) . من
الميسور قياس هذا التقارب بين الأورديو والكائادا والماراثي المحكية
في كوهوار . وبالتالي يوجد بالنسبة إلى كل من هذه اللغات ، لون
مفونن ، مكتوب ، ومستعمل في المجال الديني وفي المجال التعليمي
الذي لا يزال بعيداً عن الشمول والعموم ، وفي الواقع تمثل هذه
الالوان المدونة أو المقوننة حالات لغوية قديمة ، وإن مقارنتها مع
حالة الالوان المتغيرة المحكية اليوم في كوهوار تعطي المقياس
الصحيح لنتائج التقارب مع هذه الأخيرة . وربما تكون هذه الالوان
المحكّية قد بلغت ليس فقط وحدة كبيرة في بنائها النحوية ، بل أيضاً
درجة رفيعة من إمكانية ترجمتها المتغيرة (Gumperz et Wilson, Convergence, p.155)

IV/ ١٣ - التقارب والكلمات

عندما يبلغ التقارب التَّحَوُّلَ والمعجمية على هذا الوجه ، لا يعود ثمة مجال للاندهاش من كون المسافة بين اللغات تقوم ، في قسم كبير جداً ، على الفوارق بين منظومات الوحدات القواعدية الصغرى (Monèmes) غير أن منظومات الكلمات هذه ليست بمبأي من التقارب ، والوضع في كوهوار يبيِّن تماماً للفرضية القائلة بعدم وجود حدود وثيود على تدخل هذه المنظومات وتتألفها (Interpénétration). ويجري هذا التنافذ حتى باقتراض لغة لمادة أخرى (Petrovici, Interpénétration, p. 1- 18) وبعبارة أخرى بنقل كلمات ممكن عزلها، من لغة إلى لغة أخرى. ويعتبر فاينريخ (Contact, p.29-31) أن من المناسب في إطار التداخل القواعدي التمييز بين وحدات قابلة للفصل ووحدات غير قابلة للفصل^(٨) ، لكنه يضيف إذا كان من السهل إجراء تمييز مطلق بين النوعين من الوحدات في بعض الأنماط اللغوية ، فمن الأفضل في أنماط أخرى معالجة درجة حرية الكلمات النحوية بوصفها متغيراً.

على الرغم من كون نقل الوحدات القواعدية غير القابلة للفصل ، غير مألوف إلا قليلاً ، فإن غومبرز وويلسون يلحظان وجود افتراضات كهذه ، ثابتة اليوم بشكل نهائي ، في منظومات الاستقبال ، وهكذا ، بينما تملك الأوردو المقعدة ، لأجل بناءات مماثلة لبناء الانكليزية (فعل + Can) (جذر فعلي + Sek) .

(٨) تعتبر قابلية الفصل الوصلات ، حروف الجر ، حروف العطف .. في منظومات كالفرنسية وغير معنى من لغات أخرى ، في حين أن الكيفيات أو الصيغ الفعلية (لزعة ، صيغ ، لوجه ...) تعتبر فيها كلمات صرفية غير قابلة للفصل (Ver. nich, Contact, P. 29-31).

وتملك الماراثي المقعدة : (جذر فطلي + u + (Sak) . فإن الأورديو
والماراثي وكذلك الكنادا المحكية اليوم ، تستعمل جميعها البناء مع

u

إلى جانب اقتراس الكلمات الصرفية غير القابلة للفصل ،
المثبتة اليوم في منظومات الاستقبال ، هناك عدة إقتراضات من
هذه الموع لا تزال غير مثبتة في مستوى المنظومات وتظل مجرد
وقائع خطابية . وهكذا ، في ملفوظ مثل . Aw bi yahr manad- ya ،
تقترض الكنادا من الأورديو المقطع -ya ، الذي يدل على الماضي
وكذلك الحال ، في : hwa siham-na bulanoko panas . تقترض
الأورديو من الماراثي الدال -na الإضافي . لكن هذه ما هي إلا وقائع
خطابية ، وحتى وإن كانت هذه الإقتراضات لا تختلف نوعياً عن تلك
المثبتة سابقاً في منظومات الاستقبال ، فإن المستمعين يعتبرونها
بمثابة أغلاط ، وتكون موضوعاً للهز والمسخرة ولا تُكرّر أبداً من
جانب المستمعين بشكل طوعي (Gumperz et Wilson, Convergence
p.161- 162) . إذن ، يلعب هنا عمل الوقائع غير اللغوية ، لصالح
الحفاظ على المسافة بين اللغات ، وعندما يفقد الضغط الاجتماعي
عاملاً يؤثر التكرار بين المنظومات الحاضرة.

IV / ١٤ - الوظيفة الاجتماعية للكلمات الصرفية

مع ذلك لا يزال صحيحاً القول إن عدداً محدوداً من الكلمات
الصرفية ، حتى وإن كان التقارب اللغوي لا يزال يعمل على خفضه ،
يمكنه أحياناً أن يكفي لتكون النواة التي ينطلق منها المتكلمون في
إدراكهم اللغات كلغات متباينة . وهذه الكلمات ، فضلاً عن وظائفها
اللغوية الخاصة تدخل كل من المنظومات القائمة ، ترى نفسها
عندئذٍ مقروصاً عليها وظيفة محض اجتماعية ، هي وظيفة تسجيل

الفصل الذي يريده المتكلمون ، بين لغتين أو أكثر . وفي بعض الحالات ، لا يبقى سوى هذه الكلمات لمواجهة تبدل اللغات ذاته (Gumperz et Wilson, Convergence, p 162) . وعندما تستعيد المعايير الاجتماعية - كواجب الحفاظ على هوية إثنية في كويوار - من الرفاتح اللغوية ، يمكنها الإكتفاء بمجموع مخفوض من الفوارق القواعدية والصوتية أيضاً بلا شك ، ويبدو أن هذا المجموع سيملكه أن يكون مخفوضاً بقدر ما تكون المستلزمات الاجتماعية زجرية . وإذا لا يمكن الرد على مسألة : لغة واحدة أم لغتان ؟ بهواب لغوي محض . ويمكن فقط لاعتبار التفاعل بين العوامل البنيوية وغير البنيوية ، أن يقر ويحكم هذا الأمر.

١٥/IV - العوامل البنائية وغير البنائية

حين فحص جاكسون مقومات الوضع اللساني/ الاجتماعي في منطقة فريبس ، إنما بين هذا التفاعل بين العوامل البنائية وغير اللغوية في إقامة المسافات بين اللغات (Jackson, Colombian Vaupes, P. 59-60) وعندما تعبر جماعات تفاعلاً اجتماعياً كثيفاً ، تنزع الفوارق التي تفصل بينها ، إلى التقلب والنمذج . ويصل الأمر بالجماعات إلى أن تتشابه وتتماثل لدرجة أنها لا تعود تختلف إلا ببعض العلامات (Diachronique) البالغة الرضوح ومع انخفاض الجردة الإجمالية للفوارق الاجتماعية/ الثقافية ، لا تكسب هذه العلامات إلا مزيداً من الأهمية ، فتغدو رموز هوية يستعملها الأفراد لكي يميزوا هم أنفسهم ، ويمرتبوا الآخرين.

وهذه ليست فقط السمات المساهمة في تمييز الرموز من بعضها البعض ، الرموز التي ترتقي عندئذ أهمية خاصة ، بل هناك أيضاً البعد الذي تجري فيه هذه السمات . في فريبس ، هذا البعد

هو ميدانُ اللغة ، والسّمات الـرمزيّة هي المقوّمات اللغويّة التي تجعل ، في نظر الهنود ، لغات المنطقة غير قابلة للتفاضل (Intelligible) لو التفاهم . وإن ما تعلمه عن موقف الهنود اللغوي يبدو مؤكداً لهذه النتائج : فالهنود يعتبرون أنّهم بحاجة إلى سنتين ، على الأقل ، لكي يتعلموا لغةً جديدة بطريقة مقبولة ، فهم لا يتكلمون لغة طالما أنّهم لا يجيدونها حقّ الإجابة . وعندما تمنح فرصة وضع مناسب ، يجرون تجارب للتّكم بلغة في طور الاكتساب ، ولكنهم لا يواصلونها إذا لم تكن النتائج مقبولة وكافية في نظرهم . الخ ، فعندما يتكلم هنديّ لغتين متقاربتين بشكل وثيق جداً - التيوكا Tupyka واليوروقي Yuruki ، مثلاً - إنّما يبقونهما منفصلتين بكل اعتناء ووعي . وكان سورنسن (Amazon, P.82 et 89) قد استنتج : لقد خطر في بالي أنّ مؤسسة الزواج الخارجي كان يمكنها ممارسة ضغطٍ على المتكلمين على فصل لغات جديدة القرابة ، وذلك ، ولو بكيفية مصطنعة ؛ غير أنّي لم أتمكن ، حتى الوقت الحاضر ، من استنتاج ابتكارات لغوية تسير في هذا الاتجاه .

إن الإرادة التي تنزع لدى المتكلمين إلى الإبقاء على مسافات بين اللغات ، إنّما تعود بكل وضوح إلى مجال الوقائع غير اللغويّة . هذه الإرادة تواصل ، في كوهوار ، التلاعب على المقوّمات اللغوية المعض ، بكبحها تقارب المنظومات . لما في شوبيس ، فهذه الإرادة - وإن كان من غير المثبوت أنّها تعمل على تباعد المقوّمات اللغوية - هي ذات فعالية كبيرة ، وتسهم على هذا النحو في الاستقرار العام للوضع اللغوي التعددي ذاته . بيد أنّ هذه الإرادة لا يمكنها أن تكون العامل غير البنوي الوحيد ، القادر على دخول اللعبة ، وغالباً ما تكون هي ذاتها مرتبطة وظيفياً بعدّة مقوّمات غير لغوية أخرى . وعليه ، فإن تقارب المنظومات وحتى تبدلات اللغات في شوبيس قد يكون من الصعب إجتناؤها ، وقد يتهازل الاستقرار في

مواجهة للمستجدات الاجتماعية / الاقتصادية القابلة لأن تؤدي إلى التفكير القَبلي للمجتمع الهندي . وقد سبق لسورنسن أن لاحظ في أطراف منطقة فوهيس . أن الكابوكلو (Caboclos) أي الهنود المتخلفين عن قبائلهم والفلاسّيين . هم عادةً نوولغة واحدة .

التعددية اللغوية والمجتمعات المركبة

IV/١٦ - الدولة واستقرار تعددية لغوية

لا يرقى أي شك إلى كثافة المجتمع الذي يندرج في نطاقه متحد كوهوار (انظر IV/١٢ ، و IV/١٢) ، حتى وإن كانت تختلف في عدة نقاط عن الكثافة المعروفة . بعامة ، إلى مجتمعات كذلك التي يقال إنها غربية ، ولكن لا يجوز التسرع في الاستنتاج من هذا المثل أن جميع الأوضاع اللغوية التعددية المرتبطة بمجتمعات مركبة ، تنزع إلى الاستقرار ، ولا أن فعاليتها تخضع للكيفيات ذاتها التي تخضع لها في كوهوار .

إن استقرار وضع لغوي تعدي في مجتمع مركب يتوقف ، أيضاً ، على المنظومات اللغوية القائمة وعلى عدة عوامل غير بنائية ، في وقت واحد . ومن بين هذه الأخيرة ، لا يمكن التغلّب من اعتبار خيارات الدولة تجاه التعددية اللغوية ، والوسائل الاقتصادية التي تملكها لتجسيد خياراتها . فعندما تضع دولة ما التمدد اللغوي في دستورها ، فإن ذلك يمكنه الإسهام في استقرار الوضع اللغوي التعدي ، ولكنه لا يسهم فيه بالضرورة . إن الدولة الهندية تعترف بالتعددية اللغوية للأراضي التي تسيطر عليها ، لكنها لا تستطيع أن تتحمل المفاقم الضرورية لتعميم تعليم اللغات المعصية ، ولتطبيق فعال للغات غالباً ما تكون معقدة من قبل ، ويتزايد التباعد بين

الألوان المقوتة والألوان المحكية ، ويزداد التقارب بين الألوان المحكية ذاتها . ويقال الشيء ذاته عن تثبيت وضع لغوي تعدي يمكنه أيضاً ارتداء طابع مسار اقتصادي تحتد الدولة كلفته بكل سهولة ، دون أن تتمكن دائماً من دفعها ، عندما يظل الوضع اللغوي المتعدد وضعاً واقعياً أكثر وله وضعاً تدرجه الدولة في مستوى المؤسسات ، يكون لملحه كثير من فرص عدم الاستقرار ، حتى وإن كان مطابقاً الاقتصادي ليس بالضبط ، نطالغ ميؤوس منه . وإيه سيمقد توازنه بشكل مؤكد ، على قدر ما تختار الدولة لغة رسمية لقرمية وتقرضها على اللغات القائمة .

IV/ ١٧ - المركزية واللهجات المحلية :

يبدو بوجه عام أن سلطة الدولة كلما طوّرت نزعاتها المركزية تناقص تكييفها مع وضع لغوي تعدي في المجتمع الذي تسوده . إن كثيراً من الفوارق القائمة بين الأوضاع اللغوية الثنائية التي أمكن وجودها في المجتمعات الإيطالية ، الألمانية ، الإسبانية والفرنسية ، هي في الواقع فوارق يمكن عروها لشقى أنواع المركزية التي تميزتها هذه المجتمعات ، والوحدة القومية الحديثة نسبياً في إيطاليا وألمانيا ، تركت فيهما مكانة للهجات المحلية ، لم تكن تمنحها لها المركزيات الأقدم في إسبانيا وفرنسا ، إن الوجود الذي عرفته اللهجات المحلية في إسبانيا حتى آخر المرحلة الفرانكوية نفسها ، ليس هو أيضاً كالبقاء الصعب لبعض « العاميات » في فرنسا .

دون الشروع بدراسة مقارنة للمركزيات الفرنسية والإسبانية ، سيُشدد مع ذلك على أن مركزية جمهورية جاءت في فرنسا لتحل محل المركزية الملكية ، وظهرت في كثير من الأمور ، بأنها الفعل من سابقتها ، فبينما كانت المركزية ، منذ بداية الجمهورية الفرنسية الأولى ، تخلخل بلا توقف كل الأوضاع والمواقف اللغوية الثنائية في

البلاد لصالح اللغة المشتركة ، ظهر تاريخ الكاتالانية وروعتها
 الراهن في اسبانيا ، مثلاً ، أنهما نسبياً أقل تشجيعاً لاستمرار هذه
 الرواية الأيبيرية . وفي عصر للجمهورية الإسبانية الثانية ، شهد
 الوضع اللغوي المزيج في كاتالونيا محاولة استقرار وتثبيت جدية .
 واليوم تحاول الجفولية ، التي اقامتها مرحلة ما بعد الفرانكوية ، أن
 تشجع هي أيضاً هذا التثبيت . غير أن هذا لا يعني أن الفعلية
 الحاضرة سيكون من السهل قلبها : ٤٤٪ من سكان كاتالونيا ولدوا
 في أماكن أخرى من اسبانيا ولا يتكلمون الكاتالانية : ٧٠٪ من
 المدرسين العاملين في المناطق لا يعرفون ، هم أيضاً ، الكاتالانية ،
 وهذا الأمر أدل وذو نتائج أشد . فهناك نقر من الصحفيين اضطر ،
 وهو يستعد لإصدار جريدة يومية ثانية بالكاتالانية ، إلى العودة
 للمدرسة لتعلم كتابة اللغة التي أخذ على عاتقه استعمالها بعد بضعة
 أشهر . وإذا كان كثير من الكاتالانيين لا يزالون يتكلمون لغتهم
 الكاتالانية الخاصة بهم ، فإنهم لا يكتبونها في الغالب إلا قليلاً^(٩) .
 عندما لا يتجلى وضع لغوي تعدي إلا قليلاً ، لوحظ لا يظهر
 في شيء على مستويات الدولة والمؤسسات ، وعندما تكون
 السلطة ، المميزة بنزعات قديمة جداً نحو مركزية عميقة ، قد عرفت
 كيف تنزّه بالوسائل الاقتصادية لأجل تطبيع لغوي فاضل ، فإن هذا
 كله لا يعني أن الطبقات والجماعات الاجتماعية التي ترتبط الدولة
 بها ، قادرة عندئذ على فرض لغتها على الجميع تقريباً . ويحصل
 تداخل شبه كامل في الوضع اللغوي التعدي ، تداخل سيفضي ،
 على مدى بعيد أو قريب نسبياً ، إلى تداخل في اللغات ، وإلى أحدية
 لغوية جديدة . إن انقلاب ميزان القوى بين الطبقات والجماعات
 الاجتماعية ، كليل وحده بأن يغير ، في هذه الحالة ، ما أسماء

(٩) Charles Vanhecke, Le Monde, 25 Octobre 1978.

فاينريخ القنر الخارجي للغات الخاسرة (Unilinguisme, P 647-683) .
كذلك لابد ألا يأتي هذا الانقلاب متفخراً جداً . خطية أن يظل هو
ذاته عاجزاً تقريباً في مواجهة تبدل اللغات . أن حالات هذه
الأوضاع اللغوية التعددية البالغة التدخل ليست نادرة في
المجتمعات الأوروبية المركبة . إن وضع الايرلندية كلفة خاسرة أمام
الانكليزية هو وضع نموذجي ، ويمكنه أن يظهر غير قابل للرجوع
عنه ، على الرغم من تخطيط منظم وحائز على وسائل اقتصادية
حقيقية

الموقف الفرنسي

١٨/IV - اللهجات المحلية . المدينة والزيف

كثير من اللهجات المحلية في الموقف الفرنسي . تجد نفسها
هي أيضاً في وضع اللغات الخاسرة . فالفرنسية اليوم هي اللغة
اليومية لثلاثة أرباع السكان ، ودرجة التنشئة المدرسية العالية
تلزع بثبات إلى زيادة هذه النسبة ، كما كتب برنار هوتيه منذ أكثر
من عشر سنوات (B. Pottier, France, P 1144-1161) ودون الوقوف
هنا عند بعض الملايين من الشغيلة المهاجرين الذين لهم مشاكل
لغوية خاصة ، وحتى إذا لم يبق سوى ٢٠٪ من مزيجي اللغة لدى
السكان المولودين والعائشين في فرنسا ، فقد يكون من المفيد
التساؤل من هم هؤلاء المزيجو اللغة ، أين ، متى ومع من
يتكلمون لهجاتهم المحلية ، وما هي مواقفهم اللغوية .

موجه عام جداً ، هناك تواضع على الاعتراف بأن متكلمي
اللهجات المحلية في فرنسا هم أعضاء أو متحدثون من جماعات
ريفية . بينما سكان المدن يتكلمون اللون المتداول أو لهجة إقليمية

من لهجات الفرنسية ، هكذا هو الحال في بوسيت ، لوريان أو كامبر
في بريتانيا ؛ في مراكز بلاد الباسك السيباحية ، في دانكرق ، برج .
كامل أو هاز بروك في الشمال ، الخ . وإذا كان تعارض المدينة /
الريف يحافظ على أهميته ، فإن ذلك ليس من دون بعض الخصائص
واللطائف . ومثاله في الألزاس حيث المراكز الحضرية تنتمي دوماً
إلى المجال الجرمانى ، حتى وإن كانت ستراسبورغ . ميلوز أو
كولمار تضم بضعة آلاف نسمة لا يتكلمون إلا الفرنسية (Pottier
France, P. 1158-1160).

في المقابل ، إن أبناء فلاحي صيفين القادمين إلى ليون بحثاً
عن عمل ، والفلامانديون المقيمون في المدن الصناعية ذوات اللغة
الفرنسية مثل ليل أو روبيه ، أو العائلات الكورسيكية ، البرتونية أو
الأورنية ، المقيمة في باريس ... تمكنوا من تكوين أحزمة ،
جماعات عائلية من متكلمي اللهجات المحلية في قلب المدن الكبرى
ذاتها . وما لا شك فيه أن هؤلاء المتكلمين لا يستطيعون في
الحقيقة استعمال لهجاتهم المحلية مع ذوي اللغة الوحيدة المحيطين
بهم ، وأنهم لا تُسنع لهم أبداً فرصة التبادل اليومي بهذه اللهجات
إلا خارج نواحي العمل ، الخ . ولتكوين وقت حوارهم العائلي بشكل
صحيح ، لابد من الإضافة أن هؤلاء المتكلمين غالباً ما تركوا
أسلافهم المباشرين في بلادهم ، وأنهم هم أنفسهم لا يهرون من
الضرورة دائماً أن يتكلموا بلغتهم المباشرين وأن يتعلموا بلهجتهم
المحلية ، الأمر الذي سيجعلهم يزدنون من أعداد الفرنسيين ذوي
اللغة الوحيدة .

غير أن قسماً من هؤلاء الذين يلتزمون اليوم بالمطالبة
البرتونية أو الأوكسيتانية هم من الحضريين الذين لا يبدو عليهم
أنهم يعتبرون واقع جلاء اللهجات المحلية عن الحواضر ، أمراً لا
رجوع عنه . وغالباً ما يفتر الاكبر عمراً بينهم ، أن يتعلموا اللهجة

المحلية التي تعني قروهم أن يطموهم إياها في طفولتهم ، في الإطار العائلي . ففي نظرهم ، مصادر التعليم متنوعة جداً ، وتنطلق من قواميس القرن الماضي إلى الطرق السمعية - البصرية الأكثر حداثة .

IV/ ١٩ - نحو تبديل اللغات

بيد أن كل ما يتجه نحو الحد من تعارض المدينة / الريف ، وكل ما يقرب مستوى وطريقة حياة سكان ريفيين من المتكلمين لهجة محلية ، من مستوى وطريقة حياة الحضرين ، لا يبقى ، ظاهرياً ، دون أثر في استقرار الأوضاع المطلوبة مع اللهجات المحلية . سنة ١٩٦٢ ، أجري استطلاع لساني / اجتماعي في ست بلدات من منطقة غاسكون في جبال البيرينيه العليا ، تناول أطفالاً في سن الدراسة الابتدائية ، في إحدى هذه البلدات ، الواقعة بعيداً عن طرق المرور والسياحة الكبرى ، الضالعة من الفنادق والمصحات والمصانع ، والبالغ عدد سكانها ٢٥٩ نسمة ، كان ٨٢٪ من الأطفال الخاضعين للاستطلاع ، يتكلمون في عائلاتهم اللون المحلي من اللهجة الغاسكونية . وفي بلدة أخرى من هذه البلدات ، تقع في وادي سهل البلوغ ، وكان معظم سكانها يعملون في مصنع كيميائي قريب ، هناك ٢٠٪ فقط من تلاميذ المدارس كانوا لا يزالون يتكلمون الغاسكونية في الوسط العائلي . وفي معظم الأحيان كلن كثير من التلاميذ الفتيان ، المستجوبين ، يترددون في تسمية ما كانوا يتكلمونه في بيوتهم ، « فرنسية » أو « لهجة علمية » (Tabouret-Kot, *Observations*, p 2-13) . ومع ازدياد وتيرة الانتقالات من لغة إلى أخرى ، وازدياد كمية التفاعلات والتدخلات ، كانت المسافة بين اللغات تفقد من واقعها وحقيقتها في نظر هؤلاء المتكلمين الشبان . كما أن استطلاعاً أجري في (سبل - سير - ديرويل) سنة

١٩٧٥ (Dany Hadjadj: Parlers en contact) ، يسهم في تكوين فكرة صحيحة عما يمكن ان يكون حال لهجة محلية اليوم في فرنسا . تقع (سل - سير - دجول) في دائرة تيبير ، في المجال الذي تمضي فيه الألوان الأوكسيديتانية الشمالية جداً ، لملقاة الفرانكو - بروفسالية شرقاً والأوان الاويل (OR) شمالاً : وهي بلدة يزيد عدد سكانها عن الالفين . من اصل ٩٦٥ متكلماً خضعوا للاستطلاع ، اعلن ٧٨٧ قنهم يفهمون اللهجة المحلية ، وأعلن ٤٦٩ أنهم يستعملونها بفعالية . هؤلاء المتكلمون هم مزوجو اللغة ، مبكرون - اكتسبوا اللهجة المحلية والفرنسية قبل دخولهم في المنظومة المدرسية . من اصل هؤلاء المزوجي اللغة الـ ٤٦٩ ، هناك ٤٥٨ يستعملون اللهجة المحلية في العائلة : ٤٠٢ يتكلمونها يومياً ، والباقيون بشكل دوري . لم يبق سوى ٤٢٩ ممن يستعملون يومياً اللهجة المحلية خارج الأسرة . غالباً ما جرى تصديد اللهجات المحلية كمنظومات لغوية مرتبطة بوحدة جغرافية ضيقة نسبياً : منطقة ، واد ، قرية ، الخ . وكان التفاعل الاجتماعي يسمح هناك باتصالات يومية لومثولة على الأقل ، لضمان وحدة المنظومة في مواجهة خلاف يظهر غالباً من واد إلى واد ومن قرية إلى قرية . وإذا كان المزوجو اللغة قد اعتادوا على الانتقال من اللهجة المحلية إلى الفرنسية حين يخرجون من بيوتهم ، اي حين ينتقلون من المجال الخاص إلى المجال العام ، فإن العلاقة بين اللهجة المحلية والوحدة الجغرافية ستشهد انحصاراً في فعاليتها بوصفها سمة مُحَدَّدة ، وعما قريب لن يبقى للهجة المحلية أي تصنع وظيفي لخر سوى التصنع اللغوي الضميم . الى هذا الاستنتاج بالذات توصلت دافيا حجاج عندما شذبت على وجود « فصل وظيفي واضع نسبياً - في المتحدثات الموصوفة - بين استعمال الفرنسية واستعمال العامية ... التي هي لغة الحياة الجمعية بامتياز ، حياة المتحد المحلي » (Hadjadj, Parlers en con-

(fact, p. 387) ولكن اللهجة المحلية لا تزال تضر ميدانياً ويشكل له دلالة ، حتى في إطار الجماعة العائلية . فإذا كان ٤٢٩ متكلماً يستعملونها مع ذويهم في الأسرة . فلم يعد هناك سوى ١٤٤ يستخدمونها مع أطفالهم . « ما من متكلم ولد بعد سنة ١٩٤٠ يتكلم العامية مع أولاده » (Ibid., p. 442) . عندما تكون منظومة من منظومات الاتصال والاحتكاك مرتبطة ارتباطاً خالصاً بالجماعة الأكبر سناً في المجتمع ، يكون ثمة مميز تعاقبي لتبديل اللغات في طريق التطور ، كما كتب فاينريخ (Umbrecht, p. 681) . ومن جهتها ، تتكلم دافنيا حجاج على « المحكي المنتظم » في صدد « مل » « ديول » ، ولم يتردد عارفينه إلا قليلاً في جعله توجه اللهجات العامية نحو الزوال ، سمة من السمات المحددة لها ، فالعامية لا تستمر إلا بقدر ما يكون هناك أناس يجدون في بعض الظروف أن من الأسهل عليهم استعمالها بدلاً من اللغة القومية ؛ كما أن اللهجات العامية هي بتعريفها عرضة للزوال ، كما يقال (Martinet, Eléments, p. 152) .

تنشئة مدرسية متطورة ، تفاوتت مستوى وطريقة المعيش بين الحضرين والريفيين ، انتقال الريفيين إلى المراكز الحضرية ، إنما تعتبر كلها مسارات سلمية عموماً ، أدت إلى إثارة هذا التوجه نحو زول بعض اللهجات المحلية في الموقف الفرنسي . ولكن وكان هناك مسارات أخرى أقل سلباً . فقد كانت الحرب العالمية الأولى حوْماً على اللهجات المحلية في هذه مناطق ، ومن المحتمل أن تكون الحرب الثانية سبباً لاستمرار وإبقاء قسم كبير من اللهجات المحلية بعد الحرب الأولى (Martinet, langue et fonction p. 138-139) . ويُقدَّر أن الحياة العائلية كانت في زمن السلم كما في زمن الحرب ، فرصة لتقارب أناس قادمين من أفاق اجتماعية / جغرافية ولغوية بالغة التنوع ، وبالتالي كانت فرصة أمام متكلمي اللهجات المحلية لكي

يستعملوا بشكل مألوف اللهجة المتداولة أو اللهجة الاقليمية من الفرنسية . ويضاف إلى ذلك ، لئْ تلك الفرصة كانت في وقت واحد عامل تماسك قومي وأقوي . ومن الآن حتى يجري تحليل الزوال المادي لمتعدي اللغات بسبب من وقائع الحرب كعامل وحدة لسانية ، لا تزال المسألة بعيدة : فهذا الأمر كان يستلزم ، بالتالي ، واقعية في تحليل الوقائع والطواهر ، ووضوحاً كان مرفوضاً ومُعتقداً بوجه عام . غير أن مفردة قتل العُشْر (Décimation) استعملت في بعض الأحيان معناها الأول ، وإن اللسكرة - اللانخدوكية ، مثلاً - البالغ عدد سكانها ١٥٠ نسمة ، والتي استطاعت أن تسجل ١٥ إسماعاً على نصب تذكار الموتى في ساحتها ، ليست بلا شك دسكرة لا يمكن إيجادها . إذن ، من الوجهة الاجتماعية / اللغوية ، الحياة العسكرية والموت في ميدان القتال هما في التحليل الأخير مما يترتب تصنيفه في عداد العوامل المحتملة لتبدلات اللغات .

IV / ٢٠ - استمرار اللهجات المحلية

لقد ساهم ولا يزال يساهم كثير من العوامل في تفكيك استقرار الموائف والأوضاع اللغوية الثنائية في فرنسا ، لدرجة أن المرء قد يكون من حقّه أن يندعش من استمرار بعض هذه الأوضاع ، وإن يتساءل كيف استطاع تفاعل العوامل البنائية وغير البنائية أن يلعب أحياناً لصالح استمرار بعض اللهجات المحلية .

إن الألوان التي تصنع اليوم ما يسمى اللغة المشتركة هي ، على غرار د اللون المحكي أول C١ ، (أي اللهجات المحلية في الوسط ، والغرب والشرق ، وفي النورماندي والبيكاردي) ، الممتلئة الحالية اللغة القلاية / الرومانية في الشمال ، كما أن التباينات البنوية محصورة نسبياً بين هذه الألوان وتلك من اللهجات المحلية . وهي أشد وضوحاً وعدداً بين اللغة المشتركة واللهجات الحالية

الممثلة للغالية / الرومانية في الجنوب ، ونعني اللهجات الفرثكية / البروليسية ، الفاسكونية والاوكتيستانية ، وهي تباينات تظهر عندما تتعارض الفرنسية مع الرومانية الأيبيرية في كانتالونيا ، ومع الألوان الكورسيكية (للقريبة من التوسكانية في شمال الجزيرة ، ومن السردينية في جنوبها) . وفوق ذلك ، عندما يتم الاتصال مع المظومات غير الرومانية (الجرمانية مثل الفلامندية والالزاسية ، والسلتية / البريتونية في برمانيا ، غير الهندو / أوروبية في بلاد الباسك) .

في ما يطلق عليه هوثيه تصعية الثنائية اللغوية الريشية في فرنسا (France, p 1150- 1151) ، يميز بين ثنائية لغوية فردية ، متفرقة (Sporadique) ، وثنائية لغوية مستعملة ، وثنائية لغوية مكثفة . وهو لا يعطي المعايير التي تؤسس هذا التمييز . ومن الواضح أن المقصود ، حول بعض النقاط ، هو حيوية الثنائية اللغوية أكثر من الانتماء إلى المجموع التي حثها علماء اللسانيات . وعلى الخريطة ، يمكن أن نلف عند تعارض منطقة مين (Maine) الأحادية اللغة مع شامبانيا ، ومع منطقة ثنائية لغوية متفرقة من مناطق الشمال الغالية / الرومانية ، ومع منطقة ثنائية لغوية مستعملة في مناطق الجنوب ، وثنائية لغوية مكثفة هناك حيث يجري الاتصال مع ألوان المحكي غير الغالية / الرومانية . وقد يستهويننا الاستنتاج من ذلك كله أن الترجمة نحو زوال مُثَبِّل في لهجة محلية ، هو في المقابل ترجمة متناسبة مع مجهل الفوارق البنيوية التي نضمها في مواجهة اللغة المشتركة .

على أن هذه الاستنتاجات تستوجب التدقيق الجدي فحتى وإن توقفنا عند معطيات الخريطة القليلة الإثارة للانتباه ، فإننا نكتشف في الشمال ثنائية لغوية دارجة في الكونتنتان . في حين أن الفاسكونية ترتبط في كل مكان لخر بثنائية لغوية مستعملة لا أكثر ،

وتغدو مكثفة لغوية مكثفة في بعض لويحة الهيربته الوسطى
يتعين الاستنتاج من ذلك أن بعض المعطيات الجغرافية تلعب بكل
وضوح لصالح استقرار الأوضاع اللغوية الثنائية . إن صعوبة
الوصول النسبية إلى لويحة الهيربته العالية ، وجزيرة كورسيكا ،
وشبه جزيرة بريتانيا أو الكونتنتان ، وابتعادها عن منطقة الأحدية
اللغوية المركزية ، تعني باريس والإيل دي فرانس ، إن هذه كلها
هواجز جغرافية ، فعاليتها واضحة بمقدار فعالية الحواجز اللغوية
المتكونة بفعل التباينات البنيوية .

IV/ ٢١ - مواقف لغوية

من بين المفاهيم غير البنائية ، استطاع مواقف المتكلمين
ولا يزال يستطيع ، هو أيضاً ، أن يكون حاجزاً دفاعياً فعالاً من
هواجز اللهجات المحلية . إن لهجة محلية يمكن إدراكها كإمكانية
اتصال مع الناس الذين لا يمكن الوصول إليهم بواسطة الفرنسية .
وهكذا ، تسمح الأكراسية ، الفلامندية ، الكورسيكية ، الباسكية أو
الكاتالانية باتصالات مع متكلمين من الناطقة الألمانية ، البلجيكية ،
الهولندية ، الإيطالية أو الإسبانية . إن في هذا خطأ إضافياً للإبقاء
على اللهجة المحلية ، وهذه تغدو بذلك أشد مقاومة لضغط الفرنسية
التفكيكية (Martinet, *Langue et fonction*, p. 143-145) . وعندما تقوم
اتصالات بين جماعات اجتماعية تفصلها حدود سياسية غير متطابقة
مع حدود لغوية حقيقية ، فإن الاتصالات اللغوية ، الاجتماعية /
الثقافية ، الاقتصادية ، وحتى السياسية ، غالباً ما تسير جدياً إلى
جنب . وإن ما يبقى من وحدة اللغة الباسكية ، من طرفي جبال
الهيربته مثلاً ، لا يمكنه إلا أن يخدم المناضلين بالسلاح في منظمة
ETA ، ويخدم معارضتهم المركزية المعريدية . إن محكي فلامندياً
في شمال فرنسا يظل عامية طالما أنه لا يدوم إلا بفعل جمود أولئك

الذين يتكلمونه ، لكنه يعدوا لونا من اللغة الهولندية عند أولئك الذين يريدونه ، ويوعي ، بهذه الصفة : وإن هذا التباين في وجهة النظر سيؤدي سريعاً إلى غوارق كبيرة في السلوك اللغوي للأفراد الذين سيتجنبون بعض الكلمات وبعض الأشكال ، ويؤثرون عليها كلمات وأشكالاً أخرى (Marinot, *Langue et fonction*, p. 153) . وقد يكون من الصعب التشديد بوضوح أكبر على الفعلية التي يمكن أن يملكها أحياناً تفاعل العوامل البنائية وغير البنائية في الحفاظ على المواقف اللغوية الثنائية . فهناك وقائع بنهوية (تباين مخفوض بين بُنى لهجة محلية من الميدان الفرنسي وبُنَى منظومة خارج هذا الميدان) تلعب دورها في المستوى الاجتماعي : اتصالات بين جماعات من جنسيات متباينة ، استيعاء المتكلمين الفرنسيين لهجة محلية لانتمائهم للموضوعي إلى متحدٍ خارج الإطار القومي ، الخ . وفي المقابل تؤثر هذه المقومات الاجتماعية في المقومات اللغوية : ضرورة الحد من المسافة بين اللغات : فلاماندية / منظومة هولندية ، وبالتالي الحفاظ على المسافة أو تشديدها : فلاماندية / فرنسية ، عندها ترتبط النتائج بالتقارب وبالتباين اللغويين .

إن وجود منظومات ، على حدود الميدان الفرنسي ، قريبة بنهويّاً من لهجات هذا الميدان المحلية ، لم يعد يظهر اليوم ضرورياً في المطلق لكي تظهر ، لدى متكلمي هذه اللهجات المحلية ، إرادة الحفاظ على المسافة بين اللغات أو إرادة تشديدها . لهجة محلية / فرنسية . من الصعب إنكار وجود هذه الإرادة لدى بعض متكلمي لهجات الأوكسيتانية ، الفاسكونية أو البريتونية . وفي المستوى السياسي ، كانت هذه الإرادة قد تجلّت في المطالبة بتعليم اللهجات المحلية رسمياً . فجرى التصويت على قانون في كانون الثاني / يناير ١٩٥١ ، لا يعكس ، في منظوره وفي منطوقه ، إلا قليلاً وبشكل رديء المتطلبات التي أدّت إلى صدوره . يمكن تخصيص ساعة

اسبوعياً ، في التعليم الابتدائي ، لاكتساب مفاهيم أولية من اللوان
المحكى المحلية - ويؤذن للمعلمين بالاستعانة بالمصطلح المحلي
كلما استطاعوا الإفادة منه في تعليمهم ، لا سيما في دراسة اللغة
الفرنسية. ويقدر هذا التعليم للوان المحكى المحلية اختيارياً في
مستوى الدراسات الثانوية ، ولا يوجد أي تأهيل خاص لأولئك الذين
ياملون الإسهام في هذا التعليم.

IV/ ٢٢ - الدينامية المعاصرة

اللهجات المحلية في فرنسا

إذا كانت مطالب متكلمي بعض اللهجات المحلية قد استطاعت
أن تطرح بعض المسائل على المركزية الفرنسية ، فإن هذا الأمر قد
حصل أولاً ، هناك حيث ظل قائماً الإحساس بمحكي مرتبط بمجتمع
معين : هناك مثلاً حيث كان يوجد مصطلح محلي للدلالة على
المحكى : الأوكسيستاني ، الفاسكوني ، الخ . كان يمكن أن نتوقع من
اللوان المحكى المسماة (OO) ، الأقرب بنهوضاً إلى اللوان اللغة
المشتركة ، وغير المستفيدة شعبة الأوكسيتانية والبريتونية أو
الفاسكانية من دعم مصطلحات قريبة وراء الحدود القومية ،
والواقعة على أطراف المنطقة اللغوية الاحدية المركزية . كان يمكن
أن نتوقع من هذه اللوان المحكية أن تظهر حيوية ضعيفة . وحين
نضيف إلى ذلك بعض المقومات التاريخية ، نجتمع الشروط لكي لا
تعود لدى المتكلمين إرادة قوية للحفاظ على المسافات بين اللغة
الفرنسية ولهجاتهم المحلية . ولا أي ظهور لهذه الإرادة في
المستوى الثقافي والسياسي .

في المناسبة ، كان الأمر أقل تطوراً بسهولة الانتقال من اللهجة
المحلية إلى المشتركة ، والعكس بالعكس ، ويتعاضد البنس اللغوية لو

تساعدنا ، من تعلقه بحضور أو غياب رغبة تأكيد الذات . أن المحكيّات الفرنسية/ البيروفتسية المتميزة تملأ ، من وجهة الصوّات والقواعد والمعجّية ، من الفرنسية المحلية ، لم تسهم قط في تجديد الاهتمام باللهجات المحلية . وقد تلاشت بفعل الانطفاء ، والانقطاع في التنقل ، وليس البتة ، كما هو حال كثير من اللهجات المحلية الآنئى شمالاً . بفعل الاتصهار الجومري (Coalescence) مع اللهجات الإقليمية على شكل من التواصل المطبوع (انظر لاحقاً : 29٧٧ إلى 31٨٧) . وعلى الرغم من الوضع الميسرالي ، يُلحظ وضع مماثل في بروفتسا المنخفضة التي لا تصل إلّا على كامل التجديد الأوكسيتاني.

من المحتمل جداً أن تكون الفوارق البنيوية المؤسسة للمساواة بين لهجة محلية سالوارديّة واللهجة الإقليمية من الفرنسية التي تشاركها مدارها الجغرافي ، موسومةً على الأقل ، بمقدار الفوارق الصوّاتيّة والقواعديّة التي تقيم التمايز ، مثلاً ، بين لغتين هنديتين في فوييس وبينما يعني المحكي السالواردي (نسبة إلى سالوا) أمام الفرنسية المحلية ، يُصاَفُ في فوييس وبدقة متناهية على التباينات البنيائية التي يمكنها أن تصنع من المنظومتين للفائتين ، لغتين كاملتين لهما مكانة متماثلة.

صحيح أن الحسيلة الإجمالية للفوارق الاجتماعية / الثقافية بين الفرنسيين ذوي اللغة الواحدة وذوي اللغتين ، الممارسين لهجاتٍ محلية ، قد انخفضت انخفاضاً كبيراً في مجرى التفاعل الاجتماعي المكثف والمطول الذي عاشوه . ومع ذلك يمكن القول ، دون الوقوع في اللسانة الاجتماعية / المُخيلة ، إذا كانت معايير اجتماعية جديدة في سالوا أو في بروفتسا تستلزم الحفاظ على هويّة الجماعات ، فإن في مستطاع سهولة اللهجات المحلية وقواعدها أن تكفلا ، بلا مصاعب كبرى ، وتليفتها الاجتماعية في

تسجيل المسافات بين الجماعات ، فضلاً عن وظائفها اللغوية
الخالصة . إن قدر لغة خاسرة غير مكتوب أبداً في بنيتها اللغوية
بالذات .

الثنائية اللغوية ، الازدواج اللغوي والتواصل الخطابي

IV/ ٢٣ - الازدواج اللغوي (Diglossa)

منذ أن قبلت اللهجات المحلية في مصاف المنظومات اللغوية
بصفة كاملة ومستقلة ، جرت عادة الكلام على لوضاح لغوية ، في
معرض الكلام على الاوضاح التي كانت اللهجات المحلية من
مكوناتها وفي عهد أحدث ، بدأ اعتبار هذه الاوضاح كأوضاح
ازدواج لغوي . وليس مصطلح ازدواج لغوي مصطلحاً بلا تاريخ .
في وقت أول ، ظل مجرد مرادف للثنائية اللغوية (Dubois, Diction-
naire, p. 155) . ثم ظهر مفهوم الثنائية الاجتماعية ، كان يقصد
بهذا الرقوب خطأ ضد بعض الأفكار المتداولة التي كانت تجعل من
الثنائية اللغوية ظاهرة لا يمكنها أن تتضمن سوى لغتين لهما مكانة
اجتماعية متماثلة ، وبالتفصيل ، متميزة ، أو أيضاً ظاهرة فردية
تنتمي جوهرياً ، ولهذا السبب ، إلى علم النفس واللسانة النفسية
الخ . في المقابل ، كانت الثنائية اللغوية تميزاً وضعاً تتراتب فيه
لغتان أو حالتان لغويتان ، وفقاً للفتات الاجتماعية (Tabouret - Keller,
Guide, p. 307) ، حيث كان استعمال إحدى اللغات المتنافسة يشير
في وقت واحد إلى تباين في المركز الاجتماعي بين المتكلمين الخ .
إن معظم تعريفات الازدواج اللغوي يسترجع تعريفات الثنائية اللغوية

الاجتماعية ، مع تدقيقها لو توضيح بعض نقاطها . إن مصطلح ازدواج لغوي يدل على توزيع الاستعمالات في كل من اللغات حسب الظروف والموضوعات الخاصة ، ويتوافق هذا التوزيع ، عموماً ، مع انتشار استعمال إحدى اللغات ، ومع فارق في الميزة (Tabouret Keller, Guide, p. 308) إن الازدواج اللغوي هو وضع ثنائية لغوية شاملة متحدداً بكامله . حيث يكون استعمال كل من اللغات مقيداً بهذا الطرف الخاص أو ذاك . استعمال رسمي للفرنسية في كبريات المدن الإفريقية ، مقابل الاستعمال الدارج والعائلي من جانب المتكلمين أنفسهم للفتهم الأم (Mounin, Dictionnaire, p. 108) ، إن الازدواج اللغوي وضع لغوي ثنائي تكون فيه إحدى اللغتين ذات مركز اجتماعي سياسي أدنى ، وإن كل الأوضاع اللغوية الثنائية التي تصادف في فرنسا هي ازدواجيات لغوية ، سواء في بلاد Oï ، في بلاد OC ، في بريتانبا ، الخ . (Dubois, Dictionnaire, p. 155)

في الواقع ، كان شارل فرغيسون قد أطلق منذ ١٩٥٩ مصطلح الازدواج اللغوي ، وحاول وصف اللفظ المقابل (Diglossia, Word, Vol. 15, No2, p. 325-340)

IV/٢٤ - لوفان في مقام اجتماعي مختلف

كتب فرغيسون ، في عدة متحدثات خطبية ، يجري استعمال لوفان أو أكثر من ألوان اللغة الواحدة ، من قبل متكلمين في ظروف مختلفة ، حيث يتعين على كل لون أن يلعب دوراً محققاً . فأنخذ هذه الألوان يكون الأول من حيث اكتسابه وتعلمه في الظروف الطبيعية لاكتساب لغة تسمى اللغة الأم ، ويكون مستعملاً في العائلة أو بين الأصدقاء . وهناك لون آخر يسمى اللون المتراتب لأنه ليس الأول ، وعليه أن يكتسب بالإضافة إلى اللون المحلي الأول ، حتى يستعمل

لاحقاً في المناسبات العامة أو مع متكلمي لهجة علمية أخرى
 للرجوع بشكل مناسب إلى هذا اللون أو ذلك ، يقترح فرغيسون أن
 يسمى اللون المتراتب باسم اللون H (High)، وأن يسمى L (Low)
 اللون المكتسب أولاً والمستعمل إقليمياً (Diglossa, p. 327).
 إن إحدى أهم مميزات الوضع الازدواجي اللغوي - كما يشدد
 فرغيسون - هي تخصص وظائف H و L - ففي مجموعة أوضاع تكون
 H وحدها مناسبة ، وفي مجموعة أخرى تكون L هي المناسبة ولا
 تشابه المجموعتان إلا قليلاً جداً ، ولا يمكن التقليل من الأهمية
 التي تستوجب استعمال اللون الصحيح في الوضع الذي يتطلبها ،
 حتى وإن اعتبر المتكلمون أن H أعلى من L في كثير من الجوانب ،
 وبالأخص عندما تكون H متعلقة بتراث أدبي قديم أو حتى حديث
 (Diglossa, p. 328 - 331). ويدخل في تعريف الأوضاع اللغوية
 الازدواجية ، حسب فرغيسون ، أن يكون للوسمين طرق وأوقات
 اكتساب متباينة ، وبالأخص أن يكون لهما وظائف ومراكز اجتماعية
 مختلفة.

IV/٢٥ - لوان في منظومة واحدة

في المقالة نفسها ، كان فرغيسون قد أوضح أنه لا ينوي
 تمحيص الأوضاع ذات النقاط المشتركة مع الأوضاع اللغوية
 الازدواجية ، بل ينوي تمحيص الأوضاع التي تكون فيها اللغتان
 القائمتان مختلفتين ، وكانت متقاربة نمطياً أم لم تكن . ويشدد
 المؤلف على واقع أن الألوان الواردة في الأمثلة التي تناولها
 (أوضاع العربية ، السويسرية ، اليونانية والهايتية) تنتمي إلى لغة
 واحدة واحدة ، حتى وإن كانت الفوارق مشيرة نوعاً . خصوصاً في
 مستوى (LH) القواعدي . حتى أنه لينهب إلى القول ، مع كل التحفظ

الضروري في الموضوع ، بإمكان اعتبار قواعد أي لون من اللون L
بوجه عام ، أبسط من قواعد اللون المقابل H (Diglossa p.325, 333,
334) .

أما بخصوص المعجمية ، فيشدد فرغيسون على أن كتلة
المصطلح مشتركة بين H و L حتى وإن كانت حقيقية للون الأشكال
وفوارق الاستعمال . غير أن كل تعميم بشأن العلاقات بين سموات
H و L يبدو صعباً ، في تفسير المؤلف ، نظراً لتنوع المحيطات .
ومهما يكن الأمر ، فمن الثابت بوجه عام ، وكلما تعلق الأمر
بتقرير ما إذا كان لونا هما لغات مختلفة أو ليس هما كذلك ، أن
تفاعل كل المقومات البنائية وغير البنائية هو الذي يتعين أخذه في
الاعتبار . إن شعور المتكلمين المعيّنين ومواقفهم اللغوية يمكنها
أيضاً أن تكون على الأقل حاسمة في الموضوع مثل وقائع البنى .
ومعيار التسمية التقليدية للألوان لا يزيل شيئاً من التشبهات . ومثاله
أن فرداً واحداً ناطقاً بالعربية لا يمكن أن يوجد ، بالنسبة إليه ،
سوى لغة واحدة وحيدة لكل العالم العربي ، ولكن حسب الظروف
والمتخاطبين (وإن تعوزه الحجج المتطهرية المحسنة لإسناد هذه
الاطروحة) أو بالعكس سيكون في إمكانه أن يعارض لغتين عربيتين
على الأقل في هذه الحالة الأخيرة ، سيكون في متناول الناطق
بالعربية ، إسمان لمعارضة واقعين : الفصحى L (H) ، وبالنسبة
لـ (L) توجد العامية في مصر ، والدارجة في تونس ، الخ . وهناك
حيث يعارض البعض الأورنيا بالبرونفسالية واللانغويكية ، وكلاً من
هذه الوقائع بالفرنسية ، نجد آخرين ما عانوا يريدون أن يعارضوا
الفرنسية إلا باللغة الأوكسيتانية . وفي أي حال لا يستطيع جمع
التسميات أو تعريفها أن يصنعا وحدهما القرار .

يختم فرغيسون ملحقاً للأنواع اللغوي التعريف الذي يعتبره
بمثابة التعريف الأكمل : إن الأنواع اللغوي هو وضع لغوي

مستقر نسبياً حيث يوجد أيضاً ، فضلاً عن اللون أو الألوان المكتسبة أولاً (الألوان التي يمكنها أن تشمل على مقولب أو مقولبات إقليمية) ، لون متقلب ، يبالغ التباعد ورفيع التعقيد ، غالباً ما يكون أشد كثافة وتركيباً في المستوى القواعدي ، ويكون حاملاً لأطب عريض ، مكتوب وبارز ، وبطلة يكتسب هذا اللون في المنظومة التربوية ، ويستعمل غالباً في الكتابة أو في المواضيع الشكلية للخطاب ، ولكن لا تستعمله أية جماعة من المنحد في الحديث الدارج (Diglossia, p.336)

IV/٢٦- دينامية المواضيع اللغوية الازدواجية

غير أن فرغيسون ، بعدما سبّل في هذا التعريف الاستقرار النسبي للمواضيع اللغوية الازدواجية ، وبهدما شدد على أن الازدواج اللغوي يمكنه على امتداد قرون أحياناً ، ألا يطرح أية مشكلة على المتحدثات التي يميزها ، أخذ في اعتباره شتى الإمكانيات الدينامية ، إن بعض التيارات الاجتماعية / الاقتصادية و/ أو الاجتماعية / الثقافية (الحاجات المتزايدة لمحو الأمية والتنشئة المدرسية ، تكثف الاتصال والإبلاغ بين الجماعات الاجتماعية والجغرافية ، الحاجة إلى لغة قومية تؤكد استقلالاً وسيادة هديته ، الخ) ، إذ اندمجت في وقت معين في وضع لغوي ازدواجي ، إنها طوّرت ديناميتها ووجهتها (Diglossia, p.338-339) ، ويعتبر مارتينه من جهته (Rapport, p. 2) أن دينامية المواضيع اللغوية الازدواجية (وبوجه أعم المواضيع اللغوية التعددية في المقّحد) هي المعيار الأوثق لتبويب هذه المواضيع ، شرط الاستناد إلى زيوع المصطلحات القائمة ، أكثر من الاستناد إلى تعارض H-L

ومنذ الآن ، يمكن تقسيم ثلاثة أنماط دينامية لهذه المواضيع

الدينامية الأولى هي دينامية الحفاظ على الإزدواج اللغوي ، عندما يكون هذا الإزدواج مُدرِكاً كسمةٍ قوميةٍ حقاً ، وكعلامةٍ استقلال . هكذا كان الحال في النرويج في القرن التاسع عشر ، بعد حقبة الهيمنة الدنيماركية . ومما لا شك فيه هو أن الحال كذلك في سويسرا الألمانية ، اليوم . ومن جهة ثانية يمكن أن تكون النزعة نحو دينامية مقاربية ، تنطلق إلى توحيد الألوان اللغوية القائمة ، وهذا ما يميّز الوضع الراهن في النرويج ، وما ترتسم صلامحه ، ربّما ، في اليونان اليوم . إن هذه الدينامية يمكن أن تفرض نفسها عندما يكون المتكلمون أنفسهم مقتنعين إلى حد كبير بأن الألوان القائمة هي فعلاً لغةً وحيدة/ واحدة ، وأيضاً عندما لا تتطور الصراعات الاجتماعية أو الإثنية الكبيرة جداً.

أخيراً ، يمكن أن تكون النزعة نحو إلغاء هذا اللون أو ذلك من الألوان القائمة . في الوضع الفرنسي الراهن ، تشهد الألوان الأقل شيوعاً (لهجات محلية وأيضاً لهجات إقليمية من الفرنسية) تنالصاً متزايداً في نبرعها هذا ، إن لوناً كبير الدروع يظل يتوسع في متحدٍ ما ، إذا كان من قبل لغةً نموذجيةً في متحدٍ أو في عدّة منّصّات أخرى (Ferguson, Diglossia, p.339) . لو إذا كان الوضع يضمها في مواجهة عدّة ألوان أخرى أقل نبرعاً ، تفرض الفرنسية نفسها في بروكسل حيث تتعارض مع عدّة ألوان من الفلاماندية ، وتفرص نفسها في فرنسا في مواجهة عدّة ألوان من اللهجات المحلية والإقليمية ، الخ

لكنّ الاتجاه يمكن أن يكون أحياناً نحو تصفية اللغة الأكثر نبرعاً ، محلياً على الأقل . ومثال ذلك الفرنسية التي تمّت تصفيتها حالياً في المواقع الفلاماندية من نصف بلجيكا الشمالي .

IV/٢٧- الإزدواج اللغوي:

معايير اللسانية والاجتماعية

يمكن إذن ، حسب فريسون ، الكلام على ازدواج لغوي ، ومعارضته بالثنائية اللغوية بقدر ما يضم الوضع لوتين من لغة وحيدة/ واحدة ، مع مجابتهما بمراكز اجتماعية مختلفة .

بعد ذلك ، أمكن تمييز المقومات الاجتماعية التي لن تجعل السمات التحديدية الوحيدة للوضع اللغوي الإزدواجي . هكذا هو الحال بالنسبة إلى فيشمان الذي كتب (Sociolinguistique, p.88) في مجتمع يستعمل لغتين أو أكثر في سبيل اتصالاته الداخلية ، يجري هذا الاستعمال عادة حسب اتجاهين : لغة H (high = رفيعة) مستعملة لأجل الدين والتعليم وجوانب أخرى من الثقافة ، ولغة L (low = مشتركة) يستعملها الفاعلون اليوميون في البيت والأسرة ووسط العمل البدوي ، يمكن للغتين (H و L) أن تعتبراً عندئذ كلختين مترادفتين.

في نظر فيشمان لم يعد ثمة حاجة إلى انتساب الألوان القائمة إلى لغة وحيدة/ واحدة ، ولم يعد تعريفه للإزدواج اللغوي يتناول سوى الجانب الاجتماعي لبعض حالات الثنائية أو التعددية اللغوية وفي نظر مارتيفه ، يوجد في الواقع تنوع كبير جداً في التفاعلات المحتملة بين لغتين ، ومصطلح الثنائية اللغوية يشمل كل هذه الاحتمالات ؛ ومع الاحتفاظ به ، ربما يتجنب تبويهاً قائماً على تقسيم ثنائي يعتبره المؤلف بسيطاً (Eléments, p.148) إن التصنيف القائم على هذه الثنائية يقتضب ، من جهة ثانية ، إلى تصور للوقائع الاجتماعية/ الثقافية أقل ما يقال فيه إنه تصور تقليدي ومحافظ . فالعمل البدوي وبعض المشاغل الأخرى مثل ، اللون اللغوي الذي يجعل هذا الجانب من النشاط البشري ممكناً ،

بجانبهما مشمولين في الحكم القيمي ذاته ، فكلاهما مشتركان (Low) ، في حين أنّ الدين أو الثقافة واللون اللغوي المتعلق بهما ، ريعان (High) . وإذا اعتبرنا أن من المنشود علمياً وضع اصطلاح لساني اجتماعي يفصل في حدود الممكن بين اللوان اللغوية وتصنعاتها الوظيفية والأحكام القيمية المتعلقة بهذه الأخيرة ، فنقل إن مفهوم ومصطلح الازدواج اللغوي (Diglossie) لا يسيران دائماً وبكل وضوح في هذا الاتجاه وإن حدود التعارض بين H و L يمكن اعتبارها ذاتية حقاً (Martinet, Rapport, p.2) .

IV/٢٨- الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي

منذ ١٩٥٩ ، جرى التوسع في مفهوم الازدواج اللغوي وتنقيته ، فأضيفت هذه اعتبارات ذات دلالة إلى النظرية الأصلية . كما يعتبر فيشلمان (Sociolinguistique, p.68) . فهي نظره ، كان مفهوم الازدواج اللغوي يرتبط بالتالي ارتباطاً وثيقاً ، ومنذ البداية ، بمفهوم الثنائية اللغوية ؛ ومن ثم كان الشاغل الأكثر دلالة هو الفصل بين هذين المفهومين ، على قدر ما يكون هذا العمل التفكيكي ممكناً . على هذا النحو ربما يسم الازدواج اللغوي أوضاعاً لا توجد فيها أية ثنائية لغوية عامة . فعندما تفرض دولة وحدة سياسية ، إقتصادية ، دينية على متعددات لغوية مختلفة وفوق ذلك مفصولة جذرياً من حيث تقاليدها الاجتماعية الثقافية ، فإن عدة لغات تجري عدت في هذا الإطار التوحيدي المفروض وتتعارض فيه ضمن علاقة من الطراز الازدواجي اللغوي، وفي إطار علاقات اللغات المترتبة . لقد قدم التاريخ الأوروبي كثيراً من الأمثلة عن هذه الأوضاع حيث كان التفاعل الاجتماعي ، بعد غزوها ، يتم بواسطة الفرنسية ، الدائيماركية ، الألمانية أو الروسية ... داخل جماعة الغزاة . بينما لم يكن يجري أي اتصال مباشر مع طبقات المظلومين وجماعاتهم

الاجتماعية . كان هؤلاء المنظورون يظنون جماعياً نوي لغة واحدة ، وكانوا يواصلون ممارسة الإنكليزية النرويجية ، الاستونية وكان نفر قليل من شارحين ومترجمين يكفي للاتصالات النادرة بين الجماعات المهيمنة والجماعات المهيمن عليها . ولم تكن المواقف اللغوية الانبواجية من هذا النوع عرضية وثانوية بالضرورة ؛ وربما لا تعود فقط إلى مجال الملضي .

ولفوق ذلك ، عندما لا تحظى اللغات نوات للوضع اللغوي الثنائي أو التعددي ، بمواقف اجتماعية إجماعية ، بتصنعات وظيفية محدّدة ومفصولة بشكل قوي . يكون ثمة ثنائية أو تعددية لغوية بدون ازدواج لغوي . ويكون هذا الأمر معيّناً لحقيقت تبدلات اجتماعية سريعة ، عندما تولد معايير اجتماعية دون أن تقوم مقامها معايير واعراف جديدة . وترتبط الثنائية أو التعددية اللغوية من دون ازدواج لغوي ، بمواضع ومواقف انتقالية ، كذلك التي يمكن مثلاً أن تعيشها الأجيال الأولى من جماعات المهاجرين ، كاليد العاملة المنقولة بكثافة ، الخ . في هذه الأوضاع ، تفلت المهارة اللغوية الفردية من الضبط الاجتماعي الذي تمثله من جهة ثانية التصنعات الوظيفية الخاصة بمختلف المنظومات المتواصلة ويمضي شاغل الحفاظ على المسافات بين اللغات ، وتؤدي أوضاع كهذه ، بشكل مألوف ، إلى استبدالات لغوية أي حلول لغات محل أخرى

ينعاش الانبواج اللغوي والثنائية أو التعددية اللغوية عندما يدرك كل متكلم بوضوح متى ، أين ومع من يتكلم هذه اللغة بدلاً من تلك . وهذا التعلّيش المألوف قليلاً على سعيد أمة كبرى ، غالباً ما يكون سارياً في أقاليم أو في مناطق بأسرها . يذكر فيضعلان مثل الكانتونات السويسرية الألمانية حيث لكل من الألمانية واللهجة الألمانية المحلية وظائف اجتماعية حسنة الموقع ورفيعة القيمة . (Fishman, Sociolinguistique, p.91-92)

أخيراً ، قد لا يميز الإزدواج اللغوي فقط المواقف الثنائية أو التعسفية اللغوية ، بل قد يطبع بطابعه أيضاً كل وضع يقوم فيه مجتمع لغوي لحدي بمعارضة مختلف ألوان لفته ، واصفاً بعضها بأنه عامي / دارج (Vulgaires) وبعضها الآخر بأنه كلاسيكي / هاليور (Classiques) ؛ ويمكن أن يكون ثمة إزدواج لغوي منذ أن تتعاضد معاجم مختلفة (سجلات) والألوان متباينة وظيفياً لهذا السبب أو ذاك إن وضعاً لسائياً اجتماعياً كوضع باريس وجزيرة فرنسا (18- de France) مثلاً ، حيث تنتمي جميع الألوان القائمة إلى اللغة المشتركة وحدها ، قد يكون إزدواجياً على قدر ما تكون الألوان الشعبية والمندولة والعامية ... متعارضة اجتماعياً مع اللون المطبوع . وما لا شك فيه أن موقف قيثمان هذا هو الأقرب إلى وجهة نظر فرغيسون.

IV / ٢٩ - التواصل الخطابي . الوضع الجاميكي

يبدو مفهوم التواصل الخطابي كأنه من أحدث تعولات مفهوم الإزدواج اللغوي ، بدأ دافيد دكمب بوضعه (Continuum, p.349) (370) في خلال دراسته للوضع الجاميكي الممتد بوصفه وضع متعدد خطابي ما بعد لغات المستعمرات المولدة (Post- creole) . يغلد كثير من الجافيكين الأسطورة القائلة بأن الجزيرة لا تضم سوى اللونين القائمين فيها ، وهما العلمية والنموذجية (المقولة أو المقعدة Standard) - كما يلاحظ دكمب ، (Decamp, Con- (١٠) (Continuum, p.350) الذي يستنتج من جهته وجود تواصل لغوي موجه توحياً اجتماعياً - إقتصادياً ، وجود طيف متواصل من الألوان

(١) - Two varieties, the patois and the standard - هذه ، العلمية ، يُشار إليها عموماً بأنها الانكليزية / الجاميكية المولدة ، ويتكلمها قرابة المليون متكلم

الخطابية^(١١). وطرفاً هذا التواصل غير قابلين للفهم والمقولة المتبادلين ، فهو تواصل يتضمن كل الألوان الخطابية الوسيطة المحتملة ، من الخطابات الممكن عزوها الى الإنكليزية الجاميكية (المختلفة عن النموذج البريطاني) وصولاً الى الخطابات المنتمية الى المنظومة المولدة التي يمارسها جماعات اجتماعية من الفلاحين للفقراء ، وهي لغة مولدة لا تمارسها الطبقات الحضرية الوسطى او حتى أنها لا تفهمها بالضرورة.

إن كل متكلم جاميكي يضبط مدى معيناً من هذا المجموع التواصلية ، وهو مدى يتوقف اتصاعه على سعة وتنوع إتصالات المتكلم الاجتماعية . ويضيف د. دكعب إن التحدث عن تواصل خطابي يعني أنه عندما يكون هناك عينتان من الخطاب الجاميكي ، مختلفتان جوهرياً عن بعضهما ، يمكن دوماً أن نجد في عين إضافية مستوى ثالثاً ، وسيطاً . هذا معناه إذن أن من الممتنع وصف المنظومة في حدود عاميتين ، ثلاث عاميات لو ست عاميات .. غير متواصلة اجتماعياً.

ونظراً لعدد العينات الخطابية المأخوذة من المجموعة التواصلية والمفترض أنها متألقة ، فإن المشكلة قد تكمن في تصنيف هذه العينات داخل رانوب (Ordre) دالٍ . ونحن يتعلّى دكعب عن اتخاذ الحصان الاجتماعي الاقتصادية لمخبريه كمعايير للتصنيف ، فإنه يستعمل تقنية تسمح له بتصنيف العينات قوامه فقط الظهور المشترك (Co-occurrence) للسمات اللسانية (الصوتية ، البنائية والمعجمية) في كل لسان للقول (Decamp, Continuum, p.356 et s.) . لكنه يوضح أن هذا الشكل من التفرع

(١١) بالمعنى مع الطبقات الصوتية التي يعطي تفكيكه تواصل الاول . (Decamp, Ibid., p.357)

الخطابي - ونعني به التواصل الخطابي - غير ممكن إلا ببعض الشروط والظروف فلا بد للغة الرسمية الصاعدة من أن تكون قد وفرت القاعدة المعجمية للغة المولدة في المستعمرات (Créole) . ومن دون ذلك لن يصعد ويدوم سوى وضع بسيط من الارتواج اللغوي أو من الثنائية اللغوية . كذلك لا بد أن يكون فعالاً وفعالاً نفوذ اللغة المطبوعة ولأن يكون في الإمكان حدوث ضفوفات كافية من فوق وإذا ظلت هذه الضفوفات غير كافية ، فلن يقوم تواصل خطابي . وإذا كان التطبيق والضمفوفات اللغوية قويتين جداً ، فسوف يتطور الوضع في اتجاه تبديل اللغات لصالح اللون المطبوع ، كذلك ، لا مناص من فصل نسبي بين الطبقات والجماعات الاجتماعية ، الشديدة الانعزال في السابق ، فبدون حراك اجتماعي معين ، قد لا يعتبر متكلمو اللغة المولدة . أن اكتساب اللون المطبوع هو عامل لا بد منه في أية ترقية اجتماعية محتملة .

IV / ٣٠ - التواصل الخطابي : الأوضاع العربية

هل يمكن لفهم التواصل الخطابي أن يكون مبنياً لدراسة أوضاع أخرى غير الوضع الجامعي ؟ وهل يمكنه أن يسمح ، مثلاً ، بفهم أفضل للوضع في الاقطار العربية ؟ هذه الأوضاع جرى اعتبارها لأمير طريل كأنها نموذج كلاسيكي للارتواج اللغوي ، حسب فرغيسون . إن لوباً يسمى كلاسيكياً ومقعداً بدعة ، كان يقوم فيها بالوظائف الخاصة باللغة (H = اللغة الجلييلة) ، وإن لوباً آخر ، قريباً من (H) ، لكنه فقط ذو استعمال مطي وشفهي ، غير مقعد وغير مطبوع ، كان يحظى بمكانة اللغة (L) . وإن سمائر تصفية الاستعمار ومجهودات الإنماء الاقتصادي شجعت مؤخراً جراكاً اجتماعياً معيناً في هذه الأوضاع . وفي غياب الوسائل الاقتصادية الكافية ، لم تتمكن أبداً للضمفوفات اللغوية والتطبيقات اللسانية . أن تفرض

تبدلاً في اللغات لصالح اللون (H) أي العربية الكلاسيكية . ولكن هذه الأخيرة لم تبق ، رغم ذلك ، دون تأثير في جمهور المتكلمين . حالياً ، تكثر التوضيحات من القلونات والألوان بين (H) و (L) ، (عربية كلاسيكية ، عربية وسطى ، عربية محلية محكية) لدرجة أنه بات من المناسب أن نتساءل عما إذا كانت إرادة التطبيع والضغطات الفوقية والحراك الاجتماعي النسبي لم تكف ، مع ذلك ، لظهور ما يسميه بكعب تواصل خطيئياً ، في الحقيقة ، ليس من المؤكد أن خطاب مقف كبير وخطاب بدوي لا يزال مكابراً في بداوته ، هما ، من أول وهلة ، يمكن فهمهما المتبادل ، وليس من المؤكد أن بين هذين النقيضين لا يوجد مكان محتمل لكل ألوان الخطابات الوسيطة ، مكان محتمل لتواصل يمكن لكل لبناني ، مصري أو تونسي . أن يراقب مداه بقدر اتساع اتصالاته الاجتماعية وتنوعها . وإذا كان يوجد دائماً في عينة إضافية مستوى ثالث وسيط بين هئتين من الخطابات المغربية والجزائرية والسورية ... المختلفة جوهرياً والمفترض أنها متكلفة ، فلا شك أنه قد يتعين أن نرى ذلك البرهان على وجود تواصل خطابي

IV/31- التواصل الخطابي : الأوضاع الفرنسية

في الأوضاع المتوافقة في فرنسا مع اللهجات المحلية ، ماذا يمكن أن تكون العلاقات بين الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي ؟ وهل يوجد تواصل خطابي ممكن في هذا الوضع أو ذلك ؟ وإذا كانت الأوضاع المتوافقة مع اللهجات المحلية تقيم علاقة ازدواجية بين الألوان القائمة وكانت اللهجة المحلية تؤدي فيها وظائف اللغة (L) . فأي لون من الفرنسية يمكنه تأمين وظائف اللغة (H) ؟ وهل سنكتفي لذلك اللهجة الإقليمية أو أيضاً اللون المتداول ؟ ماذا يمكن أن تكون وظائف اللون المطبوع ؟ في الوضع الأراسي مثلاً . رأى اللون

الجرماتي نفسه مناطقاً ، بلا أي شك ، بمركز (L) ووظائفها ، لكن الوظائف (H) قد تكون موزعة ليس فقط بين الألوان الفرنسية الماثلة في هذا الوضع (لهجة إقليمية ، لون متداول ، لون مطبوع ؟) بل قد تعود أيضاً ، جزئياً ، إلى الألوان الألمانية التي تشترك الفرنسية معها في بعض الميادين : الإدارة ، الإذاعة المسموعة والمرئية (الراديو والتلفزيون) ، السينما ، الخ . فهل تجتمع الشروط عند أولئك المتكلمين من الألزاسيين الذين يمارسون الألمانية المطبوعة ممارسة شفوية ، لكي يظهر تواصل خطابي بين اللهجة المحلية الألسانية واللون المطبوع من الألمانية ؟ بكيفية عامة ، هناك حيث لا تكون اللهجات المحلية واللغة المطبوعة منظومات متقاربة ، لن يمكن (في رأي دكريب) ظهور تواصل خطابي ، وإن تمكن هذا الأوضاع أن تتطور إلا في اتجاه تبدل اللغات لصالح اللغة المطبوعة ، عندما يكون التطبيع والصفوط الفوقية والحراك الاجتماعي كافياً . في الوقت الحاضر يتعين التسليم بأنها غير كافية ، وذلك على قدر ما تكون الأوضاع التي تتصادف فيها الفرنسية والفلامندية والألسانية والباسكية أو البرتونية ، هي بالذات الأوضاع التي تظل فيها الثنائية اللغوية هي الأكث والأهم .

أما في الأوضاع حيث تكون (H) و (L) منظومات متقاربة ، هناك حيث المطبوع يصاحف لهجة محلية خالية / رومانية أو رومانية ، فإن التطبيع اللغوي والصفوط الفوقية والحراك الاجتماعي التي يشهدها المجتمع الفرنسي ، قد يتعين عليها أن تكون كافية لظهور تواصل خطابي

وحين نعاود قراءة السطور التي كان مارتيف قد خصصها للوضع البيكاردي كما كان لا يزال قائماً في السنوات ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ، فإننا قد نكون ميالين إلى التسليم ، في هذه الحالة ، بوجود تواصل خطابي . في حضور الباريسيين ذوي اللغة الواحدة ، كان

البينكارديون ثور اللغة المزبوجة يستعملون لهجتهم الإقليمية الفرنسية . إن لم نقل اللون المتداول . ثم كانوا يواصلون استعمال هذا اللون ، حتى في ما بينهم ، ثم تجدد في خطاباتهم ظهور السمات الخمسة باللهجة المحلية (مثلاً ، لفقل المحلي بـ /-o/ في الماصي القريب كان يحل محل الشكل الفرنسي للحم بـ /-e/) . وأخيراً ، مع تنامي حضور الباريسيين ، كانت هذه اللهجة الإقليمية تستعيد موقعها تماماً على الصعيد الصوتي ، كانت تفرض نفسها أولاً صواتاً محلية : فكلمة Chaussette في شكلها الفرنسي أولاً ، صارت [Sœsat] التي جرى لاحقاً إبدالها من الكلمة المحلية [Kœsat] . وكانت النتيجة النهائية شكلاً خطابياً غير قابل بوجه عام للاختراق إلا من قبل المطلعين أي مزوجي اللغة أنفسهم (Martinel, Langue et fonction, p. 139- 140).

من المؤكد أن تكلم برفض عندئذ الكلام على ألوان لغوية متباينة أو عاميات اجتماعية متفصلة تتدرج بين لون مطبوع من الفرنسية ولهجة محلية بينكارديّة (لون متداول ، لهجة إقليمية فرنسية ، لهجة إقليمية مكرّزة ، لهجة محلية فرنسية ، ثم لهجة محلية بينكارديّة) وما لا شك فيه أنه يستطيع في هذه الحالة ، تشخيص تواصل خطابي . وكان يكفي مراقبته بأن يشهد ، من جانبه ، على أن الانتقال في بعض الأوضاع اللسانية الاجتماعية من شكل كلامي إلى آخر ، لا يتم إلا بالتدرج . وعندما يعني تبديل السجل (بمقتضى تبديل في التخاطب أو أي تبدل آخر في معطيات الوضع المباشر) تغيير منظومة لغوية ، فإن الانتقال من لغة إلى أخرى لا يكون مفاجئاً دائماً ويمكنه ألا يتم إلا بالتدرج .

ومن المحتمل أن يعتبر مفهوم التواصل الخطابي إجرائياً ، بهذا القدر أو ذاك ، وفقاً للأوضاع المطلوب وصفها ، وحسب المنظور الذي يختاره الباحث . ولا يقل صحة عن ذلك ، القول إن

التقنية التي استعملها ككعب في تحليل العينات المأخوذة من التواصل الخطابي ، وفي تصنيفها فقط على قاعدة الظهور المشترك للسمة اللغوية ، يفترض أن تظهر مفيدة ليس فقط لتحليل ظواهر الانتقال من لغة إلى أخرى في أوضاع لغوية ثنائية أو تعددية ، بل يمكنها أن تكون مفيدة أيضاً في وضع لغوي أحدي . وعندئذ يمكن لهذه التقنية الإسهام في الإحاطة بظواهر الانتقال من لون إلى آخر ، وبالتبدلات التدريجية من سجل إلى آخر ، أو يمكنها أيضاً الإسهام في تحليل سجلات مركبة بينها المتكلم حين يستفيد صراحة من سمات لغوية مختلفة من شتى ألوان اللغة نفسها .

التداخل اللغوي

IV/٣٢ - إتصال اللغات وتداخلها

ثنائية لغوية عامة وازدواج لغوي مستقر ، ثنائية لغوية بلا ازدواج ، وازدواج لغوي بلا ثنائية عامة ... في الظاهر كبير هو التنوع في التفاعلات الممكنة بين لغتين أو أكثر . لكن ، مهما تكن كميّات الاتصال بين اللغات ، ومن زاوية ، هذه التجريدات المفيدة ألا وهي المنظومات اللغوية ، وحدها (Decamp, Continuum, p. 350) تكون النتيجة هي نفسها دائماً ، إنها التداخل (interference) . ثمة أسباب قوية للقول إن معرفة متكلم بعينه للفرنسية والليتوانية ، أو معرفته للفرنسية والبروفنسالية ، للفرنسية المحكية في باريس أو الفرنسية المحكية في مرسيليا ... هي من متغيرات الظاهرة الأساسية نفسها ، كما كتب ليفريخ . إن المشكلة بالنسبة إلى المتكلمين هي في التوافق مع معايير مختلفة في سياقات متباينة ، وهذا يفضي باستمرار إلى تداخل معايير منظومة مع معايير

المنظومة الأخرى . وليس تجنبُ التداخل بين منظومات باللغة التباين ، أسهل من تجنّبه بين منظومات متقلوية أو بين ألوان من منظومة واحدة (Weinreich, *Unilinguisme*, p. 648- 649) . وإن يكون تجنبُ التداخل بين الاسبابيّة واللباسيّة أسهل من تجنّبه بين الاسبابيّة والفعاليّة أو الاتصاليّة . وليس تجنّبه بين الفرنسيّة والعربيّة أو اللغيتناميّة . أسهل من تجنّبه بين الفرنسيّة والاوكتسيانيّة أو البكرديّة ..

عندما تكون المنظومات اللغوية على احتكاك واتصال ، يمكن أن يطرا التداخلُ في كل المستويات . في المستوى الإنشائي الأضعف الذي هو المستوى المعجمي ، وفي المستوى القواعدي حيث سيكون النّمؤ مضاعفاً تماماً مثل كشوفات الأشكال والمباني ، وحيث أن يعمي بناؤه الضيق ، بدوره ، المستوى الصوتي

IV/ ٣٣ - التداخل المعجمي :

تتوحدُ مخزونات اللغات المعجميّة إلى الاستمرار في تمايزها ، حين تظلّ كلّ منها مجموعة من الدلالات مستقلة ، وعندما تُحافظ كلّ من الدلالات على علاقة الدّلل / المدلول التي تختصُ بها . ومثاله أن المخزونات المعجمية في الفرنسيّة والروسية منتزعة متمايزة ، إذا ظلّ لدى المزيج اللغوي الفرنسي - الروسي ، دالاً / /Syr و / Nos / محتفظين بعلاقتهما مع مدلولي «Sucro» و «Noco» ولم يظهرا إلّا في الأوضاع الموجبة استعصال الفرنسيّة . بينما دالاً / /Saxar و / Nos / مثلاً ، إذ يحتفظان بعلاقتهما مع مدلولي «Sucro» و «Nez» ، فإنهما لا يظهريان إلّا في الأوضاع المستوجبة استعصال الروسية . لا يزال الأمر أبعد من أن يكون على هذا المنوال ، وغالباً ما يفضي اتصال اللغات إلى الملقمة (Amalgame) . فعند المزيج اللغوي الفرنسي - الروسي ، يمكنُ لدّلل /Nos/

أن يعمل في الواقع من خلال المنظومتين ، والمزج اللغة ان يزيل
 التباس /nos/ إلا بتفضيله للمدلول /noz/ في الأوضاع التي تفرض
 استعمال الفرنسية ، والمدلول /Nocer/ في الأوضاع التي تفرض
 استعمال الفرنسية . وبالنسبة إلى هذا المزج اللغة ذاته . سيكون
 في المقابل للمدلول «-Sucre-» دالان ، بمقتضى الأوضاع (Weinreich,
 unilinguisme, p. 651) Saxon / Sykr/

دون وقوع تبدل جذري في الدالات ، يمكن للتداخل المعجمي
 ان يبدل علاقة الدال / المدلول ، مثلاً بتوسيع أو بتضييق
 المدلولات . وعندما يحتفظ المزج اللغة (الفرنسية - العربية)
 بالمنظومتين وبمخزوناتهما المعجمية منفصلة . يكون الدال / حرف
 /Çarafa متعلقاً بالمدلول «-Reconnaitre, Connaitre, Savoir- /و/
 Konstr Conaitre متعلقاً بمدلول معادل ، لكنه يملك ، فضلاً عن
 ذلك ، مدلول « عاش ، خبر » / «-Expérimenter Vivre-» / . وعندما
 يتداخل المخزونات المعجميان ، يمكن لـ / حرف / ان يكتسب
 معنى / «-Expérimenter, Vivre-» غير المتعلق به . في المنطلق ، في
 منظومته ولا في استعمال الناطقين بالمربية وحدها . وبالعكس ، في
 الخطاب الفرنسي لنوي اللغتين ، سيكون للدال / Konstr ان يفقد
 مدلول / «-Vivre, Expérimenter-» الذي يعود إليه . مع ذلك ، حتماً في
 المنظومة الفرنسية .

IV/ ٣٤ - الاقتراض المعجمي

يمكن للتداخل بين المخزونات المعجمية ان يصل الى حد
 الاقتراض . وحين اتى بوقبيه على ذكر الأوضاع المتوافقة في
 فرنسا مع وجود اللهجات المحلية ، أشار إلى أن مزج اللغة غالباً
 ما يحصل لديه تواطؤ لغوي (تصوية) بحيث تقتصر اللهجة
 المحلية وحداد معجمية لأجل التقنيات / الأغراض الجديدة .

السياسة أو الرياضية - في حين أن اللهجة الإقليمية الفرنسية تكون موسومة بترسيمات (Calques) مجتلية من اللهجة المحلية ويعلمة ، يخصص مصطلح ترسيم (نسخ) لاقتراض وحدة معجمية في اللغة A من اللغة B ، في شكل مترجم . لقد انضافت الترسيمة التقريبية - (Salle de séjour) إلى ما اقترضته المعجمية الفرنسية من الانكليزية - (Living-room) المقتصرة أحياناً على - Living مباشرة أعطت الانكليزية (Sky-Scraper) وبشكل ترسمي (gratte-ciel) في الفرنسية ، ولا تزال الفرنسية اليوم مترددة بشأن اقتراض Marketing وإبدالها من ترسيم : زد على ذلك أن هذه الانكليزية (Anglicisme) غير الضرورية ، سببة التكيف في الفرنسية مع كلمات (Études) ، (Technique) أو (Science des Marchés) هذا ما يمكن أن نقراه في قاموس بول روبير (Robert Supplément, 1972, p. 306) . إن النسخ المعجمي يوفر أولاً فائدة تجنب المصاعب التي يمثلها استئجار الدالات ، صواتياً ونحويّاً ، للمعجمات الغريبة ، وإدخالها في منظومتها الاستقبالية ؛ ويحاول من جهة ثانية احترام التعادل في راتوب المدلولات . ولا يكون هذا التعادل ، أحياناً ، إلا تقريبياً جداً ؛ وأحياناً السّل إلى بعض الأشكال المركبة من اللغة A إلى اللغة B ، يؤدي إلى بناءات لا يمكن تحليلها ، من وجهة نظر B ، إلا بوصفها لا معنى أو معنى مضاداً ، كما أشار إلى ذلك هالفيرميخ . حين أورد الأمثلة الفرنسية - Station-service, science-fiction ، إن هذا التعادل المنشود في مستوى المدلولات يمكنه ألا يكون إلا تقريبياً . عندما تدخل أو تكون قد دخلت معجمات اللهجات المحلية بشكل مترجم ، بشكل ترسيمات ، في اللهجات الإقليمية الفرنسية ، هذه الترسيمات التقريبية ، الكثيرة ، ليست ذاتاً وقائع خطابية لدى مزوجي اللغة ، فهي قائمة أحياناً في اللهجات الإقليمية منذ أمر بعيد جداً إن المخبر البييتروي (Billettois) الذي قدّم القول

Couper مع C'est moi qui a coupé la conque إنما أنتج ، مع Couper و Conque ، دالّات تنتمي إلى المنظومة الفرنسية . ولكنّ ، بما أنّ التداخل قد فرض على Couper مدلول «Casser» ، وفرض على Conque مدلول «Cuvette» ، فإنّ النسخ لم يكن يقضي إلّا لتعادل نسبي في راتوب المدلولات ولكن في مستطاع هذا التقريب أنّ يعاجيء مستمعاً لا يمارس إلّا اللون المتداول لو أية لهجة إقليمية أخرى .

IV/ ٣٥ - تدامج دالّ المقترضات

كثيرة هي صيغ التداخل المعجمي ، ونتاجها بالغة التنوع ؛ نبيد أنّ الأكثر إدهاشاً - رغم أنّه مغوف - يتألّ الاقتراض الشامل لوحداث معجمية . ذلك الذي لا يفصل ، في المنطلق ، بين الدال - والمدلول ، فعندما يربط وضع لساني اجتماعي معيّن ، اللغة A بمجموع X من الرقائع غير اللغوية ، ويربط المنظومة B بمجموع آخر ، Y ، (الأوضاع الفرنسية - لهجات إقليمية / لهجات محلية - قريبة من هذا المخطط) ، يستطيع المتكلم الثنائي اللغة أن يتقيّد ، بكل وضوح ، بعدادات الجماعة أن يعكس عن X في اللغة A ، وعن Y في اللغة B . غير أنّ بإمكان الوضع المباشر أن يجعل الثنائي اللغة يتوصّل إلى الكلام عن Y في اللغة A مثلاً ، وسيكون هناك سبب كافٍ حتى تفرض نفسها معجمات B على المنظومة A . عندئذٍ يمكن للاقتراض المعجمي أن يتألّ مجرّد ظاهرة خطابية ، إما لأننا نجد له معادلاً دقيقاً أو تقريبياً ، سابق الوجود في A ، وإما لأي سبب آخر ، مثلاً إرادة المتكلم الثنائي اللغة في الحفاظ على الفصل التام بين اللغتين

عندما يتنبّث الاقتراض في منظومة A يحدث أنّه قد لا يعاني لو أنه لم يعاني إلّا قليلاً جداً من التغيرات ، سواء في مستوى الدال أم

في مستوى المدلول ، خصوصاً إذا كانت A و B تملكان صواتات وقواعد متقاربة ، وإذا كانت A لا تملك من قبل معجمة أو معجمات لمدلول واحد أو دال قريب . لكن الوحدة المعجمية المفترضة يمكنها أيضاً أن تعاني جميع أنواع التبدلات . هنا يمكن للثنائية اللغوية الفرنسية - العربية في تونس أن تقدم مثلاً عما يحدث في أثناء استخدام دال على مقترض معجمي . عندما تكون صواتات وقواعد المنظومات القائمة باللغة للتبلين . فبعد قيام الانتداب الفرنسي على هذا البلد بقليل ، بدأ الناطقون بالعربية يسمعون المستوطنين يتكلمون على المركز الاجتماعي الجديد لبعض التونسيين ، مركز العمال ، وبالأخص العمال الزراعيين ، في أول وقت . إن التركيب الفرنسي : *les (ou des) ouvriers [Le (de) ZUVHUE]* يمكن إدن في أساس مقترض معجمي مثبت اليوم في منظومة العربية التونسية على شاكلة */ZUHV/* المفردة . إن واحداً من معطيات المنظومة العربية تعين عليه أن يشجع إلى حد كبير الاقتراض في صورته ذات الحرف البدئي الصامت */Z/* . والواقع أن هناك شكلاً عربياً مفصلاً يدعى الجذر الثلاثي (*Racine Trinitaire*) ، مثل ك - ت - ب - ، الذي نحصل منه على أشكال مشتقة بتبادلات الصواتات وبإضافة سوابق ودواخل ... ؛ وعليه فإن ك - ت - ب - يعطي ← كُتِبَ ، كُتِبَ ، كاتب ، مكتوب ، الخ ، إن المقترض */ZUHV/* ذا البدئي الصامت يمكن اعتباره ، على هذا النحو ، مشتقاً من جذر ثلاثي ز ف ر (*Z* - 1 - r*) ويندمج في سلسلة طويلة */masiv/ «turc»/ Turki/ «tunisien»/ Tunsiv/ «egyptien»* . إن استخدام هذا المقترض في منظومات أشكال لغة الاستقبال هو اليوم على غرار المفرد */ZUHV/* مزوغة بجمع تسميه القواعد السلفية جمعاً داخلياً أو جمعاً مكسراً : */zuahra/* بينما الفرنسية تعترض */V/* خرساء بـ *Ni* مرة ، بالنسبة إلى الصواتات الشفهية التي تخرج من بين الأسنان (الشفوية

(Labiodentale) . فإن المنظومة العربية لا تملك إلا حرفاً حاصلًا /ف/ ، الأمر الذي جعل مزدوجي اللغة يوحّدون بشكل طبيعي بين /f/ في كلمة *tournier* و /ف/ العربية . زدّ على ذلك أن التفخيم^(١٢) ، وهو سمة مميزة لمنظومة الصوامت في العربية ، قد فرّص هنا على صوامت دالّ المُقْتَرَض ، وذلك في شكل مفخّم إجمالاً لدرجة أن المُقْتَرَض يُستمتع اليوم على هذا النحو . [Zuʔɑrɪʔə] إن ما قيل أعلاه ، رغم أنه ناقص ، يفسح في المجال لاستشراق كثافة المعطيات التي تدخل اللعبة في أثناء الامتدماج الصوتي والبنوي لدالّ مقترض معجمي عندما قيم هذا الاقتراض بين لغات غير متقاربة .

IV/٣٦ - تدامج مدلول المُقْتَرَضَات

يلج بعض التغيرات التي تعانها الوحدة المعجمية المُقْتَرَضَة ، في مستوى المدلول ذاته ، ولا يزال المُقْتَرَض /Zɑrɪʔ/ خير مثال هنا . ويمكن التسليم بأن هذا المُقْتَرَض قد استنطاع في وقت أول أن يحتفظ في المنظومة العربية بمدلول قريب نسبياً من المدلول الذي كانت تملكه المعجمة الفرنسية . إلا أن المنظومة العربية كانت تملك معيجمات للمدلول ذاته أو على الأقل لمدلول قريب ، وهي مستعملة اليوم ، فطلياً ، كمعادلات لـ (ouvrier) ، ومثال ذلك ، كلمة خادم «domestique» Xaddem ، سابقاً ، يجري استعمالها عموماً في الحوار اليومي ، في حين أن عامل Gami (ذلك الذي يعمل) تظهر في الصحافة غالباً . ومن جهتها صارت كلمة /Zɑrɪʔ/ تحظى بمعنى /زقاق/ /Voyou/ ، وذلك من باب انزلاق المعنى .

(١٢) يشار هنا إلى التضمين ، في التكوين ، بالنقطة الموضوعية تحت الصوامت .

وليس بغريبة عن هذا الانزلاق في المعنى ، بعض المقومات اللسانية/ الاجتماعية . أولاً في المنظومة الفرنسية ذاتها ، لاشك في أن المعجمة (ouvrier) لم يكن لها سوى مفاهيم تقريظية ، في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين ، وهو عصر كان مصدراً للاقتراض . زد على ذلك في الوضع العام الذي اصطلحه الاستعمار ، أن الأوصاف المباشرة لم تقتصر إلى خطاب المستعمرين الفرنسيين الذي كان يعطي الكلمة / عمل : ouvrier / مبادرات لغوية تتضمن في احسن الأحوال معاني/Chenapan, voleur, menteur, /lançant,etc. /وغد ، لص ، كذاب ، تكذبل ، الخ ./. حالقاً بذلك الشروط الكافية لكي يستضيف المقترض Zûm بعض المفاهيم التحقيرية ، ومهيناً الأجواء للوصول إلى المدلول الزاهن . وطالما أن العربية التونسية لا تعرف سوى استعمال شفهي ، فليس بالإمكان استئثار شهادة وثائق مكتوبة أو مطبوعة ، وبالتالي قابلة للتأريخ ، كما أننا سنبقى في مجال الفرضية ، حين نقول إن انزلاق معنى Zûm نحو «voyou» أمكنه أن يبدأ عندما انتشرت صناعات محلية صغيرة في المدن التونسية أو بالقرب منها ، فبات المركز الاجتماعي للمثال حضرياً ، وصار لهذا السبب يستبعد ، إلى حد كبير ، سرقات الدجاج المحتملة أو القطاف السري لبعض الزيتون . عندئذ كان بمصطلح المعجمة (Zûm) أن تستدمج في مدلولها ما لم يكن أولاً سوى مفاهيم تحقيرية ، وانصحت في المجال أمام معجمات عربية موجودة قبل الاقتراض ، الدلالة على مراكز اجتماعية لم تكن تبدو في حينها غير مشرقة تملأ.

بما أن معجم أية لغة يتكيف مع المتغيرات الاجتماعية/ الاقتصادية والاجتماعية/ الثقافية ، فإنه يكون في حل من التجدد المتواصل . حتى في وضع لغوي أحدي . وفي الأوصاف اللغوية الثنائية والتعددية ، يصبح التداخل المعجمي والاقتراض من

المصادر الممكنة لهذا التجدد . ويمكن أن تتكرر التداخلات والافتراضات بكل سهولة ، وذلك على قدر ما يكون المعجمي هو المستوى الاتينائي الأضعف في المنظومات اللغوية . إذن ، تمتع الوحدات المعجمية بانتشار سهل ، ويمكن للتدخل أن يبلغ مقادير كبيرة . وعليه قد يصل الأمر بذوي اللغة الثنائية ، في بعض المواقف والأوضاع اللسانية الاجتماعية ، إلى الاكتفاء بصهر مصطلحيهما في مخزون مشترك من الإبداعات والتجديدات المعجمية (Weinreich, Unilinguisme, p. 664 - 665) ..

IV/ ٣٧ - التداخل الصوتي

بكيفية عامة ، تقاوم صوائف لغة مقلومة أفضل وأطول من معجميتها ، في حال تعرضها لتأثير التداخل ، وذلك لأنها هي المستوى الذي تكون فيه المنظومة مُبنية انبناءً مخصصاً . مع ذلك ، لا مفاص من التسليم بأن التبدلات الصوتية والصوانية ، بوصفها نتائج منتظمة للمقومات البنائية ، إنما تتراجع أحياناً أمام نتائج الافتراض . وعندئذ يكون الافتراض المعجمي واحداً من الموارد ، من الوصلات ، التي يمكن من خلالها أن يتم الافتراض الصوتي ، وغالباً ما يلعب استخدام دالٍ للمفترضات المعجمية دوراً مهماً في تطور صوائف الاستقبال ، وهو دور أعطته الدراسات النحائية مكانة واسعة . إن الاستيراد الكبير والواسع للموارد المعجمية الأجنبية ، المستعمجة استملاً ، يؤول إلى توريعات صوتية جديدة وحتى أمام إنخال صوتيات جديدة في لغة ما . هذا هو أصل التمييز الصوتي بين /h/ و /k/ أو بين /t/ و /z/ في الإنكليزية ، بين /h/ و /k/ في التشيكية ، الخ. (Weinreich Unilinguisme, p. 670)

ولكن ، حتى قبل أن يتوصل التداخل الصوتي إلى الاندراج

في مستوى المنظومات ، لا يكون من النادر في تصاوق الأوصاف الاتصالية بلذات ، في خطاب ذوي اللغتين ، أن يتعلّق التداخل بالمنظومات الصوتية بأكملها ، وأن يطول مجمل العادات النطقية المتعلقة بكل من هذه المنظومات . ومثال ذلك ، في تصاوق وضع كالوضع الذي يحافظ على الاتصال والاحتكاك بين المنظومة الفرنسية والمنظومة العربية التونسية ، تقسّم مشاهدة الشروط اللسانية الاجتماعية للاتصال ودراسة الصوتيات القائمة دراسة تباينية ، المجال أمام التوقّع بأنّ التداخل في خطاب التونسيين ذوي اللغتين يقيّم عليه أن يطول تقريباً كل المنظومة الصوتية الفرنسية (سواء على مستوى الصوتات أم على مستوى الصوامت) وكل العادات النطقية التي تتضمنها هذه المنظومة . إن مشاهدة الوقائع تبين أن في إمكان كل التداخلات الممكنة توقعها أن تتحقّق وتتفعل⁽¹³⁾ ، ولكن من الواضح تماماً أنّ كمّ التداخلات المتحينة ونوعها ، يتوقفان على التاريخ اللغوي الخاص بكل متكلّم (العصر، الكيفية ، المكان ، لوزمن اكتساب اللغات الاتصالية -) على الأقل ، متما يتوقفان على مقومات الوضع المباشر لخطابه (المتخاطب (ون) ، الموضوع المعالج، انتباه المتكلّم لخطابه ، ظرف التعب . .) . مهما يكن الأمر ، عندما نشاهد مثلاً التلفّظات التي اكتسبتها الصوتات الشفهية الفرنسية في خطاب التونسيين ذوي اللغتين حيث تُفرض عادات نطقية مرتبطة تماماً بالصوتانية العربية ، يكون ثمة مثل مفيد هنا يمكن أن يؤول إليه التداخل الصوتي . ومعيار الفرنسية يجعل متكلّمي هذه المنظومة متسامحين نسبياً في ما يخصّ بتلفّظات الصوتات الشفهية ذات الفتحة الصوتية للمتوسطة

(13) Jukette Garmadi - Le Cloirec, Le français parlé en Tunisie, description phonologique et syntaxique, Thèse de doctorat d'Etat, non publiée.

/d, o, ɔ, ɒ, e, ʔ, ʕ, ʁ/. وبالعكس ، فإن تغيّرات علوّة على تلفظات
 الصوائت الأكثر استقراراً في المنظومة /a, y, u, ɔ/ ستثير لديهم
 الدهشة أو الاستنكار. والعلل ، فإن قرص الانتعاش لن تنعدم ، لأن
 التمييز لدى الناطقين بالعربية من ذوي اللغتين هو كيفية عامة
 صعب للصمود ولا يستمر هذا التمييز بين سلسلتين من الصوائت
 المنطوقة من الأمام: /a, ɔ, ʔ/ و /y, ɔ, ɒ/. إلا بصعوبة، ويمكن أن
 تصبح /a/ /y/, /ʔ/ تصبح /ɔ/, /ʕ/ [ʔ]، وبالعكس ، /ʔ/ تصبح [ʕ]، الخ.
 هناك لدى الناطقين باللغتين نزعة عامة أخرى هي تلك التي
 تتركز ، في بعض المتباينات ، الصوائت الأكثر انفلاقاً /a, y, u/
 والصوائت الأمامية في أغلبها ، مما يعطي لـ /a/ و /y/ مثلاً تلفظات
 مفتوحة وبدون نطق شفهي دقيق جداً، ينزع نحو [ʔ]. ينبغي البحث
 خارج المنظومات الصوتية القائمة ، عن أصل هذا التداخل . إن
 الفرنسية المعاصرة تخفض لفظ هذه الصوائت لضغط لفظ
 صوائتها، بينما العربية يحدث فيها العكس إذ أن صوامتيّة مفروضة ما
 هي التي تضغط على لفظ الصوائت . وهذا يحدث في المنظومات
 الصوتية حيث ترغم الصوائت المطبوعة بطابع صوتي ملائم ،
 الصوائت على حركات تأكيديّة كبيرة . إن التضمين يتصرّف بطابع
 صوتي ملائم في إطار المنظومة الصوامتيّة العربية ، والتداخل الذي
 يحدث حينئذ في مستوى المنظومات الصوامتيّة ، يفرض أولاً التضمين
 العربي على تلفظات الصوائت الفرنسية /a/ يمكن أن تلفظ /ط/ ، /ʔ/ [ʔ]،
 /ʔ/ [ʔ] ، الخ . ثم تكتسب الصوائت الفرنسية حركات تأكيديّة وتركيبية لا
 تملكها في منظومتها ، ويتكيف مع التضمين المفروض على الصوائت.
 في الوضع اللساني الاجتماعي القائم في تونس ، تعتبر
 الفرنسية اللغة الثانية لذوي اللغتين . وهذا واحد من شروط
 الاحتكاك التي تجعل هذه اللغة أكثر تعرّضاً لمعاناة التداخل مما هو
 حال المنظومة العربية . مع ذلك ، ليس مؤكداً أن العربية ذاتها في

مما يكلّف عن التداخل . فالمفترضاات المعجميّة القديمة ، تلك التي استطلاعت العربية التونسية لخذها عن الفرنسية في العصر الذي كان فيه اتصال اللغات اقل وثوقاً ، بلا شك ، تبين أنّ المنظومة للعربية كانت تقاوم للتداخل الصوتي مقاومةً حسنة . فهناك حيث ترابط الإرتان الفرنسي يعارض /p-t/ و /t-v/ ، لا تملك المنظومة العربية إلا صويتين /ب/ و /ف/ ؛ كما أنّ المعجمات المجتلية منذ تاريخ قديم ، /l(z) ouvrier (s)/ و /Vapeur/ ، جرى تشبيهاً في العربية بصورة /Zān/ و /babur/ . ولكن يمكن اليوم أن نسمع بخصوص Pétrole في الخطاب العربي ، إلى جانب [bitul] الذي لا تقدّم تداركاً كبيراً للصوتية الفرنسية ، ترددات تتراوح بين [pétul] و [betul] . فاية كمية من المواد المعجمية الفرنسية غير المستدمجة تماماً ، كانت ستكتم حتى تظهر في العربية توزيعات جديدة للصوتيات ؟ وكم من الوقت سيلزم لاتصال لغوي وثيق حتى تطور المنظومة العربية تعارضاً بين /p-t/ أو /t-v/ ؟

IV/ ٣٨ - التداخل النحوي

في الغالب تكون مهمة المقاولات البنوية للتداخل النحوي والافتراض الذي يمكنه أن يترتب عليه ، إن المقاولات غير اللغوية يمكنها ، هي أيضاً أن تكون شديدة في هذا الحال ، ويمكن القول إن الردود المعيارية للمتكلّمين المعنيين مصدرها الدفاع الذاتي عن الجماعة كجماعة . مع ذلك يظل صحيحاً القول إن التداخل والافتراض النحويين هما اليوم من البيئات المستخلصة مراراً وتكراراً .

إن الامثلة التي اخذها غومهرز وويلسون من الماراثية ، الأوردية والكنادية المحكية في كوروار بما يكفي المرء مقبولة البعث عن امثلة أخرى حتى يدأل على وجود وظيفيات التداخل والافتراض

بين منظومات كلمات صرفية (morphèmes) في وضع اتصالي
(راجع سابقاً ، 12/IV و 13/IV).

إنّ الترميمات النحوية (فكانت مجرد وقائع خطابية لدوي
اللغتين أم كانت مقترحات سابقة ، مشبّوة في المنظومات)
والتدخل المعوي الذي تنجم عنه ، إذا استطلعت أحياناً أن تمرّدون
أن يلاحظها مستعملو اللغات المعنية ، فهي ، مع ذلك ، واقع لغوي
بين ويمكن الاتصال بين المنظومة العربية والمنظومة الفرنسية في
الوضع اللساني / الاجتماعي التونسي الزاهن أن يقدم حدة لمثلة
تدلّ بكل وضوح على قوالات التداخل النحوي . على الرغم من عدم
وجود دراسات إحصائية موضوعية بجدية لأغراض المقارنة ، على
حدّ علمنا ، فقد جرت العادة على التكرار بأن طريقة التوسع المميزة
في النحو الفرنسي قد تكون التوسع بالإلحاق^(١٤) ، في حين أن
النحو العربي قد يفضل طرق التوسع بالترائب والتناسق . إنطلاقاً
من هذا ، تُعزى بوجه عام للتداخل النحوي الذي تفرضه الفرنسية ،
الاصاقات التي يبدو أنها تتكاثر في الخطاب العربي للتونسيين من
لوي اللغتين ، على حساب التراكيب والتناسقات . وعليه ، سوف
تُعزى إلى ضغط النمو الفرنسي ملفوظات مثل : ورغم أنه كان
مريضاً فقد حضر الاحتفال ، il assista à la cérémonie bien qu'il fût malade .
cerémonie بدلاً من : كان مريضاً ومع ذلك فقد حضر الاحتفال ،
« Il était malade et malgré ça il assista à la cérémonie » .

يستقبل سفير العراق الذي تبلغه رسالة .

« Il a reçu l'ambassadeur d'Irak qui lui a remis une lettre » .

(١٤) يمكن أن تكون الألوان الفرنسية ذاتها مختلفة حول هذه النقطة . وليس من المؤكد
أن الألوان المطبوعة ، المتداولة ، الشعبية أو الأوجات الإقليمية تستعمل الإلحاق
والتناسق والترائب بطريقة واحدة .

بدلاً من :

يستقبل سفير العراق وإبلغة السفير رسالة - il a reçu l'ambassadeur d'Irak, et l'ambassadeur lui a remis une lettre - (15)

كما يُعزى إلى التدخل الذي تقرضه الفرنسية -
النقل المؤلف أكثر فاعل للفاعل الذي يظهر قبل وليس بعد
المسند الفعلي.

حريات الوضع المكتسبة حديثاً من جراء هذه التوسعات
بالإلحاق ، ألا وهي المفعولات فيها التقليدية .
التوسعات التي يمكنها هي أيضاً أن تسبق من الآن فصاعداً
مجموعة المسند / الفاعل ، وهذا بخلاف ما كانت تستلزمه القواعد
النحوية العربية الأقدم .

التعديل الذي طرأ على مفهوم الصورة (Notion d'aspect) ،
الذي يبقى مع ذلك نمطاً وظيفياً للمنظومة الشفهية العربية ، لصالح
مفهوم الزمن (Notion de temps) .

ظهور كُتِبَاتٍ وظيفية هناك حيث لم تكن مطلوبة من قبل ؛ الخ .
غير أن الفرنسية تبدو مؤهلة ، أكثر من العربية أيضاً ، لمعالجة
التداخل النحوي في السياق اللساني - الاجتماعي الراهن لتونس .
ذلك لأنها اللغة الثانية التي يكتسبها ذور اللغتين فيها ، تُظهر
الدراسة التضادية للقواعد القائمة أن المنظومة الشفهية الفرنسية ،
مثلاً ، يفترض فيها أن تكون مجالاً لتدخلات مهمة ، وإننا نجد كثيراً
من التدخلات الممكنة توقعها متحققة في الخطاب الفرنسي للناطقين
بالعربية (16) ، إن المنظومة الشفهية للعربية التونسية تُبنى أساساً ،
إنطلاقاً من متضامين ، أحدهما تضاد الصيغ أمرية ~ غير

(15) Salah GARMADI, - Quelques faits de contact franco-arabe en Tunisie - CERES, Université de Tunis, 1966, 56 p.

(16) Juliette GARMADI- Le CLOIREC, le français parlé en Tunisie.

امرية . وثانيهما تضاد المتصور : كلمة ~ غير كاملة (ناقصة) . في كل تركيب تعبيرى شفهي غير امرى ، يتوجب على المتكلم أن يشير إلى أنه يعتبر الإجراء أو الحالة المدلول عليها بالمعجزة الشفهية (صورة كاملة) إجراءً كاملاً ، أو بخلاف ذلك ، إلى أنه لا يأخذ في الاعتبار اكتمال أو عدم اكتمال الحالة أو الإجراء المدلولي (الناقص) . وعندما تعطى إشارة الزمن ، تظل خارجية بالنسبة إلى التركيب التعبيري الشفهي ، وهي غير مقعدة ، ويتعين عليها أن تستعين في أغلب الأحيان ، بالمصادر المعجمية .

إنن ، لا مناص من أن نرتقب من المتكلم الناطق بالعربية ، أن يواجه في خطابه الفرنسى ، وبالدرجة الأولى ، صعوبات التلطف بالمتضادات القائمة بين الصيغ اللفظية (الشفهية) غير الامرية . الصيغة الدلالية ، صيغة نصب الفعل (Subjonctif) أو الصيغة الشرطية . كذلك لا بد لتضادات الأزمنة أن تطرح عدداً معيناً من المشاكل ، ففي ملفوظات مثل

Au moment où on m'a enseigné le français, ça existait,

أو أيضاً .

On travaillait le matin au collège, et le soir, on le passait à l'atelier,

يفرض ذو اللفتين محتوى صورياً كاملاً على صيغ الماضي ، وعندئذ يكون الناقص مدلولاً عليه بصيغ المستقبل والحاضر . وبالتالي ، فإن الاتجاه إلى استئصال المصادر الخارجة عن التراكيب التعبيرية الشفهية للدلالة على الزمن ، يكون واقعياً .

À mon époque (passé) on nous enseigne (inaccompli) le français; y avait (passé) la garde nationale elle empêche (inaccompli) les curieux, etc.

في المنظومة العربية يكفي التضاد بين صور الناقص والتام ، في الظاهر ، لإقامة رباط إلحاقى ، بواسطة بناء حذفى بسيط ،

وعندئذٍ بالذات يظهرُ نصُّ نصويّ فارضاً نفسه على ملفوظات
فرنسية ، مثل :

Je sais pas (si?) ils l'ont entré chez lui; j'ai vu (que) ça parle toujours des inondations..

وعندها لا بد من الاستنتاج ، في ملفوظات مماثلة ، إن التوسع
بالإلحاق يتراجع في الواقع أمام التوسع بتراكب بسيط ، وهذا الأمر
يظهر أيضاً في ملفوظات مثل :

ils veulent ils arrachent

(ils veulent arracher)

on va on devient

(on va devenir)

Je l'ai mangé je me suis pas aperçu

(Je l'ai mangé sans m'en apercevoir), etc.

عندما يتوخد التداخل المعجمي والتداخل القواعدي والتداخل
الصواتي في الخطاب الفرنسي لمتكلم عربي ذي لغتين ، يشخص
الفرنسي ذو اللغة الواحدة ، وعبر المتخصص ، ما يسميه لهجة
شمالية أفريقية قوية ، هناك حيث يمكن للسانيين واللسانيين
الاجتماعيين أن يشخصوا لوناً من فرنسية لا تختلف في الواقع
مزايها وأصلها ، من حيث الطبيعة ، عن مزايها وأصل اللهجات
الإقليمية الفرنسية ، خصوصاً تلك اللهجات ذوات المواقع اللغوية
المتصلة مع لهجة محلية ، مثلاً.

وحتى إذا استطاع للتداخل اللغوي أن يكون ، في بعض
الحالات ، خاضعاً ، طوعاً وبفعالية نسبية ، لرقابة المتكلمين ، فإنه
يظهر كأنه محتوم تقريباً في مواقع إتصال اللغات . وعندما ينتهي
الوضع اللساني الاجتماعي لانتقالات رفيعة الوتيرة من لغة إلى
أخرى ، أو أيضاً عندما يفرض ذلك ، فإن هذا الوضع يمكنه التوصل
في مدى طويل نسبياً ، إلى إحلال الاستعمال المألوف للغة ما ، محل
الاستعمال المألوف للغة أخرى ، دون المرور بمرحلة انتقالية.

ولكن ، بنتيجة الاتصال الوثيق والانتقالات المتتالية من لغة الى أخرى ، يمكن للتداخل أن يتخذ نسباً كافية لكي لا يبقى في خطاب ذوي اللغتين جملة واحدة تامة . ولا حتى مقطع من قول ملفوظ ، مهما يكن قصيراً ، ولقائلاً للعزو إلى واحدة من اللغتين القائمتين . إن التفريق بين اللغات ينهار ، ويغدو عندئذ من الممكن تصور نتيجة التداخل في صورة الإبدال المتدرج لمنظومة من أخرى .

اللغات المزيج (Sabirs) واللغات المولدة (Créols)

IV/٣٩ - مثال لغة مزيج : الطاي بوا

يمكن لمقومات وضع لغوي شتّى ، لسانية / اجتماعية ، أن تحضر لانهيار التفريق بين اللغات المتصلة ، ولالإبدال التدريجي لمنظومة من أخرى ، دون أن تجتمع مع ذلك الشروط الخاصة بظهور لغة مزيج ونموها . في المقابل ، يُقدّر بوجه عام أن وضعاً مماثلاً بغضبي ، بعد حقبة طويلة نسبياً من التداخل اللغوي المُرتجل (المصطلح لكعب، Introduction, p.22) ، إلى استتباب الأحادية اللغوية لصالح اللغة التي تتكلمها الجماعات الاجتماعية المهيمنة . تلك اللغة التي تملك لوناً مطبوعاً ومقعداً .

في الواقع ، جرى وضع نظريات شتى عندما وُصفت الوقائع اللسانية وشروط ظهور اللغات المزيج ونموها (وكذلك وقائع اللغات المولدة التي تحوّلت إليها بعض اللغات المزيج) . وسيكون عرصُ شتى المقاربات والنظريات هذه ، ميسوراً أكثر ، إذا حوت الإحاطة

أولاً بوصف لغة مزيج . هنا ستكون للطاي بوا (Tây bô) هي المثال
المختار .

منذ ١٨٨٨ كان هيو شوشلر (Hugo Schuchart) يشير إلى
وجود الطاي بوا ، مدّلاً عليه باسم الرّجلّة الفرنسية - الأنامية (Jar-
gon franco - annamite) . ومنذ ١٨٦٠ كانت هذه اللغة المزيج
تُستعمل بين مستعمرين فرنسيين وبخّارة ، وخدم أو تجّار في ما كان
يسمّى آنذاك بالكوشينشين (Cochinchine) (*) . تبدو الطاي بوا كأنها
خارجة من العاميات الفرنسية ذاتها حيث كانت تستعمل بين الرّتباء
أو الجنود الفرنسيين والمساعدين المطوّعين محلياً وكانت ،
الطاي بوا ذات استعمال رائج حتى العام ١٩٥٤ في مصالح
الجيش الفرنسي ، وحتى العام ١٩٦٠ ، في كل مكان يوجد فيه تمركز
كافٍ من المتكلمين الفرنسيين ، بالأخص في Hué وسافون . لكن
رحيل الفرنسيين الذين سرعان ما استبدلوا بالعديد العسكري
الأميركي ، أدّى تقريباً إلى انطفاء كلّ الطاي بوا في مقال منشور
سنة ١٩٧١ ، يلاحظ جون (. وايك John E. Reinecke, Pidgin
French, p.47-56) أنه لم يجد في ذلك الحين مخبرين لا زالوا يتكلمون
اللغة المزيج ، مما اضطره إلى الاستعانة فقط بذاكرة مخبرين
مسنّين لكي يضع مدوّنته . مهما يكن الأمر ، كانت الطاي بوا قد
تأهّلت بقوة ، وداعت بشكل كافٍ واستقرت في فترة من تاريخها -
مع الكتابة الفيتنامية الإملائية - حتى استعملت في الرسوم
المتحركة لبعض الصحف المحلية .

(*) Coe chin + chine القسم الجنوبي من الفيتنام ، مستعمرة فرنسية قديمة .
استقلت سنة ١٩٤٦ والحقت بالفيتنام سنة ١٩٤٨ (المترجم) .

IV/ ٤٠ - صواتة الطاي بوا وعلم أصواتها

يوضح راينك (Pidgin French, p.48) أن اللغة المزيج التي يتكلمها المستعمرون كانت تبتعد قليلاً عن عادات الفرنسية النطقية وفي المقابل ، كان يُكتشف فيها معظم العادات التي تتضمنها المنظومة الفيتنامية عندما كان يستعملها سكان البلاد . وهكذا كان يمكن أن يلاحظ فيها ، مثلاً ، ظهور خمس طبقات صوتية (لهجات) من السايغونية ، حتى وإن كانت هذه الطبقات قد فقدت كل قيمة صوتية . والمجموعات الصوتية في كل الأوضاع ، كانت مخفوضة فيها إلى صامت واحد [bi.ət] → [nastrə] أو موزعة على مختلف المقاطع [əptə] → [ap.tyɔw]; [rapper] → [ɣw.rəp.bət] الخ . فإلى أي حد يمكن هندسة الكلام على صوتية وعمل أصوات خاصين باللغة المزيج ؟

IV/ ٤١ - معجم الطاي بوا ونحوها

يمتاز معجم هذه اللغة المزيج ، جوهرياً ، بأمرين : فهو مؤلف بنسبة أكثر ٩٠٪ من وحدات مقترصة من الفرنسية : وهو ، فوق ذلك ، محدود جداً ، إن دألاً مقترضاً يشمل غالباً مدلولات فرنسية شتى

[bov] تعني جلد peau كما تعني قشرة écorce :

[mən.ʒet] تعني أكل manger كما تعني عض mordre

[pas bon] تعني سيء mauvais كما تعني مظلوم émoussé (لكثة) . الخ .

وكثيرة هي التوريات = comme ballon [Kym.ba.ləwɔm]

enfler] (Reinecke, Pidgin French, p. 50).

لما فيما يفتن بالبحر ، فهناك ملاحظة تبدو ذات دلالة بوجه

خلاص (المرجع السابق ، ص ٤٨) : إن المتحدثين الفرنسيين يستطيعون عمداً الأشكال والنحو ويستعملون مقاطع من القبطانية حين يتكلمون مع خدامهم . ومما لا شك فيه أن المنظرين الذين يتحدثون عن لا قواعدية اللغات المزيج ، سيرون في ملاحظة راينك فاتحة وصف نحوي للطاي بوا . وبالإجمال ، يبدو أن كل بقية مقال راينك تسير في هذا الاتجاه ، وتبرهن ، على الأقل ، على أن نحو الطاي بوا يقتصر إلى عدد كبير من السمات أو التعارضات التي تكون القواعد الفرنسية : أسماء بلا تعريف ، أنواع غير مميزة ، عدد يبدل عليه السباق ، صفات غير قابلة للتبدل ، أفعال أيضاً غير قابلة للتبدل ، كل الأشكال الفعلية مخفوضة إلى ما يمكن أن يكون عليه مصدر التصريف الأول .

boir	= [bu.wei]	*boiver	:
cure	= [kw.ɛt]	*cuiser	,
vouloir	= [vu.lɔr]	*vouler	(الخ)

أما الأزمنة والصيغ فبعضها السياقي الذي تكونه بعض الظروف النادرة أو التوسعات الطرفية ، مثلاً ، hier = jour avant ، الخ . (Reinecke, Pidgin French, p.51-52) ، اليكم بعض العبارات التي أوردها المؤلف .

- Moi bouver thé jour avant (j'ai pris le thé hier);
 - Moyen manger (Vous pouvez / tu peux manger);
(ou le dîner est servi)
 - Moi pas beaucoup vieux avec toi (je suis plus jeune que toi/ vous);
 - Moi question lui venir café (je vais lui demander s'il vient au café)
- التي تعطي صوتياً (كما يلاحظ راينك : Pidgin French, p.52) .
[mɔ kɛ (t) s.ʌ wɛn ʔ wɛn ni a kafɛ]

IV/٤٢ - العدوى

إن المنظومات التي تسمى اليوم لغات مزيج^(١٧) (وإحياناً تسمى pidgina لغة مشوَّهة) جرى غالباً التقليل عليها ككلمات مصابة بالعدوى ، ككلمات مختلفة ، ككلمات متمازجة ، وهذا ما تبدو الطاي بوا مسوَّغة له .

بهذه التسميات كان يُشدد على ما كان يُقدَّر أنَّ أصل اللغات المزيج وسمتها المحددة أيضاً . وبالتالي فإنَّ البيئة الأولى هي أنَّ اللغات المزيج لم توجد ولم تتطور إلَّا في لوضاع لغات متصلة ، وإن من المحتمَّ حينئذٍ أن تكون لو أنها كانت خاضعة (مثل كل اللغات الاتصالية الأخرى) للتداخل اللغوي . إن الضغط الثابت للتداخل يفرض على اللغة المزيج تبدلاتٍ سريعة جداً في بعض الأحيان . ومن البين أنَّ بُناها غير متلفة ولا مستقرة . وكونُ صواتتها وعلم اصواتها وقراءتها ومعجميتها آتية من مصادر مختلفة ، لا يمكنه أن يكون السمة المحددة للغة المزيج . ففي الواقع ، كل لغة كانت لو هي في وضع اتصالي ، مهما تكن شروط هذا الاتصال ، هي لغة مصابة بالعدوى ، تمازجية ومختلطة . لا يُحكى عن لغة مزيج بسدد الانكليزية المُطبَّعة اليوم ، حتى وإن لم تكن سوى نتيجة إصابتها منظومة جرمانية بعدوى منظومة رومانية . والفرنسية الرَّاهنة يمكنها ، إلى حدٍّ معين ، أن تُعتبر لغة مصابة بالعدوى ، ويمكن اعتبار الفرنسية / الانكليزية (Le français) والعمَّا وحقيقة .

(١٧) في بادئ الأمر ، كانت مقربة Sabir ، مثل مقربة Lingua franca ، تدلُّ على واقع لغائي ملحوظ حول البحر المتوسط ، منذ نهاية القرن الثالث عشر

IV/٤٣ - الخفض ، التبسيط ، الإفكار

عندما تُوصف اللغة المزيج بأنها محكيّ أنتى أو لغة حيلة ، إنما تنحاز إلى جانب النظريات التي تحدّد اللغة للمزيج بوصفها خفضاً ، تبسيطاً أو أيضاً إفكاراً للغة أو لغة لغات أخرى . ومرة أخرى ، وللهمة الأولى ، فإنّ ما نعلمه عن الطائي بوا يبدو مبرراً للتسميات التي لا يمكن استعمالها هكذا بلا حصر أو تقييد .

وحين قارن ويليام ج . سبيلران (Lingua franca, p.668) اللغة المزيج (Sango) بالغة (Ngbandi) التي زوّدها ببعض هذه المكونات ، برهن على أنّ من غير المسوّغ تصوّر منظومة الأولى كأنها الخفض التبسيطي الوحيد لمنظومة الثانية . مثلاً ، تملك صوانة اللغة Ngbandi منظومة صوتيّة ذات ثلاثة وحدات ملانمة ، منظومة صوتيّة تستفيد منها كثيراً منظومة الأشكال النحويّة للغة (ضمائر ، أشكال ولزمنة الافعال ، تسمية لافعلية ، إلخ .) ، والسانفو ، من جهتها ، لا تستعمل دائماً الأصوات الخاصة بها كوححدات ملانمة ، فيرتب على ذلك تنظيم لأشكالها القواعديّة بحيث يمكنها في الواقع ، وبالمقارنة ، أن تظهر ذات بساطة كبيرة بالنسبة إلى منظومة نغباندية . ولكن ، في عمل السانفو ، تتلفى صورة أو زمن (صيغ فعلية مقدّمة في النغباندية) دالاً تلميحياً ، وهكذا يتمّ استعمال الموارد الممجمّية والنحويّة التي يمكن اعتبارها معوّضة عن بساطة منظومة كليّات السانفو . وإذا جرى الكلام على خفض أو إفكار الأشكال القواعديّة ، فسوف يتعيّن ضدّ الكلام على توسع في مستويات أخرى من اللغة .

هل من المناسب الكلام ، فقط ، على خفض وتبسيط وإفكار عندما تكون اللغة المزيج (أو لغة مزيج قديمة استحدثت لغة مألوفة) المستندة إلى أساس فرقي أو يرتقي ، مؤسّسة لمنظومتها

اللفظية والفظوية على تعارضات صورية / مفهومية . في حين أن الفرنسية والبرتغالية أعطتا ، كلتاهما ، الأولوية لتعارضات الأزمنة ؟ وأين يمكن حينئذ أن يكون التيسيم أو الإفطار؟ والحال ، فإن كثيراً من اللغات المزيجة والمولدة تملك ، على هذا النحو ، تعارضات فظوية / صورية ، خصوصاً بين لغات الأمومي . يبدو أنه من اللازم أن نرى في ذلك أكثر من خفض أو تبسيط ، ويتعين أن نرى فيه واحداً من الإسهامات المهمة للغات الإفريقية في صوغ اللغات المزيجة والمولدة ، وسبباً من الأسباب التوحيدية المنسوبة غالباً إلى المساهمة الإفريقية في تكوين اللغات المزيجة والمولدة .

IV / ٤٤ - حقائق اللغات المزيجة والاحكام القيمة

جرى التدليل ، غالباً ، على اللغات المزيجة (وعلى اللغات المولدة ، أحياناً) كأنها عاميات ، لهجات خاصة ، بطانات ، زنجيات صغيرات ، الخ . وفي الحقيقة ، إن المصطلح الخاضع للقيمة أحياناً لا يترجم أي شيء آخر سوى التردد في الاعتراف بهذه الحقائق اللغوية كما هي . وإن السؤال الذي تم تجاوزه اليوم جزئياً ، قد طرح مراراً وتكراراً . هل كانت اللغات المزيجة لغات أم لا ؟ في عداد الباحثين أنفسهم ، كانوا نادرين أولئك الذين لفتوا الانتباه إلى كون اللغات المزيجة نوات استعمال شائع جداً ، وإلى أنها كانت تستعمل في الإبلاغ بنجاح تلم . والحال ، إذا كان شمة لغة منذ أن يتم الإبلاغ في إطار نطق مزدوج من الطراز الصوتي . (Martinet, langue et fonction, p. 147) فعندئذ يبدو من الصعوبة بمكان حصر اللغات المزيجة من مركز المنظومات اللغوية ، وذلك على الرغم من عدم استقرار بنائها وعدم تلفها .

وحتى اليوم لا تزال مفردة pidgin ، مرادفة لمفردة Sabir ، فهي مشتقة من الانكليزية Business ، وعندما يدل على اللغات المزيجة

يوصفها لغات تجارية وإغاث علاقات شعبية ، إنما تَبَرَّز وتُمَيِّز أولى تصنيفاتها الوظيفية ، نعني للتصنع الذي يجعلها لغة تداولية شعبية بين مجموعات اجتماعية لا تجمعها من جهة ثانية أية وسيلة إبلاغ لغوي أخرى . وهذا لا يمكنه أن يفيد في تعريف اللغات المزيج إلا إذا أضفنا القول إنها ليست اللغة الأولى المكتسبة من طرف أي من متكلميها ، وإنها لا تفيد أحداً بوصفها لغة الحياة العائلية الصميمية . فما من أحد ينصّب نفسه مدافعاً عن لغة مزيج ، حتى وإن كانت مستعملة بشكل مكثف ؛ وما من أحد يكرُّ لها شعور الولاء الذي يكنّه غالباً تجاه لغة تسمى اللغته الأم . وما من أحد يحاول تدوينها وقوانينها ، ولا حتى تطبيقها ؛ ولا يهتم أحد بإمكاناتها المستقبلية .

إن اللغات المزيج ، لغات مكثلة ، ذات احتمال ضمني محض بالنسبة إلى جماعات اجتماعية معرومة وأمية في معظم الأحيان ، لم توجد أبداً إلا في الأوضاع الاتصالية حيث يفرض عليها ضغط التداخل المتواصل تغيّرات لغوية سريعة في كل لحظة . وكل هذا يجعل أن الفضل مميّز للغة مزيج هو عدم الاستقرار الدائم في بُناها ، وانتقارها إلى الاستقلال عن اللغات الاتصالية الأخرى ؛ عدم الاستقرار والانتقار إلى الاستقلال اللذان تمكّنت من إخطائهما بالتوصيفات التصارفية للغات المزيج .

IV / ٤٥ - تعدّد انساب اللغات المزيج والمولدة

إن لعبة المواضع اللغوية المتباعدة التي تستثيرها اللغات المزيج ليست بموجه الاحتمال غريبة عن عدم اكتشاف الباحثين أنفسهم ، المعطّن منذ أمد طويل تجاه هذه المنظومات ، وبالتالي منذ نصف قرن فقط ، بدأ الانكباب على التّطرّقي وقائعها اللغوية الرّاهنة ، وعلى وصفها ، وفهم الشروط التاريخية والاجتماعية لتطوّرها ونموها أيضاً .

بالنسبة إلى نظرية تعدد الأنساب ، استطاعت اللغات المزيج أن تظهر وإن تنمو مستقلة عن بعضها ، بوصفها لجوية عن لوضاع لغوية اتصالية مختلفة . كانت نظرية Baby talk واحدة من أولى نظريات تعدد الأنساب . فكل من المعلقون والزراعون أو التجار يستعملون في التخاطب مع خضعهم وعبيدهم أو زياتتهم ، نوعاً من الخطاب الطفلي قوامه بتزلفتهم وتبسيطها المقصود . رغم أنها لغة مُطبعة^(*) لقد طُوِّر بلومفيلد هذه النظرية حين جعل من المسار سلسلة محاكاة ارتجاعية (Sène récurrente d'imitations) : إن متكلم اللغة المطبعة يقلد ، بسخرية أو بهاجس الفعلية ، نتيجة الجهود الضائعة التي يبذلها مخاطبه لاستعمال هذه اللغة المقولبة ؛ ثم إن هذه المحاكاة ذاتها ستكون النموذج المستعمل مجدداً من قبل المُحاور الخ. بالنسبة إلى Robert A. Hall Jr. هناك توليد فطري للغات المزيج ، في بضع ساعات أحياناً ، كلما وأينما دعت الحاجة . بين بائع وذهوبه ، بين سائح ومرشده ، بين رئيس وموظفه . بين رب عمل ومخدومه . الخ . وتتعدد اللغة المزيج إلى حد معين عندما يجري استعمالها ، تالياً ، من قبل متكلمين آخرين . وسوف نغدو لغة مولدة (Creole) حين تصبح اللغة الأولى المكتسبة من قبل جماعة متكلمين ، ويمكنها أن تظل في ما بعد لغتهم الوحيدة (Hall Jr. Pidgins, p.151- 156) . هكذا ، يقدم هال لوضع تعريف للغة المولدة ذاتها ، ويضيف أن اللغة المزيج السابقة ، حين نغدو لغة مولدة ، سيكون في إمكانها أن تتطور ثلماً إلى لغة سوية ، في ما بعد . وكان هارفيث قد أوضح (Elements, p.156) . إن اللغات المولدة هي ، نساقياً ، كل شيء آخر (غير اللغات المزيج) ، لأنها تُحكى على

(*) أن هذا البتر وهذا التبسيط الارتجائيين هما اللذان كان المتكلمون يحاورون في ما بعد معاودة انتاجهما في استعمالهم الخاص

لسان جماعات متعاضدة من المتكلمين ، مع استبعاد كل لسان قومي آخر . في كل ظروف الحياة .

إن نظرية تعدد الأنساب تحيط تماماً ، عند هذا المستوى من صياغتها ، بالتكوين والنمو السريعين للغات المزيج (ومن ضمنها اللغات المتنوعة المولدة كثيراً من الوجهة الجغرافية) . وبالتالي ، تكون بعض منها في غضون الخمسة والعشرين عاماً التي يمثلها جيل : الفانغالو (Fanagalo) حول جوهانسبرغ ، اعتباراً من ١٨٦٠ تقريباً ؛ الهيدغن (Pidgin) في هاواي ، انطلاقاً من ١٨٧٦ ، الشيبوك (Chinook) للممارسة اعتباراً من ١٨٠٠ بين مختلف الأمم الهندية على الساحل الشمالي للمحيط الهادئ ، وبين الهنود في علاقاتهم مع الصاندين ذوي اللغة الانكليزية والفرنسية ؛ والروسنورسكية (Russenorsk) للممارسة في مطلع القرن العشرين بين الصاندين الروس والنرويجيين على سواحل المحيط الاركتيكي (Arctique) ، (والتي وصفها لولاف بروك Broch, Russenorsk, Archiv für Slavische Philologie. 41, 1927, p.209- 282)

كما تكونت لغات مزيج تكويناً أسرع ، وتلاشت بسرعة كبيرة أيضاً ، كما حدث للغة المزيج الممارسة في المعسكرات الألمانية طيلة حرب ١٩٢٩ - ١٩٤٥ ، والمفلاشية مع نهاية النزاع .

وتحيط نظرية تعدد الأنساب ، في سهولة أيضاً ، بالتماثلات الملحوظة بين تلك اللغات المزيج والمولدة التي تشترك في اشتقاقها من الإنكليزية ، وهي تحيط بالتشابهات القائمة بين لغات مزيج ومولدة تجمعها الفرنسية كمكون مشترك ، لو بين لغات مشتقة من الإسبانية لتلك المشتقة من الهولندية ، الخ

IV/٤٦- وحدة القُصْب

وبعد ذلك تكاثرت الدراسات التي تصف اللغات المزيج

والمولدة وتقاين بينها . ولول ما لوحظ فيها ان كثيراً من اللغات المزيج والمولدة المشتقة اليوم في عداد اللغات ذات الأصول الانكليزي ، الاسباني ، الهولندي لو الفرتسي . كانت قد احتفظت لمي معجميتها بعدد كبير من وحدات مصدرها البرتغالية كما لوحظ ايضاً للتفاهم المتبادل الممكن بين متكلمي اللغات الفرنسية المولدة في الباسيفيكي ومتكلمي اللغات الفرنسية المولدة في الاطلسي مثلاً . وكانت التماثلات البنيوية واضحة بين هذه اللغات المولدة . ولم يلاحظ فقط التشابه المعطى بين لغات فرنسية مزيج ومولدة ، بل لوحظ أيضاً التشابه بينها وبين اللغات المزيج والمولدة المشتقة من الانكليزية والاسبانية الخ . تبدو هذه التشابهات بالغة الأهمية في نظر بعض الباحثين^(١٨) لدرجة أنها لا تكون إلا نتيجة للارتجال اللغوي التداخلي الأولي وحده ، الارتجال الذي تتضمنه النظرية القائلة بتعدد الانساب أو الأصول ، وعندئذ وضعت نظرية النسب الواحد للغات المزيج والمولدة.

في نظر القائلين بهذه النظرية ، صحيح أن اللغات المزيج كانت حلاً لأوضاع اتصالية بالغة النوع ، لكن هذه الحلول لها أصل مشترك ، على الأقل كلما تكون لو كلما كانت إحدى اللغات الاتصالية لغة سلطة اوروبية امبريالية (Grimeshaw, Social forces, p.430). غير أن ملاحظة غريمشوا لا تنتزع شيئاً من شجاعة الفرضية القائلة بوحدة النسب أو الأصل . إنما توضح فقط حدود نظرية قائمة على ظاهرة تاريخية (ظاهرة الامبريالية البرتغالية

(18) • These similarities are too great for coincidence: elimination of inflections for number in nouns and for gender and case in pronouns, identity of adverb and adjective, use of iteration for intensification of adverb-adjectives, development of compound preposition using the Portuguese na and de, use of verbal aspects marked by syntactic particles rather than true tenses, etc. - (Decamp, Introduction, p.21).

وخلفاتها ، وصغيرة عن رؤية سوسيوإوجية بفروع خاص ، للوقائع التي هي اللغات المزيج والمولدة .

إن تشتت اللغات المزيج والمولدة عبر الملم بأسره استطاع وحده أن يتسببنا أحياناً واقع أن معظم هذه المنظومات تملك تركيياً هندية/ أوروبية : برتغالياً ، انكليزياً ، هولندياً ، فرنسياً ، إسبانياً وحتى أن موضوع اللغات المزيج والمولدة هو معطى ذو دلالة لأنها تقع جميعها بالقرب من طرق الملاحة البحرية الكبرى ، ولأنه يتعين تماماً ، عندئذٍ ، أن نقيم علاقة بين وجود هذه المنظومات وتاريخها وبين وجود الرحلات المحيطية وتاريخها (Samarin, *Lingua franca*, p.667) . وحسب نظرية وحدة النسب يمكن لمختلف اللغات المزيج والمولدة المعروفة اليوم أن تكون ممثلة للغة مزيج أولى (Pro- to-Sabir) ذات أساس برتغالي ، تطورت اعتباراً من القرن الخامس عشر ، منذ الاتصالات الأولى مع إفريقيا ، ثم ربما تكون قد انتشرت حتى مرافئ الشرق الأقصى ، ففي كنفقون ، في مطلع القرن الثامن عشر ، كانت التجارة الانكليزية لا تزال تجري بواسطة مترجمين أوروبيين - آسيويين برتغاليين ، كانوا يترجمون الصينية إلى لغة برتغالية مزيج كان يفهمها البحارة الإنكليز.

وتذهب نظرية وحدة أصل منظومات اللغات المزيج والمولدة إلى أبعد من ذلك أيضاً ، فتجعل البرتغالية الأولى ذاتها مشتقة من لغة وسيطية مزيج ، هي اللغة الفرنكية المتوسطية . فهذه اللغة المزيج المستعملة من القرن الثالث عشر كانت أولاً لغة علاقات شعبية تستفيد منها أرباط الصليبيين ، ولكنها استعملت أيضاً كلغة دبلوماسية شفوية في ما بعد ، وعاشت حتى نهاية القرن التاسع عشر ، في أشكال كانت تتراوح فيها للمساهمات الرومانية (البسروغيسالية ، الايطالية ، الكتالانية ...) وغير الرومانية (المالطية ، العربية ...) ، (Périgo, *Sabirs*, p.597- 667).

ولذا كان البرتغاليون هم المعلمين الأبطال لعصر الاكتشافات العظمى ، فقد كانوا أيضاً في عداد الأوائل الذين حللوا إقامة مكاتب حراسة (Comptoirs) وأميراطوريات استعمارية وتعمكّوا من إظهار أنفسهم نخّاسين منظمين وفعاّلين نسبياً . إذن دخلت لغتهم واللغة المزيج الأولى التي كانوا يتداولونها ، مجال الاتصال والاحتكاك باللغات الأكثر تنوعاً والأكثر تنوعاً في الأماكن ، وذلك في نطاق علاقات اجتماعية دقيقة تماماً . فمن القارة الأميركية إلى جزر الباسيفيكي ، مروراً بأفريقيا والهند والصين ، كانت اللغات المزيج والمولدة حيث يسود المنتصر البرتغالي قد شهدت أو لا زالت تشهد وجود هذه الاتصالات بين اللغات .

إن نظرية النسب الواحد ، القائمة على وجود وتاريخ عدّة لغات برتغالية مزيج ومولدة ، قد انكبّت بعد ذلك على تبيان كيف أمكن الانتقال من هذه المنظومات إلى اللغات المزيج والمولدة التي لم تعد لعلاقاتها بالبرتغالية واللغة المزيج البرتغالية الأولى أي شيء واضح من حيث التساوق والتزامن .

IV/٤٧- تجديد البناء المعجمي

إن فرضية تجديد البناء المعجمي للغات المزيج والمولدة ، المطروحة في مطلع الستينات (١٩٦٠) ، إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية وحدة أصل هذه المنظومات . إن إبدال جزء من معجم لغة مزيج ممكن دائماً ، بواسطة اتصال مع لغة جديدة ، وإن تجديداً جزئياً للبناء المعجمي يمكنه دائماً أن يسبق التوليد اللغوي (Créolisation) .

مع ذلك ، يفترض أنّ في اللحظة التي تتولّد فيها اللغة المزيج وتصبح اللغة المكتسبة الأولى لجماعة من المتكلمين كبيرة نسبياً ،

تقيد إلى بعد حدٍ من مساهمة معجم اللغات المختلفة التي تكون عندئذٍ على اتصال بها . وبالتالي ، فإن اللغة المزيج ، إذ تغدو لغة الجماعة الأولى ، يتوجب عليها أن تلبّي عندئذٍ جميع حاجات الحياة اليومية الإيلاغية ، ويتعيّن عليها بالنتيجة أن ترفع الاحتياطي المعجمي الذي تستلزمه هذه العملية التوليدية . وغالباً ما تكون لغة الجماعة الاجتماعية المهيمنة في الوضع الاتصالي هي اللغة التي تقتضى منها اللغة المزيج كثيراً من قروضها المعجمية . إن هذا الوضع المعجمي^(١٩) للغة المزيج السائدة على طريق التوليد اللغوي يمكنه أن يصل إلى حد التجديد الكامل لبنائه المعجمي ، أي إلى حد إبدال كل مخزونه المعجمي أو معظمه ، بما فيه النواة التي جرت العادة على تسميتها بالمصطلح الأساسي ، وعندئذٍ لن يبقى من المرحل التي سبقت تجديد البناء المعجمي ، سوى البنية القواعدية للغة المزيج ، وربما عدد من الوحدات المعجمية محدود نسبياً .

ساد الاعتقاد أولاً أن تجديد البناء المعجمي للغات المزيج - المشتقة من لغة مزيج برتغالية أولى ، حسب نظرية وحدة النسب - كان معقولاً وميسوراً بقدر ما كانت اللغة الرومانسية هي المصدرة للمعجمية الجديدة . وبكل خيبة خاطر ، كانت تذكر حالة مجسومة اللغات الفيليبينية المولدة، فهذه اللغات المولدة تصفّ اليوم في عداد اللغات الأسبانية المولدة نظراً لقاعدتها المعجمية (حيث يوجد إلى جانب ذلك وحدات آتية من التاغالوغ Tagalog ومن لغات محلية أخرى) . وقد تكون هذه المنظومات قد وضعت في الموليك ، خارج الأرخيفيل الفيليبيني ، طيلة النصف الأول من القرن السابع عشر ،

(١٩) يستعمل أحياناً مصطلح Supralexification عندما لا يتعلّق الأمر إلا بجمع معجمي . ويحتفظ مصطلح Relexification لإبدال المعجم القديم ذاته إبدالاً كلياً أو شبه كلي .

عندما يدخل جنود مكسيكيون ، إذن نولغة إسبانية ، في اتصال مع متحدث موليكوي (Molukues) كلن يمارس لغة برتغالية . وكانت تذكر أيضاً أمثلة لغات مولدة مثل لغات غويانا والبرينينيون التي لم يكن العنصر البرتغالي قد زال عنها وامحى تماماً بفعل تجديد بناء معجمي كان قد استفاد من المنظومة الفرنسية.

ولكن الواضح تماماً هو أن تجديد البناء المعجمي للغة البرتغالية المولدة الأولى ، لم يتم دائماً إنطلاقاً من لغات رومانية . فقد قُدمت الصينية ، الانكليزية ، الهولندية ، الزولو أو البانتو ... مصطلحاتها للغات مزيج ومولدة ، لم يعد العنصر المعجمي من أصل برتغالي إلا عنصراً زهيداً فيها اليوم . إنَّ تعدد المصادر المعجمية للغة مزيج أو مولدة يمكنه أن يكون كبيراً جداً . ومثال ذلك بعض الألوان من اللغة المولدة في السورينام^(٢٠) التي تلت من الانكليزية كمية معجمية كبيرة، مع حفاظها على ما يقارب الثلث من المصطلح البرتغالي ، الذي تنضاف إليه وحدات معجمية من أصل هولندي وإفريقي . وفي لغة البابيامنتو (Papiamentou) في كوراسوا ، تنضاف وحدات معجمية من أصل هولندي إلى مجموعة وحدات معجمية آتية من الإسبانية ، الخ .

٤٨/IV - تجديد البناء الفحوي

إن في نظر نظرية النسب الواحد وكذلك في رأي نظرية تعدد

(٢٠) من بين هذه اللغات المولدة ، فلتشر إلى القائمة التي تمكنا ، بشكل خاص من الوجهة الصوتية ، المولدملكان (Saramaccan) حيث تركت بصماتها المنظومة الصوتية للغات إفريقية . مثل كـ Kibongo وريما Bantou . ومن وجهة مختلفة ، تنبغي الإشارة أيضاً إلى أن لدى هذه الأولى المولدة في السورينام - Le Druk . فريد من حيث تطويره منظومة كتابة مقلدة ، على غرار بعض لغات إفريقيا الغربية

الأنساب ، اللغة المولدة هي لغة مزيج سابقة ، استحالّت لغة أولى اكتسبتها جماعة من متكلمي ، وتمكّنت لاحقاً من أن تظل لغتهم الوحيدة . مع ذلك طرح السؤال عما إذا كانت جميع اللغات المولدة قد عرفت ، حقاً ، المرحلة الأولى من اللغات المزيج (Pidgins) ، وما إذا كانت هذه هي نقطة الانطلاق الوحيدة الممكنة لتطورها .

على هذا السؤال تحاول أن تردّ الدراسة التي أجراها غومبرز وويلسون^(٢١) حول وضع كوهوار اللغوي التبعدي (Convergences) (p.151-157) فعندما انتهيا من وصف المتغيرات اللغوية الظاهرة في الألوان المحكيّة من الأوردي ، الكنادا والماراثي المتصلة منذ لقرون هي متحدّ كوهوار اللغوي ، برهن المؤلفان على عدم وجود أي من هذه التغيرات التي تتضمن فقط إثنين من الألوان الثلاثة القائمة ، مع استثناء اللون الثالث . فكل هذه التغيرات هي ملتقيات تتضمن الألوان الثلاثة بوصفها مجعاً ، سواء اجتذبت لوناً إلى اللونين الآخرين ، أم اجتذبت لونين إلى الثالث ؛ ويمكن تفسير جميع هذه التغيرات بوصفها تخفيضات أو تعميمات تبسيطية تتوافق مع حاجة إلى التكيف المتبادل بين المستمعين داخل القرية . وهذا يكون النتيجة الأوضح هي أن هذه التغيرات تفضي إلى ظهور ثلاثة ألوان محلية متوازية تتضاهي مع اللغات المولدة (Creole-like varieties) في أنها ، بعد هذه قرون من الاتصال ولكن دون المرور بمرحلة اللغات المزيج ، تظهر وتطوّر مسارات خفض وتلاقٍ خاصة باللغات المزيج والمولدة . ونجد فيها ، كما نجد في اللغات المزيج والمولدة ، بنية قواعدية ومعجماً قادمين من مصادر مختلفة ، بحيث أن الكلمات القادمة من لغة تستعمل فيها مع قواعد لغة أخرى ، الخ .

إن ما يميّز جوهرياً الألوان المحكيّة في كوهوار من اللغات

(٢١) راجع هنا IV/١٢ وما بعده

المولدة ، هو كونها لم تنطلق من لغة مزيج ، وانها لم تمر في مرحلة عدم الاستقلالية وعدم الاستقرار الأولي والتغيرات المتصاعدة التي عرفتها اللغات المزيج . إن المسارات المؤدية إلى اللغات المزيج والمولدة لا تختلف بطبيعتها عن المسارات الموجودة عموماً في اتصال اللغات ، فالفرق بين هذه وتلك لا يمكنه ان يكون إلا اختلافاً في الدرجة ، كما يستنتج غوميرز وويلسون (Convergence, p. 162) (165) . أخيراً يلتفتن الانتباه إلى أن الأولن المحكية اليوم في كوبرار ، إذا كانت تحتل المقارنة فليس ذلك لأنها تعرضت لعملية تجديد في بنائها المعجمي ، بل لأنها بخلاف ذلك بذلت بناءاً القواعدية . وهذا يوحي بكل وضوح أن تجديد البناء المعجمي لم يستطع أن يكون إلا واحداً من بين التغيرات الطارئة على تطور اللغات المزيج والمولدة ، وأن تجديداً جزئياً على الأقل للبناء المعجمي⁽²²⁾ يمكنه هو أيضاً ان يكون جزءاً من هذه التغيرات .

إن دراسة اللغات المزيج واللغات المولدة ، وإن فرضيات تجديد البناء المعجمي والنحوي التي تتطور من خلالها ، تبدو مژغة لما كانت تقترضه صيغ التداخل المعجمي : التكامل بين المعجمية والقواعد يبدو أحياناً نسبياً في لغة واحدة .

وحسب النظرية القائلة بوحدة النسب ، سيكون انن ، عقلياً ، التسليم بفرضية تجديد البناء المعجمي والنحوي على التوالي ، إنطلاقاً من اللغة المزيج البرتغالية الأولى الواصلة إلى مرامى الشرق الأقصى ، وصولاً إلى اللغة البرتغالية المزيج التي كانت لاتزال تمثلها في كانتون في القرن الثامن عشر ، ثم وصولاً إلى اللغة

(22) - The local Kupwar varieties might be said to have undergone resyntactification, if the term may be excused for the sake of the contrast .
(Gutierrez et Wilson, convergence, p. 166).

المزيج الصينية - الانكليزية مثلاً ، الملحوظة في ما بعد في المناطق نفسها ، والمنتشرة من ثم على امتداد خطوط الملاحة الكبرى نحو غينيا الجديدة ، للوصول إلى اللغة المزيج الانكليزية - الميلانيزية الملحوظة في هذه الجزيرة وحواليها ، والتي صارت ، من جزاء التزايد اللغوي ، الملاينيزية الجديدة .

IV/٤٩ - اللغات المزيج والمولدة اليوم

إذا كان من الصعب نسبياً الحكم المسبق على الصيغ الدقيقة التي كانت في الماضي صيغ تطور المنظومات من طراز اللغات المزيج والمولدة، فذلك جزئياً لأن الدراسات التحقيقية لا تملك عدداً كبيراً من الوثائق المتعلقة بها ، ولا مدونات وافرة عن الأحوال القديمة لتلك اللغات . وحدها بعض النصوص الكبرى ، الدينية بخاصة ، كانت قد ترجمت في وقت مبكر جداً لأجل متكلمي بعض اللغات المولدة ، عندما كان عدد هؤلاء المتكلمين يسوّغ مشروعاً كهذا . وبعد ذلك ، سمح هذا الأمر للغات المولدة بأن لا تطل دائماً كلياً بمسأى عن كل ثراث مكتوب . وظل هذا النوع من التوثيق والتدوين نادراً جداً بالنسبة إلى اللغات المزيج ذات الاستعمال الشفهي جوهرياً . كذلك تتوجب الإفادة خصوصاً من مشاهدة الظروف الحاضرة لوجود هذه المنظومات وتطورها ، لاسيما مشاهدة ديناميستها الراهنة وتوصيفها التساوقي ، لكي يقوم ماضيها أفضل تقويم . والخلاصة أن الدراسات المتعلقة باللغات المزيج والمولدة الملحوظة حالياً ، قد تكاثرت : وانها قد يتوجب عليها أيضاً أن تقدم الكثير . خطأ ، لأعمال اللسانيين وعلماء الاجتماع لو الإحاسة النظرية ، ولكنها باتت مبررة إلى حد كبير نظراً لأن اللغات المولدة هي اللغة الأولى لنحو ستة ملايين متكلم ، ولأن استعمال اللغات

المزيج هو واقعة حياتية يومية لمليوتين إلى ثلاثة ملايين شخص في العالم^(٢٢).

IV / ٥٠ - الملاييزية الجديدة

من بين المنظومات ذات النقط اللغوي المزيج والمولد ، أفادت الملاييزية الجديدة إفادة كبيرة من اهتمام الباحثين ، ربما لأن ماضيها الحديث كان معروفاً جيداً ، ولكن أيضاً بسبب القيمة المثالية التي اكتسبها التطور الراهن لوقائعها اللغوية والاجتماعية .
إن الملاييزية الجديدة الرامنة المعروفة سابقاً بعدة أسماء (Bicho de mer, beach la mer, bêche de mer, sandalwood English, tokbol, sabir anglais mélanésien) والوانها (المزيج الانكليزي Papou والمزيج الانكليزي الاوسترالي) تحتل مداراً جغرافياً مركزه أراضي المستعمرة الانكليزية القديمة في غينيا الجديدة ، في الشمال الشرقي من الجزيرة المعروفة بهذا الاسم . لكن هذا المدار يمتد أيضاً إلى بابوازي ، في الجنوب الشرقي من الجزيرة ، ويشمل بعد ذلك أرخبيل بسمارك ، جزر سلومون وجزراً من Nouvelles Hébrides شرقي غينيا الجديدة ، وأخيراً يشمل جزءاً من أراضي أستراليا

تتقاسم الملاييزية الجديدة مدارها الجغرافي مع عدد كبير من اللغات . فبالإضافة إلى لغات البابوا في غينيا الجديدة ، وبعض من الـ ٢٢٨ لغة في القارة الأسترالية، تنقسم اللغات المحلية في المنطقة إلى هذا القرع لوزاك من الأسرة الأوسترونيزية (Austronésien) . أن الانكليزية هي اليوم اللغة الغريبة الوحيدة

(٢٢) هذا حسب التقدير الرقمي الذي يعطيه دكامب (Decamp, introduction, p. 17)

تمثيلاً في للعداء الجغرافي للملانيزية الجديدة . لكن التاريخ الاستعماري كان قد حمل إليها في عصور شتى ، البرتغالية ، الهولندية والألمانية . إن للملانيزية الجديدة ، بوصفها لغة مريخاً ، تشهد خصماً في الجنوب الشرقي من جزيرة غينيا الجديدة ، هو الـ (Police-motu) ، كلفة علاقات بين القبائل وكلفة مستعملة رسمياً حتى الحرب العالمية الثانية من قبل الإدارة الأسترالية مع سكان غينيا الجديدة لاسيما في بور مورسبي عاصمة بايوازي وحلها . تعتبر للملانيزية الجديدة مشتقة من اللغة المزيج الصينية - الانكليزية الممارسة اعتباراً من القرن الثامن عشر في سواحل الصين ، وبالتالي ، بين الصين وجزر المحيط الهادئ . ان النظرية القائلة بوحدة النسب تجعل من هذا المزيج الصيني - الانكليزي نتيجة لتجديد البناء المعجمي والنحوي إنطلاقاً من مزيج برتغالي أدم . واليوم ، يملك نحو الملانيزية الجديدة سمات يمكن عزوها إلى التأثير الملانيزي ، ولم يعد له سوى قليل من التماثلات مع هذا أو ذاك من تلك المكونات الغربية القديمة التي جرت المحاولة لنسبها إليها . إن الكلمات ذات الأصل الانكليزي أو الألماني لاتزال كثيرة في مصطلحاتها حيث تميل جنباً إلى جنب مع وحدات آتية من الكوانا (Kuana) لغة التولين (Tolars) في أرخبيل سمارك

IV/٥١ - نمو الملانيزية الجديدة : ترسيمة قديمة

يتكلم الملانيزية الجديدة ٥٢٠,٠٠٠ متكلم في غينيا الجديدة . وهي بالنسبة إلى عشرة آلاف منهم اللغة المكتسبة الأولى والوحيدة التي يمتلكونها في المُنطَلَق^(٢٤) وهي بالذات لغة مزيج في

(٢٤) هؤلاء العشرة آلاف من ذوي اللغة للوحدة هم متكلمون في غينيا الجديدة لم يكتسبوا اللغة المحلية لجماعتهم الأصلية لانهم كانوا يقطنون في مساكن أخرى ولكنهم لا يعيشون مع ذلك في الأوساط التي يسودها استعمال الانكليزية .

طريق التوالد اللغوي . ولكن مجموع الذين يستعملونها يوماً بيزيد
عن المليون نسمة .

إن التوسع الكبير الذي استطاعت أن تبلغه الملاييزية
الجديدة ، بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، انطلاقاً
من مناجم المنطقة ومزارعها حيث كانت الممارسة اللاشريعية
لـ (Black birding) تقود الناس إلى العمل بالقوة في مناطق متنوعة
جداً وغالباً ما تكون متباعدة من بعضها . هؤلاء الناس كانوا يشكلون
جماعات صغيرة من متكلمي لا تجمعهم لغة مشتركة ، مما كان
يهم حينئذ استعمال لغة علاقة .

إن الظروف اللسانية الاجتماعية للتوسع الأول للملاييزية
الجديدة تتوافق تماماً مع ترسيمة مأثورة ، قديمة من الآن فصاعداً .
لقد استمرت متحدات محرومة من وسيلة اتصال لغوي بين
الجماعات ، في مركز استيعابي ، بفعل ميزان القوى الاجتماعية
(لاشريء ، أحياناً ، سوى العمل بالقوة !) إن الفئة الاجتماعية
المهيمنة ، تلك التي تخلق في الواقع ميزان القوى الاجتماعية ،
تمارس عموماً منظومة لغوية يكون لونها من ألوانها مُطبعاً . عندئذ تنمو
اللغة المزيج لا لتعمل كجسر فوق الهوة الفاصلة بين الطبقات
والفئات الاجتماعية المتنازعة ، بل ربما تستعمل كوسيلة اتصال لغوي
مستقرة بين الجماعات المهيمنة . وحتى إذا كانت اللغة المطبوعة
تقدم جزءاً كبيراً من معجميتها إلى اللغة المزيج ، فإن متكلمي هذه
اللغة المطبوعة (أفراد فئة اجتماعية سائدة : مالك المزارع في غينيا
الجديدة أو الأنتيل ، أصحاب المناجم وكوادرها ، الانكليز في
الصين الأميركيون في تايلوان ، الخ) ناعراً ما ياضنون وقتهم
ويبدلون المحوود اللازم لتعلم اللغة المزيج التي قد يتوجب عليهم أن
يكتسبوها كما تُكتسب لغة أجنبية . هناك عدة لغات يكون متكلموها
في وضع استيعابي ، وهناك لغة مطبوعة متعلقة بالفئة الاجتماعية

السائدة : إنَّ يتطوَّر نمو لغة مزيج في أغلب الأحيان بوضع تعددية لغوية حقيقية - وليس فقط بثنائية لغوية.

رَدَّ على ذلك أن الاستنتاج بأن الاتصال بين عاميتين من منظومة واحدة لا يؤدي دائماً إلى ظهور لغة مزيج كلفة مزيج (Henigswald creole studies, p. 474) وأن هذا الأمر قد يعود إلى بديهته تكوُّل ليست هذه في الواقع سوى طريقة للتشديد في المواضيع التي تتطوَّر فيها اللغات المزيج ، على الأهمية المتعاظمة ، غالباً ، للاختلافات بين المنظومات المتصلة ، لأنها طريقة تسهم في الواقع ، بكيفية حاسمة ، في نمو لغة العلاقة واستعمالها ، وتكون بعيدة من تشكيل حاجز بنيوي . وقد لا تكون اختلافات البنى عتبة إلا بقدر ما تشكل الفئات الاجتماعية القائمة مجتمعاً بشرياً في حالة صدمة ثقافية حقيقية (Ibid., p. 475) .

IV/٥٢ - الملاييزية الجديدة في تصنُّعاتها الوظيفية

في غينيا الجديدة استخدمت الملاييزية الجديدة ، أساساً وبكيفية ثابتة ، كلفة علاقة بين المتمدات التي تمارس لغات الباهو على اختلافها ، وأيضاً بين هذه المتمدات والمجتمع المتأورب وطالما استلزمات الثقافة والنمط المجتمعي الباهو أن يحافظا على تماسية نسبية في مواجهة الغزوات الاستعمارية الانكليزية ، الألمانية أو الأوسترالية ، فلن الوضع كان يظل مستقرّاً .

بعد الحرب العالمية الثانية ، طرح وجود الملاييزية الجديدة وتوسعها مسائل سياسية أهم من ذلك أيضاً . إذ كان مجلس وصاية الأمم المتحدة يعارض تدوين هذه اللغة وتطبيقها واستعمالها في المنظومة التربوية . وكان يقال إن وسعها بتصنُّعات وظيفية جديدة

من شأنه أن يؤخر نمو الانكليزية التي صارت لغة رسمية . وإن تشجيع الملاييزية الجديدة من شأنه تعقيد مستقبل وضع لغوي بالغ التعقيد بالأساس

ومع ذلك فإن اكتساب الملاييزية الجديدة هو اليوم ، من عدة جوانب ، العنصر الأهم في النهضة الاجتماعية للكثيرين من سكان غينيا الجديدة بوصفهم سكاناً ، فهذا الاكتساب هو المنعطف الأهم في وجود أولئك القوميين الجدد الذين يبحثون عن عمل ، خارج جماعتهم الأصلية (Waller, Neo, Melanesian P.413-419). ومن المحتمل أن يطلب منهم أن يعرفوا هذه اللغة معرفة كافية لكي الغالب لا يزال تكلم الملاييزية الجديدة وسيلة مضمونة لاكتساب الشهرة والوجاهة من جانب أولئك الذين يستطيعون التماسي مع الأوروبيين أو مع الحضريين عامة^(٢٥) . إن استعمال الملاييزية الجديدة ييسر حفاً ويسهل الأعمال في جمعية إقليمية حيث يمكن لكل مسألة أن تتخذ من جزاء المسائل اللغوية ذاتها . ودون أن يكون للملاييزية الجديدة حق المواطنة في هذه الجمعية ، فإن هذه الأخيرة تنظر خصوصاً في هذه اللغة ، ورغم ذلك ، لا تزال هذه المنظومة دون رموز رسمي مكتوب . كثيرون هم الغنيون الجدد الذين يربطون الملاييزية الجديدة بمشاعرهم القومية ، وقد تكون تيار رأي ربما لا يرفض مركز اللغة القومية لما كان بالأمس مجرد لغة مزيج .

إن انتشار الملاييزية الجديدة في المجتمع الغيني الجديد وتولدها اللغوي الجزئي لا يعودان فقط إلى المسار الثقافي المحض الذي يتراجع فيه المجتمع الهامو وثقافته تراجعاً ظاهرياً أمام النماذج الغربية ، في الوقت نفسه ، يعود هذا الانتشار وهذا التولد اللغوي

(٢٥) أكثر من ٨٠٪ من السكان مولودون

للملائمة الجديدة ، وبكل وضوح ، إلى الاستيعاء السياسي والوطني الذي يتم في الفئات الاجتماعية التي قد تقول عنها اللسان الاجتماعية الأميركية إنها جماعات لا تزال في موقع استثنائي

IV/٥٣ - أهمية الأبحاث حول اللغات المزيج والمولدة

إذا كانت اللغات المزيج والمولدة تلفت اليوم الاهتمام الأكبر لدى اللسانيين واللغويين الاجتماعيين معاً ، فليس في ذلك أي شيء مدهش . فبالنسبة إلى اللساني ، لا تكمن أهمية اللغات المزيج والمولدة ، فقط ، في الحالة اللغوية التي هي حالتها في التساوق بالذات : بل تكمن أيضاً ، وفي وقت واحد ، في وضوح ديناميتها الزائفة وفي التغيرات الجارية الملحوظة في مستوى بنائها . وإن هذه الدينامية وهذه التغيرات هي من الأهمية بحيث أنها تقبل القراءة بكل وضوح ، فلم تنجح ، وبكيفية ما ، لم تمنح من جزاء مسير القوينة والتطبيع الذي عانى منه كثير من اللغات الأخرى في غير مكان ، زد على ذلك أن اللغات المزيج والمولدة تقدم للباحث المهتم بمسائل التداخل اللغوي موضوعاً دراسياً من المرتبة الأولى ، حتى على الصعيد النظري.

لما بالنسبة إلى الباحثين الأقل موضوعية ، فليست اللغات المزيج والمولدة سوى اللغات المفقرة والمصابة بعدوى الهامشية ، الجهالة ، البلادة ، الفلج ، الخلف ... وحتى من جانب العلميين ذاتهم ، كانت موضوع لا ميالة مديدة . ولدى متكلميها بالذات ، تستطيع أن تكون مثار سخرية بقدر ما تستطيع أن تغزو من رموز الهوية ، وأن تولد مشاعر ولائ عميقة .

إن تعدد المواقف اللغوية المرتبطة بمعطومات اللغات المزيج والمولدة ، يقدم إذن للساني الاجتماعي حقل مشاهدة لا يقل تعقيداً

عن الحقل الذي يقدمه الاشتراط الاجتماعي / الاقتصادي والاجتماعي / الثقافي ، الماضي والحاضر ، لهذه اللغات . لما بالنسبة الى المستقبل فيتعين تجديد القول إن بعض اللغات المريج والمولدة (مثلاً الـ Crioulo في جزر الرأس الأخضر وغينيا بيساو) هي من الآن فصاعداً في صميم اهتمامات التخطيط اللساني لما بات البعض يسميه اللسانة الاجتماعية المطابقة .



الفصل الخامس

السياسات

والتخطيطات اللسانية

١/٧ - في تعدد التعريفات :

بعض تعريفات التخطيط اللساني منقطة إلى حد الفوضى فلا نكاد نلمح الواقع فيها إلا بهناء . وثمة تعريفات أخرى أكثر وضوحاً ؛ لكنها لا تحيط إلا بمركز الاهتمام أو بالتجربة الشخصية لأولئك الذين وضعوها ، واليكم بعضاً منها . إن التخطيط اللساني مجموعة محارلات ومجهودات واعية ومنظمة ترمي إلى حل المسائل اللغوية ، إنها قرارات متخذة للتأثير على الممارسات والاستعمالات اللغوية ، ولتشجيعها أو لإحباطها . وإن التخطيط اللساني هو مجموعة جهود مبدولة لتغيير شكل لغة ما واستعمالها . لتغيير الخطاب عندها وهو إكمال لغة تعبر عن فرادة وطنية . وهو إصلاح لغة وقولبتها بكيفية معيارية . وهو إعطاء رموز مكتوب (Code écrit) للغة تقتقر إليه . إنه تحديد الوسائل الطوعية للتوصل إلى التثائية اللغوية في الحقبة الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية . وهو تكييف التجربة المكسبة في تاريخ اللغات الأوروبية مع الواقع اللغوية في البلدان المستعمرة . وهو جعل معجزة لغة ما متوافقة مع النمو الاقتصادي ، الاجتماعي ، التقني أو الثقافي لبلد ما . ومن الممكن أن تطول اللائحة حتى أن هذه التعريفات حين تنال صامنة عن

المسؤولين ، فإنها تعزو إلى التخطيط مشاريع وبرامج ومنجزات لا يمكن أن تتصورها لو أن تقرير تحمل مسؤوليتها إلا سلطة الدولة وحدها . وبالتالي تبدو حقاً أنها الوحيدة القادرة على السعي لتنظيم الوقائع اللسانية واللسانية / الاجتماعية وتطورها ، الوحيدة القادرة على التدخل بفعالية معينة لتبذل عدداً الاستعمالات القائمة .

ويخالف التخطيط ، لم تحظ السياسة اللسانية إلا بتعريفات نادرة . فلك أنها من دون شك ، غالباً ما ارتدت في الماضي رداء عدم التدخل - في الموضوع بشكل فعال مثل نقيضها ، أي التخطيط اللساني ، لو أنها ارتدت شكل تدخلات تهريبية ، معزولة في المكان والزمان ، وعاجزة عن خلق تراث طرائقي (ميثودولوجي) . إن التأثير المعاصر لمسائل لغوية طارئة وملحة استطاع وحده أن يجبر السياسة اللغوية على التجسد غالباً في تخطيطات حقيقية ، وأن يدفع الباحثين في وقت واحد إلى أن يستخلصوا من التهريبية نظرية خاصة ، لا تزال حتى اليوم في طور الصياغة والإحصان .

٢/٧ - الممارسة القديمة ، المثال الفرنسي

لم تعرف القرون الوسطى سوى لغة واحدة ، اللاتينية ، ولم تكن اللغات الأخرى ، حينذاك ، سوى (لغات محكية) عامية Vulgaires . ونكرر أن الفرنسية تدعى لوضوحها بكونها لغة الدبلوماسية . وكان Le Conventionnel Barère قد كتب . ليست الانكليزية سوى اللسان الكريم الخاص بالمصرف والكمبيالات ، والعربية الماثورة هي لغة حقيقية ، وليست عامياتها سوى تهجين مؤسف ، من دون كتابة . لا يكون للغة قواعد ، وهي بالتالي ليست لغة حقيقية . إن للفشتالية لغة فلسفية ، والنابولية لغة طرب وغناء . وإن الخط المتواصل للوقائع اللغوية حقاً والواقعات غير اللسانية التي ترتبط بها ، أدى في كل زمان إلى صدور أحكام قيمية على

اللغات ، وهي أحكام مرتبطة بالفكرية ، وفيها تنعكس العلاقات والنزاعات الاجتماعية ، للمصالح أو للصراعات الاقتصادية ، السياسية ، العسكرية أو الدينية ، ومع ذلك غالباً ما كانت السلطات تحاول ، باسم الحكم من هذا النوع ، القيام بتدخلات مقصودة ولكنها منتظمة ، شكلت جزءاً من تاريخ اللغات ، بدءاً من تاريخ الفرنسية ، وعندما استلزمت ذلك الفعالية العملية ، لم تنترد الملكية الفرنسية في فرض المحكمات الرومانسية بمواجهة اللاتينية في إدارتها ، ثم الفرنسية وحدها في الإجراءات الجنائية والأحوال الشخصية . وما بين ١٦٨٤ و ١٧٦٨ ، ضمت السلطة الملكية ، بالغزو أو بالشراء ، مناطق (الفلاندر البحري ، الألزاس ، الروسبون ، كورسيكا) وفرضت عليها الفرنسية بقوة الأوامر والقرارات : فكان يعتبر أن على الرعايا الجدد أن يفهموا على الأقل ما كان يُنتظر منهم ، كان ذلك عصر إزدهار معالجة القواعد الفرنسية كنوع . قبل ذلك بقليل ، كانت الدولة قد قرّرت أن ترافق وضع المعجم وأنشأت أكاديمية مولجة مسراحة بتمرير القاموس .

واليوم ، يتصور المخططون أن يقوموا بأنفسهم نتائج قراراتهم ومجهوداتهم . في الماضي ، كان يلزم على الأقل حركة مثل حركة ١٧٨٩ لتوفير الفرصة لتقويم السياسة اللسانية النافذة إن الجمهورية ، إذ رأت في اللغة الفرنسية إحدى الأدوات الفعالة في سياستها المركزية العامة ، أجرت تقريباً نقدياً للسياسة اللغوية التي مارستها الملكية . لذا ، كتفت الفس غريغوار بمهمة إجراء واحد من أولى الاستطلاعات اللسانية/الاجتماعية في كل البلاد . وسبباً حقيقياً للرأي ، قبل ظهور هذه التسمية ، غير أن سؤالين من الأسئلة الـ ٤٣ التي طرحها غريغوار على مراسليه ، يبينان أن القرار كان بلا شك قد سبق الشورى ذاتها . ماذا يمكن أن تكون الأهمية الدينية والسياسية لتقويض العلامات تقويضاً كاملاً ؟ وماذا يمكن أن تكون

بعد ذلك قُوت الجمعية التأسيسية (La Convention) أن كل كومونة (Commune) كلن يحكي فيها علمية رومانية . لون من الباسكية ، من البريتونية أو الجرمانية ، ستزود بمطعم لغة فرنسية ، كما أنها كلفت لجنتها التعليمية العامة بتحضير قواعد جديدة ومجمعة جديدة : تقويم للسياسة السابقة ، مشروع قونة قواعد ومجمعة ، اتخاذ قرارات ، ومسائل واقعية لتطبيق القرارات (كانت الجمعية التأسيسية قد أخذت على عاتقها دفع مرتبات المعلمين من خزانة الدولة) ، هكذا لم تكن ممارسة أعضاء الجمعية التأسيسية تلتزم تقريباً إلى أي شيء تحدد عليه التخطيطات اللسانية التي كانت ستليها في القرنين التاسع عشر والعشرين .

التخطيطات اللسانية الأولى

٣/٧ - مسائل أوروبية

نحو العام ١٨٠٠ ، كان يوجد في أوروبا ١٥ لغة تتمتع بمركز لغات رسمية أو قومية أو مركز محال . ومنذ العام ١٩٠٠ تضاعف عددها ، وبلغ الخمسين لغة سنة ١٩٣٧ ، فمنذ صعود اليونانية إلى صعود النازية تعين على المسائل اللغوية ، إذا صدقنا هذه الأرقام ، أن تمثل جزءاً لا يُستهان به من المصاعب الأوروبية . جرى وضع التخطيطات اللسانية الأولى رداً على هذه المسائل .

وتتدرج التخطيطات كلها تقريباً في إشكالية حركات العصر

القومية ، وجرى إعداد بعضها ، على الأقل ، بفضل العمل الدؤوب
لعديد من الأفراد الذين كانوا يضمّون ، إلى قوّة اقتناعاتهم القومية ،
قدرات حقيقية لبلجنيين خبراء في المسائل اللغوية.

V/٤ - في النرويج

كانت النرويج مقاطعة دانيماركية حتى العام ١٨١٤ ، ولم يكن
لها حتى ذلك التاريخ لغة رسمية أخرى سوى الدانيماركية .
ونجد في أصل اللوتين المدوّنين من النرويجية الحالية ، أعمال
كنودسن وإيفار أّسن (Kundsen et Ivar Aasen) اللغواصديّة
والقاموسية المنشورة اعتباراً من ١٨٥٦ . كان الأول يقترح كلمة
قومية شكلاً مدوّناً ومقوّناً من اللون الذي تتكلّمه البرجوازية
الحضرية . وكان الثاني يريد تأسيس اللغة المشتركة بكيفية رئيسية
على العاميّات الريفية في شرق البلاد . وفي العام ١٨٨٥، قرّر
اليسار القومي شرعية اللاندسمال (Landsmaal) التي نادى بها
أّسن ، والدانيماركية - النرويجية . واعتباراً من ١٨٨٧ صار لزاماً
على المعلمين في المدرسة الأخذ بلغة النرويجية النموذجية كما
وضعها كنودسن .

ومنذ ذلك الحين عمل بالتخطيط اللساني النرويجي على
المستوى القومي ، وكان خاضعاً لرقابة الرأي العام ، في مجتمع لم
يبق فيه تطور المنظومة المدرسية أسطورة . ولا يزال الهدف
المنشود جريئاً ، اليوم ، لأن الأمر يتعلّق بصهر الكتابة المسيحية
(الإملاء) والأشكال والمعجمية اللوتين مقوّنين متميّزين ، لكنهما
يملكان رغم ذلك أساساً مشتركاً عريضاً جداً (Haugen, Modern

Norway, p. 673 - 687)

V/٥ - في إستونيا

اعتباراً من ١٩١٨ ، شرعت إستونيا المستقلة بتدوين لغتها وتقييدها ، وكان تطور العلوم والتقنيات يفرض مصطلحات جديدة كانت تُبتكر في الغالب انطلاقاً من اقتراضات . وكانت إجراءات التخطيط اللساني الأولى تحاول ، حينئذٍ ، لن تنظم دمج هذه الاقتراضات الصعب غالباً في الصّوارة الإستونية . لقد أسهم جوهانس أنطيك (Johannes Anvik) بنشر نظرياته سنة ١٩٢٤ ، إسهاماً كبيراً في هذا التخطيط . فإذا كانت اللغات الطبيعية لن تخدم الإبلاغ إلا بشكل ناقص ، فإن تحسينها منهجياً وفي العمق يفرض واجباً . ولوضع المعجمات الجديدة واللاحق الاشتقاقية الجديدة أو حتى الكلمات الوظيفية الجديدة التي يمكن الاحتياج إليها ، يكون من حق المرء أن يدمج ارتباطاً جميع الأصوات التي تملكها اللغة . ونقل هذا التقعيد الأول للأجيال التالية بعضاً من الابتكارات التي اقترحها أنطيك : كلمات بسيطة تحل محل كلمات قديمة مركبة ، إدغامات تبسيطية ، إلخ

V/٦ - فنلندا والسويد

يوجد بين لغات البلدان السكندينافية إمكانٌ تقاهم متبادل ، تحميه منذ زمن معين بدايةً تخطيط لغوي دولي ، يضاف إلى ذلك أن السويدية تخدم عدةً كلغة علاقة في هذه المنطقة من أوروبا . إنها وقائع - يوجد إلى جانبها وقائع أخرى - قد لحاظ بها التخطيط اللغوي الفنلندي ، بلا أدنى شك ، عندما ترك للسويدية مركز اللغة الرسمية الثانية في فنلندا ، بعد الفنلندية . مع ذلك لم يعد يتكلم السويدية ، اليوم ، سوى ٩٪ من سكان فنلندا ومن سوء حظها أنها

كانت حتى ١٨٢٠ اللغة المكتوبة الرسمية الوحيدة . التي فرضتها
الهيمنة السويدية على الفنلنديين .

٧/٧ - العبرية الإسرائيلية .

إن التخطيط اللساني الذي كان يتعين عليه أن يؤدي إلى ولادة
للعبرية الإسرائيلية ، بدأ مثل التخطيط النرويجي منذ نهاية القرن
التاسع عشر . وكان قد شرع به رائد ذوقناغات قوموية تضارع في
صلابتها قناعات كتودسن وآتسن ، وكانت نظرياته ومشاريع عمله
اللغوي تماثل في شجاعتها نظريات ومشاريع أنطونك الإيستوني غير
أن هذا التخطيط يتميز من سواء ببعض شروطه وظروفه . والواقع أن
اليعازر بن يهودا (Folman, Revival, p. 427 - 456) قد انكب على العمل
منذ نهاية السنوات ١٨٨٠ ، لترقية لسان مكتوب منذ أمد بعيد ، هو
العبرية التوراتية ، إلى مقام لغة محكية نموذجية لكبان وطني لم
يكتسب مقام دولة وقاعدة إقليمية إلا اعتباراً من ١٩٤٨ . وحسب
أقوال معاصريه ، لم يتكلم بن يهودا البتة إلا على عبرية طفيفة ،
مترددة ، وبلا لون وميزة . وعندما أقام في القدس ، لم يلق فيها إلا
العداء من جانب جالية يهودية مترممة ومنغلقة جداً أمام التجديدات ،
وحتى أنه ألقى في السجن لأمد معين : أصدر على تأسيس عدة
جمعيات مخصصة لمسائل اللغة والثقافة ، نشر عدة كتب لتعليم
العبرية بالعبرية ، ودراسات نادرة مكرسة للمطمين ، أسس مجلة
اسبوعية (Ha Zvi) كتب فيها بشكل منتظم بغية تطبيق نتائج أبحاثه
كعالم محجمي . وفي عام ١٩١٤ ، عرض بن يهودا مشاريع منهجه
المحجمي أمام مجلس اللغة .

وكان يوهسي ، لتطوير العبرية الحديثة ، أولاً بأن يُبطل من
مناهل النصوص القديمة ، وأن يُحيى مصطلحها (للدال القديم
مدلول جديد) . وهناك حيث لا تكون المصادر السلفية كافية ، من

الممكن الاقتراض من كل اللغات السامية الأخرى (وفي مقدمتها العربية) ذات الجذور الثلاثية الصوامتية التي يمكن أن تؤخذ منها بكل سهولة معيجمات وكلمات عبرية جديدة . وأخيراً كان يمكن استخدام كل التركيبات والتبدلات الممكنة لـ ٢٢ حرفاً صامتاً في الأبجدية العبرية لابتكار جذور جديدة . حكم مجلس اللغة أن هذه المقترحات غير عملية ، ضد الطبيعة ، غير واقعية ، غير قومية وغير وطنية ، فرفضها وهو يرى فيها إهانة حقيقية للعبرية .

مات بن يهودا سنة ١٩٢٢ ، وواصلت العبرية الإسرائيلية نموها المولوي لنمو مدن عمالية ، مثل يافا ، ومراكز استيطان في الريف الفلسطيني وفي الحقيقة ، كان يتجمع في هذه المدن والمراكز شغل ذوو لغات مختلفة ، كانت العبرية تلعب دور العلاقة^(١) في ما بينهم . سنة ١٩٤٨ حظيت العبرية الحديثة بمركز اللغة القومية لدولة إسرائيل . وتدل دراسات ميدانية أجريت ما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٤ على أن ٦٠٪ من الإسرائيليين كانوا يواصلون في الحياة اليومية ممارسة لغة أخرى إلى جانب العبرية . وأن العبرية الحديثة لم تكن لغة الحياة الحميمة إلا لـ ٢,٧٪ من الأزواج ، وصل التخطيط اللساني في إسرائيل اليوم إلى مرحلة تقويم نتائجها الخاصة ، خصوصاً في المجال المعجمي ، وفي مجال المنظومات الإملائية التي تُقوّم بمقارنتها مثلاً مع طاقة القراءة وسرعتها

V/٨ - اللغة والقومية التركيتان

عندما شرعت الحركة القومية التركية في إدخال بلادها في

(١) كانت العبرية الإسرائيلية تؤدي هنا التصفية الوظيفية التي استطاعت اللغات المريج أن تقوم بها في أماكن أخرى

وقائع بداية القرن العشرين ، باشرت أيضاً بتخطيط لسانى لم يُتناول منه في الغالب سوى الجانب الأكثر إيهاشاً ، نعني التعبير الأبجدي الذي فرضه ، تقليدياً ، كلت التركية تُكتب بواسطة الأبجدية العربية . ولحكم على الحقب التي كان هذا الأمر يمثلها ، يكفي النظر مثلاً في الـ ٨ صوتيات في المنظومة الصوتية التركية . وإن مواجه هذه المنظومة مع المصادر التصويرية للحروف الثلاثة المخصصة في الأصل لـ ٢ صوائت طويلة في الصوائت العربية القديمة ، وبعض العلامات التشكيلية لضبط الصوائت القصيرة ومهما تكن مدعشة عملية إبدال الأبجدية والوسائل المستعملة لفرضها فلا يجوز لهذه أن تقسنا بقية الإجراءات المتخذة في التخطيط للسانى التركى كان الاقتراض المعجمي من الفارسية وبالأخص من العربية هو الفناة التي فرضت من خلالها تضاد صوتية لا تستوجبها المنظومة التركية في منطلقها (هذا مثلاً هو حال تضاد الطول الصوتي). زد على ذلك أن الاقتراض المعجمي الواسع كان قد أسهم في إبراز الفوارق بين الألوان المحلية والاجتماعية للمنظومة التركية كما أن الصياغة المعجمية ، إلى جانب صياغة مصطلحات علمية وتكنولوجية جديدة ، سرعان ما ارتدت في التخطيط للسانى التركى وداء « تنريك » ، تطهير ، مماثل إلى حد ما للتطهير الذي شهدته الألمانية في بعض الحقب .

التخطيط اللسانى ، الاستعمار وتصفية الاستعمار

٧ / ٩- مسائل اميركية / لاتينية

مع تقدم تصفية للاستعمار في اميركا اللاتينية لم يتوافق لأمم

طويل سوى سياسة لغوية ذات تدخلات تجريبية ، ولليوم لا تزال
التدخلات اللسانية الحقيقية نادرة في القارة الأميركية الجنوبية
إن الطبقات المعيّنة من المؤدين والخلّاسين المتأسّسين ، التي
كانت قد خاضت معارك الاستقلال ، أعلنت تمسّكها باللغة الإسبانية
حين اقترحت (كولومبيا ، المكسيك) منذ ١٨٢٥ إنشاء أكاديمية
إسبانية - أميركية يمكنها القيام بالدور الذي كانت حتى ذلك الحين
تقوم به الأكاديمية الملكية الإسبانية . إن اللغة الإسبانية ، لغة
اتصال واحتكاك منذ بداية الغزو ، كانت قد عانت من تداخلات
صوتية ونحوية ومعجمية على حد سواء ، وهي تداخلات فرضتها
لولا اللغات الأميركية - الهندية ثم لغات المهاجرين الأوروبيين
الجدد بعد الاستقلال ، كان ذلك عصر ارتفاع صوت الطهرانيين في
مواجهة السوقيات والابطاليات والغاليات والانكليزيات في الإسبانية
الأميركية ، ولكنّه في الوقت ذاته كان العصر الذي كانت فيه قومية
لغوية معينة تعذب على لغة الأقاليم والولايات والأرياف ، وحيث كان
الأرجنتيني سارمينتو (Sarmiento) يطالب بإصلاح للأملاء التي
يمكنها جعله متكيفاً مع واقع خطاب المتكلمين الأسبانين -
الأميركيين (Gutierrez, Correctness, p.348-349).

في مواجهة مقترحات الطهرانية اللاواقعية ، وكذلك في
مواجهة واقع الاختلافات المحلية والاجتماعية التي تشد في
الإسبانية - الأميركية ، يقترح داماسو أونسو (Damaso Alonso) ،
أحد منظري السياسة اللغوية الحاليين ، أن تلعب ورقة الوحدة
المعتسقة . وإذا كان الاقتراض محتوماً ، فلا مناص من قبوله ، ويغدو
ممكناً قبوله عندما يعتمده الجميع ويفهمونه ويستعملونه ، ويجري
دمجه بالنسخ أو بالتكيف مع الصّواتة الإسبانية الأميركية وإذا
كانت ، السوقيات ، الصوتية ، البنائية أو النحوية قد أصبحت واقع
الطبقات المعتمدة كطبقات متعلّمة ، فلا يبعد هناك أي نفع من

السعي لزعزعتها . والمعيار الذي يمكن أن يوصى به ، لم يعد معيار القشتالية ، بل الاستعمال الناتج في الطبقة المتقنة لكل جمهورية

V / ١٠ - في الباراغواي

أن تتمكن سياسة عدم تدخل لغوي ، مثل التدخل أو التخطيط ، من بلوغ الهدف الذي تتشده سلطة دولة ، هو أمر واضح في الباراغواي . ففي هذه الجمهورية حيث ظلت الاسبانية لأمد طويل ، اللغة الرسمية الوحيدة ، هناك ٢٤٪ من السكان الريفيين يمارسون لغة واحدة ، (Guaraní) هي الغوارانية ، وبقية الريفيين يعانون من ثنائية لغوية متأخرة ولا متوازنة ، تميل إلى الغوارانية . والثنائية اللغوية عامة في المدن ، لكنها أكثر توازناً فيها . إذ من أصل ٥ / من الحضرين نوي اللغة الواحدة الذين نكتشفهم في المدن ، لا يتكلم الاسبانية سوى النصف . لقد أرادت وزارة التربية أن تتجاهل المشكلات على النوام ، فالغوارانية لا تُعَلَّم في أي مكان ، إلا في مدرسة العاصمة ، ويتعين على المعلمين الريفيين أن يعلموا بالاسبانية القراءة والكتابة والحساب لتلاميذهم نوي اللغة الغوارانية دون أن يكونوا قد أعطوهم من قبل ، أي درس من الاسبانية ، هؤلاء المعلمون لا يتلقون أي تكوين خاص من شأنه إعادتهم لمجابهة المشكلات التي يعتقدون بعامة أنها جزء لا يتجزأ من مهنة المعلم

V / ١١ - في البيرو

إن الغوارانية في الباراغواي واحدة من تلك اللغات الاميركية - الهندية التي تجتمع في ٦٠ عائلة ، والتي لم تتلق أي منها مركزاً رسمياً حتى الآن . كذلك هو حال الكيشوا (Quechua) مثلاً . فهذه اللغة الاندية التي يتكلمها عشرة ملايين متكلم ، لم تُكتب

منذ امد بعيد إلا بكيفية بدائية جداً ، حسب المعايير الإملائية
 للإسبانية ، ولم يكن ذلك يتم دون عقبات . فالوان الكيشوا مثلاً ، لم
 تعرف عموماً للمميّز الصوتي الترابطي في منظومتها الصوتية ،
 فالصّامت المرّن يجب اعتباره إذن كلون مركّب متناقض . والحال ،
 تحت تأثير قوي للفتين اللذين يمارسون الإملائية الإسبانية ، كانت
 الحروف المرّنة لا تُقيد في الاقتراضات الجديدة للمأخوذة عن
 الإسبانية فحسب ، بل ان تقييدها كان يفرّغ إلى الشّمول والتمنّج .
 من الواضح في هذه الشروط ان ممارسة الاستعمال المكتوب يمكنه
 أن يصبح عاملاً فعّالاً حقاً من عوامل التّغير اللغوي . سنة ١٩٥٤ ،
 حاول المؤتمر الأميركي الأهلي المنعقد في لاهار تبسيط كتابة
 الكيشوا وقولبتها ، بحيث تتكّن من أن تُستخدم أيضاً في الأبحار
 (Aymara) في بوليفيا ، وفي ٢٢ مجموعة لغوية أخرى ، تحكى في
 شمال البيرو . عندئذ أمكن تنظيم حملات محو أمية لدى متكلمي هذه
 اللغات السّلفيّة (Selva) البيرومية ، وكانت التّخطيطات اللّسانية
 الإسبانيّة - الأميركيّة قد بدأت تظهر منحدّة إنتاجاً الفرّقة الحكومة
 البيرونية مؤخراً : فقد أقرّت سنة ١٩٧٤ كون الكيشوا هي لغة البيرو
 الرسميّة من الآن فصاعداً ، إسوةً بالإسبانية .

١٢/٧ - اللغات والاستيطان

في حالة أميركا اللاتينية ، جرى مبكراً جداً إبدال الإدارات
 الإسبانية والبرتغالية من سلطات اقتصادية وتأثيرات سياسية لأمم
 أخرى ، دون أن يكون شتة غزو استعماري مُعلن . إن هذه الحالة
 فريدة من نوعها تقريباً في لولآخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن
 العشرين اللذين هما في الواقع مرحلة استعمار أكثر مما هما مرحلة
 تصفية استعمار

ففي المرحلة الأولى من الاستيطان الاستعماري ، وحتى قبل

أن تعزّز الأجهزة العسكرية والإدارية المتروبوليتية مواقعها . كانت البعثات الدينية هي التي تمارس غالباً السياسة اللغوية في المناطق الاستعمارية المقبلة . كلن أفرادها يتعلّمون لغة أو لغات البلد الذي يعيشون فيه ، وكانوا يترجعون النصوص الدينية الأساسية ويطوّرون غالباً تعليماً ابتدائياً عاماً ، في موازاة تعليمهم الديني . ولأجل ذلك . وضعوا قواعد مكتوبة . إنطلاقاً من الأبجدية اللاتينية عموماً ، وكانوا ينشرون كتب قواعد وفواميس اللغات المحلية .

وعندما تعزّزت السلطات المتروبوليتية ، لم تواصل دائماً السياسة اللغوية للبعثات الدينية . فالاستعماران الإسباني والفرنسي ، الممركزان ، أحبطا دراسة اللغات المحلية ونظيمها . كلما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ، دون أن يتوصلا مع ذلك إلى فرض اللغات المتروبوليتية . ومثال ذلك أنه في العام ١٩٥٠ لم يكن يوجد من أصل ٥٠٠٠٠٠٠ غيني سوى ١٤٧٨ مستوعباً (Assimilados) يعرفون البرتغالية قراءةً وكتابةً ، وفي العام ١٩٦٢ قام معهد (Insee) بإحصاء العاملين في المؤسسات الفرنسية في أوقيانيا (Océanie) واستنتج أن ٦٠٪ من البولينيزيين المشمولين بالإحصاء ما زالوا عاجزين عن قراءة الفرنسية وكتابتها .

أما الاستعمار البلجيكي ، الانكليزي والالمانى ، الأول مركزة ، فلم يفرض بوجه عام اللغة المتروبوليتية في التعليم الابتدائي إلّا في أوضاع لغوية ثنائية أو تعددية حيث لا تفرض نفسها أية لغة محلية ، على الأقل بوصفها لغة علاقة وارتباط . إن هذه الاستعمارات والاستيطانات جسّدت سياستها اللغوية في تخطيطات حين شرعت في قوابة تلك اللغات المحلية الملائكية . وهي السواحلية ، الايوي (Éwé) في غانا والتوغو والداومى ، أو الشونا (Chona) في روديسيا . وغالباً ما علّ المستعمرون حذرين تجاه هذه

اللغات المحلية المقولبة وتجاه سياسة « التنمية المنفصلة » التي كانت تخدمها . فبالنسبة إليها لا تعني التنمية المنفصلة لمختلف الأعراف العائلة سوى غياب التنمية . كما أنهم كانوا يفصلون . عندما كانوا يستطيعون ، أن يطمحوا أولادهم في المدارس التي كانت تعلمهم اللغة المقروبوليتية منذ الصفوف الابتدائية ، إذ إن معرفة هذه اللغة ظلت في الغالب للضمانة الوحيدة لأية ترقية اجتماعية محتملة ، ومثالها الوصول إلى مراكز ثانوية في الإدارة الاستعمارية .

١٣/٧ - اللغات ، تصفية الاستعمار واللسان

بعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص ، بدأت النضالات ، القائمة منذ أمد بعيد في كثير من البلدان المستعمرة ، تعطي ثمارها وتفرض مسار تصفية الاستعمار . ولقد استطاعت السلطات المتولدة من معارك الاستقلال أن تفتار سياسة لغوية لا تدخلية وإن تترك الوضع السابق على ما كان عليه . فظلت اللغة الرسمية لغة المستعمر القديم ، فلم تحظ أية لغة محلية بمركز خاص . كان في عداد الحكومات الجديدة ، حكومات تكتفي باتخاذ بعض القرارات الرسمية ، في اثناء وضع الدساتير الجديدة . وعندما كانت تقوم باختيار لغة وطنية محلية ، كان ذلك يقودها أحياناً إلى إعادة تعريف مركز لغة المستعمر القديم ، فهي لغة لا يمكن الاستغناء عنها كلياً ومباشرة إلا في النادر . وغالباً ما كان يترك لها ، على الأقل ، مركز لغة دبلوماسية ، لغة علاقات دولية . مع ذلك ، كان ثمة ضرورة ، بشكل مألوف ، لكي تَنَاطِ أيضاً بدور مهم في التعليم ، على الأقل لأجل معين ، ولم يكن من النادر أن يُترك لها أيضاً جهاز الحكومة والعدل أو الإدارة ، والجيش والشرطة . ومهما أمكن أن تكون القرارات الرسمية ، لم يكن في استطاعتها أن تؤدي ، بكل وضوح ،

إلى تخطيط لسانتي ، إلا إذا كانت الحكومات التي اتخذتها قد تزوّجت
أيضاً بوسائل وضعها موضع التطبيق اللغوي .

إن المسائل التي تطرحها السياسة والتخطيطات ، شبيهة كل
المسائل اللسانية - الاجتماعية ، لا يمكن فهمها وإيجاد حلٍ محتملٍ
لها ، إلا إذا أخذ في الاعتبار تفاعل عوامل البنى والوقائع غير
اللغوية . غير أنّ من المناسب التشديد على أنّ المستمعين نادراً ما
يعون المقومات البنيوية غير اللسانية للغة التي يستعملونها .
فالرجال الذين في أيديهم سلطة الشروع والقيام بسياسة أو بتخطيط
لغويين ، ينصرفون في هذا المجال عامة المتكلمين . كذلك ، حتى وإن
كان اللجوء إلى المعرفة اللسانية لا يكفل وحده نجاح هذه
المشاريع ، فإن الاستغناء عنها عمداً يمكنه أن يساوي أخطاء
باهظة ، وحتى يمكنه أن يعني الفشل

وهكذا إذن ، وحيث أنّ المتكلمين والمخططين غير واعين
لوجود ، وبالتالي ، لنوعية المنظومة اللسانية ، فإن الميزة التي
يمكنهم أن يمنعوها لها أو يحرموها منها ، أن تتوقف أساساً على
نوعية المنظومة . وإن يكون حاسماً أن تكون المنظومة مؤتلفة أو غير
مؤتلفة توالدياً ، وإن تكون محلية / مؤتلفة (Pidgin) أو غير مؤتلفة ،
وإن تكون لونها وحيداً أو ممثلة لفظ شبكة ألوان إقليمية ، الخ .

كذلك ليست الميزة الممنوحة إلى لغة ، أو المواقف اللسانية
المختلفة التي يمكنها أن تستثيرها في الفئات الاجتماعية المعنية ،
هي التي تصنع وحدها نجاح أو فشل تخطيط لسانتي

V/١٤- التجربة العربية

هكذا ، لم يكن المركز المرموق الممنوح للمنظومة المؤتلفة
توالدياً ، أي للعربية المعقّدة ، المعصاة مثبورة (كلاسيكية) ، كافياً

لنجاح السياسات اللغوية التي كانت العربية موضوعها . ففي الواقع ، تُعتبر العربية الماثورة مؤلفة توالدياً ، وخير ممثل للمجموعة السامية . أضف الى ذلك ان كونها مرتبطة بنص قديمي ، القرآن الكريم ، وبتراث وثقافة واداب مرموقة جميعها ، قد منحها امتيازاً كبيراً جداً . فقبل ان يختار كثير من البلدان العربية الماثور كلفة قومية لو رسمية ، كانت اكلاديميات شتى قد اشتغلت - وبعضها منذ ١٩١٨ - على الصياغة المعجمية لهذه اللغة . وبوجه عام ، لم تتوصل الى التوافق على جزء من الاصطلاحات العلمية او الفنية ، إلا مع كثير من المتاعب والمصاعب ، لكنها كانت مُجمعة على استتكار ، الاقليميات ، المطبوعة جداً بطابعها الذوقي او الاقتراضات المباشرة من لغات أخرى . إن المعجمية الموحدة على هذا النحو كان يتمين عليها ان تكون معجمية عربية ماثورة محدثة (تسمى ايضاً العربية الحديثة) يمكنها الاحتفاظ بالاشكل وبالنحو الملحوظ في النصوص الادبية الراقية ، ما خلا عدد صغير من الاستثناءات او اللطائف التي لم يتوصل احد الى التوافق عليها رسمياً . ليس هناك تصور للذهاب الى ابعد من هذا التحديث بكثير (Al-Noma, Arab Countries, p. 302-305) . فمن المعزومات المسبألف واحد من القرآن ، كما يقال (وبكل ما كتب بهذه الابجدية التي انزل بها القرآن ، كما يُعتقد بلا ريب) . وبالفكر الذي لا يكون فيه هذا النوع من الاقوال حرفاً ميثاً دائماً ، لا يمكن في الحقيقة الخوض مثلاً في قضية اصلاح عميق للمنظومة الاعلانية او حتى في قضية اجراء تغييرات مبتكرة في الابجدية . ومع ذلك فإن الهدف الذي يقشده مسؤولو الاقطار العربية عنهما يباشر تخطيطاً لسانياً ، هو ان يجعلوا أولاً من حالة لغوية قديمة لغة متكيفة مع كل الحاجات الزاهنة ، بما فيها حاجات العلوم والتقنيات وفوق ذلك ، يُراد ان يجعل منها اللغة المشتركة ذات الاستعمال اليومي بالنسبة

إلى جميع الناطقين باللغة العربية . يقدّر بعض المخططين والمتقنين أن في إمكانهم التوصل إلى ذلك في عشر سنوات أو في خلال خمسين سنة كأقصى حد . وهم يعتمدون لتحقيق ذلك على تعميم التعليم ، وعلى حركة السكان متزايد صعوداً وهبوطاً بين مختلف الأقطار العربية ، وعلى دور اعظم لوسائل الإعلام الجماهيري .

لكن الناطقين بالعربية الذين يرون أن استعمالهم الشفهي للعربية المأثورة (المحدثنة) يجب أن يحد استعمالاً يومياً في غضون عشر سنوات أو خمسين سنة ، لا يمكنهم ، في أغلبيتهم ، أن يتحدوا تحدياً دقيقاً كناطقين بالعربية إلا لأنهم يمارسون ، وهم ينتظرون ، هذه العامية أو تلك من عاميات العربية . والحال ، فإن المخططين الذين يعملون على إنشاء العربية المأثورة وتصنعاتها الوظيفية لم يقوموا يوماً بالمواقب الكثيرة لوجود هذه العاميات تقويماً صحيحاً . ولم يستخلصوا النتائج الأخيرة التي كان الوضع يفرضها . وهم إذا كانوا لم يقوموا بذلك ، فمرّد الأمر ، وإلى حد كبير ، إلى الموقف اللغوي الذي تثيره العربية المأثورة في المقام الأول لدى المتعلمين ، وهم المخططون أنفسهم . ولكن لدى متكلمي العاميات العربية أيضاً ، حتى وإن كانوا أميين .

في حين أن تخطيطاً لسانياً يعتبر مكلفاً على المواقم ، لاسيما في بداياته ، فإن من الواضح أن التخطيطات التي بوشربها في كثير من الأقطار العربية كانت قد جرت في ظروف إقتصادية غير مؤاتية في معظم الأحيان . وكانت المصاعب تتجلى في الأرقام التي قدّمتها اليونسكو (UNESCO) منذ ١٩٦٥ . ففي ذلك العام ، كان في بعض الأقطار العربية أكثر من ٦٥٪ من الأميين وشبه الأميين . ولم تنخفض هذه النسبة في السنوات التالية إلا ببطء . زد على ذلك أن كثيراً من الناطقين بالعربية كانوا من ذوي اللغتين ، ولئن الراموز

المكتوب الذي كانوا يمارسونه إنما كان الراموز المرتبط بلغة القوة الاستعمارية القديمة . والحالة هذه ، تقوم على نحو أفضل النتائج الأولى للتخطيطات الجارية ، وكذلك الوقت اللازم والوسائل الواجب توفيرها لكي تغزو العربية الماثورة المحشنة اللغة المشتركة ذات الاستعمال الشفهي اليومي للناطقين بالعربية كافة

إذا كان الاستعمال الكتابي والشفهي للعربية الماثورة قد تأخر تعميمه وشموله ، فمن المتعين رد ذلك إلى عجز المعلمين الذين يستعملون هذه اللغة استعمالاً غير صحيح ، كما كان يقرر ذلك سنة ١٩٥٤ للكتاب المصري طه حسين ومع عدد آخر من ذوي العقول النيرة . وهناك عقول أخرى لا تال عنهم تنويراً ، كانت مشغولة ، سنة ١٩٥٧ ، بالاستطلاع والتنقيب في أوساط المدرسين العراقيين . كان ٧٠٪ من هؤلاء المدرسين يعتبرون أن العربية الماثورة كما هي ، خصوصاً مع منظومة حركاتها الإعرابية الطارئة (Distances Casuelles) ليست الوسيلة التعليمية الفضلى بالنسبة إليهم ولا بالنسبة إلى تلاميذهم . وهم حتى عندما تكون معرفتهم بالعربية الماثورة مقبولة ، إنما يختارون طوعاً أو نكراً لغويّاً آخر : ويؤكد ٢٠٪ من هؤلاء المدرسين أنهم لم يستعملوا العربية الماثورة خارج قاعات التدريس أبداً ، ويصرّح ٩٠٪ منهم أنهم يستعملون عربيتهم العامية في خلال حصصهم ، على الرغم من كل التوجيهات والتعليمات الوزارية . وطالما أن وجود العاميات العربية سيظل مطعوساً ، فإن كل إشكالية التعليم والتخطيطات اللسانية العربية ستبقى مظلومة ومزيلة على هذا النحو . إن العبثية بتخطيط لسانی مع رفض بيئة التبدل اللغوي ، هي من الأمور العيثية ، المستحيلة ، مؤخرأ ، بمعزل عن دوائر السلطة ، وبعيداً عن النخب السلفية ، اتخذ باحثون مواقف جديدة حين انتكروا على الوصف العظمي للعاميات العربية ، والعربية الماثورة كذلك ، ولاستعمالاتها

الواقعية أيضاً^(٣) . ولكن جديداً أيضاً - لكنه هذه المرة في جميع دوائر السلطة بالذات - الموقف العملي الذي اتخذته رؤساء دولة مثل عبد الحاصر أو بورقييه اللذين كلتا قد اختلرا اللقاء خطبهما التي يعولون عليها أكثر من سواها ، في لون لغوي ، شديد الانقسام بالسمة العلمية ، كما يقول البعض ، والذي هو العربية الوسيطة ، كما يسميها اللسانيون^(٤) .

V/١٥ - تخطيطات اللغة الماليزية

إن اللغات المحلية التي صارت قومية و/أو رسمية ، لم تكن جميعها في الماضي لغات ذات امتياز كبير جداً . وبعضها لم يكن أولاً سوى لغات ملاقات شعبية . هذه هي حالة الماليزية (Alisjahbana) (na, Indonesia and Malaysia, P.381-461) التي لا يتكلمها كلغة أول سوى ١٥ مليوناً ، لكنها اللغة الثانية لـ ١١٠ ملايين نسمة ، وتحظى اليوم بمركز لغة قومية و/أو رسمية في الاتحاد الماليزي والدولة الاندونيسية ودولة سنغافورة . لقد انتشرت الماليزية ، انطلاقاً من موقعها الأول على طرفي المضائق الكبرى ، وعلى امتداد الخطوط البحرية ، في الهند والصين في بعض الخطبات ، ناطقة أحياناً ، بشكل عابر وبلا قصد ، نعاليم الاسلام لو تعاليم البعثات التبشيرية المسيحية . لقد انتشرت وامتدت وهي تؤدي وظيفة لغة علاقة شعبية بين المجتمعات الساحلية التي تعيش في جزر آسيا الجنوبية الشرقية

(٢) إن عمل وحدة مراكز البحوث هذه (كالمركز للفتح ، مثلاً ، لجامعة تونس والذي يضم قسماً للسانة) ليس ، إلا تالياً ، بمنأى عن المضاعف من كل الأول التي يمكن أن تعرضها عليها معارضة محافظة ومعيارية - متجلية حتى في الفئات الاجتماعية الحاكمة . وفي قسم من الطبقة القيادية

(٣) انظر أيضاً ، سابقاً ، IV/٢٠

لللامعزودة ، والتي تتكلم مئات اللغات والعلميات المتنوعة .
مع استقلال البلاد سنة ١٩٥٧ صارت للمليزية للغة الرسمية
للاتحاد الماليزي . وقررت الحكومة الأولى أن هذه اللغة يعكس كتابتها
من الآن فصاعداً بواسطة الأبجدية اللاتينية . ولكن مع إمكان
الاستمرار بتعليم الأبجدية العربية للتلاميذ المسلمين .
كانت الجزر الأندونيسية لا تزال مستعمرة هولندية سنة
١٩٢٨ عندما انعقد مؤتمر اللغة الأول ليقتراح ليس فقط إلغاء
المصطلحات العلمية والتقنية في المليزية وإصلاحاً للإملائية ، بل
أيضاً تحرير قواعد جديدة متوافقة مع التبدلات الملحوظة في اللغة
سنة ١٩٤٢ . قامت المليزية بطرد الهولندية من مجالات الإدارة
الداخلية والتعليم ، في ظلّ الغزو الياباني . وكانت المليزية وهي
تؤدي وتليفتها كلغة علاقة بين منحدات لغات شتى (من أهمها
الجاوانية Javanese والسوندانية Sundaese) ، قد أصبحت رمزاً
للوحدة القومية في مواجهة المستعمرين الهولنديين ثم المحتلين
اليابانيين . وفي سنة ١٩٤٥ منحتها الدولة الأندونيسية المستقلة
مركز لغة قومية

وفي اندونيسيا كما في ماليزيا ، قامت معاهد ومصالح إدارية
لإنماء المليزية ، فوضعت لوائح مفردات لمختلف الاصطلاحات
(العلوم ، التقنيات ، الطبابة ... ٧٠,٠٠٠ مفردة في ماليزيا منذ
١٩٦٧ . و ٢٥٠,٠٠٠ في اندونيسيا) ونشرت كتباً ومعاجم ،
وحاولت منذ ١٩٥٤ وضع تخطيط لسانى دولي . وكان أحد
المسؤولين الأندونيسيين عن هذا التخطيط يؤكد أن المليزية لم تكن
قد أصبحت لغة مشتركة حديثة إلا بفضل انتفاضة حقيقية على اللغة
للمليزية القديمة . وكان المخططون قد أجادوا الإحاطة بالتغيرات
الجارية في منظومة اللغة ، وبالتغيرات في موقف المتكلمين تجاه
اللغة ، وبالتوائف الجديدة التي كان يتعين على اللغة أن تؤديها في

كل يوم . إن الماليزية وهي لغة علاقة شعبية لم تحتفظ من ماضيها بالمجد الذي احتفظت به العربية ، وكذلك كان الموقف للغوي لمخططي الماليزية ومتكلميها ، موقف قبول للتغير اللغوي ، بلا عناد ومكابرة . إن هذا الموقف يشرّ الاقتراض المعجمي الواسع من لغات الاستيطان الاستعماري ، وبالأخص من الانكليزية ، لدرجة أنه يحكى اليوم عن مسار اندو - اوروبي حقيقي لهذه اللغة الأوسترونيزية . لم يكن هذا المسار محتوماً في الطبقة الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية ، وهو ليس البديل المحتوم لتكيف لغة غير اندو - لوروبية مع الوقائع المعاصرة ، فعندما يتفكك المبرمجون وبالأخص المتكلمون ، يمكنه أن يمثل توطيراً كبيراً في الوقت وفي وسائل التخطيط اللساني ، وفي كل حال لا يمكن أن يؤسف عليه إلا لأسباب غير لغوية .

١٦/٧ - من التجارب الأفريقية

شهدت السواحلية ، وهي لغة بانتو من حيث نحوها واشكالها ، تحولاً في منظومتها الصوتية التي استخدمت عدة وحدات مقترضة من العربية ، وهي معجميتها التي صارت ساميةً بكاملها تقريباً ، إنها إذن منظومة يمكن اعتبارها اليوم كأنها غير متجانسة توالدياً إذ على ذلك أن الكوانا محلية من هذه المنظومة ، لا سيما في تانجانিকা ، كانت قد صارت لغة مولدة حقاً . والحالة هذه ، من المفيد أن نلاحظ أن السواحلية قد صارت في تانزانيا (تانجانিকা وزنجبار) بوجه خاص ، لغة قومية ، طفا العلاقة الشعبية هذه ، لغة التجارة والاتصال بين القبائل ، كانت قد ارتبطت لأمه من الزمن ، وفي بعض متحدات الشرق الأفريقي ، بمساوي الرق الذي كان يمارسه تجار من بلاد اسلامية يجب أن يضاف الى ما تقدّم ، أن المرحلة الاولى من قومية السواحلية وتقسيدها ، جرت تحت إشراف المستعمرين

الألماني ثم الإنكليزي . وأن من الصعب عندئذٍ الافتراض أن السواحلية
أمكن اختيارها كلغة قومية لتانزانيا ، نظراً لامتيازها الغابر بشكل
أساسي .

وكانت الصومالية . وهي أكثر من لغة مشتركة شبكة عاميات
يتكلمها بشكل رئيسي مزارعون ورعاة وحل . كانت لغة يدون وراموز
مكتوب ، وكان ٩٠٪ من متكلميها أميين . أما الدين كانوا يكتبون
ويقرلون ، فكانوا يفعلون ذلك بالعربية والإيطالية أو الإنكليزية .
استمر هذا الوضع أجلاً معيناً حتى بعد استقلال البلد ، إلى أن
شرعت الحكومة العسكرية ، التي كانت قد استولت على السلطة
سنة ١٩٦٩ ، بتخطيط لسانى . القرار الأول : يمكن اللغة القومية أن
تكون مكتوبة بالأبجدية اللاتينية : القرار الثاني : تكلف لجنة لغوية
بوضع أو حتى بترجمة كتب لا بد منها في محو الأمية . واعتباراً من
عام ١٩٧٢ ، كان السكان المدينيون والموظفون في طليعة
المثقفين . ثم شنت الحكومة سنة ١٩٧٢ حملة واسعة لإنماء
المجتمع الريفي . وبين شهر آب (أغسطس) ١٩٧٤ وشهر شباط
(فبراير) ١٩٧٥ ، جرى إرسال ١٥٠٠٠ تلميذ وطالب ، و ١٠,٠٠٠
مدرس وموظف وممرض وطبيب بيطري ، لمحو الأمية لدى البدو
والمزارعين . وفي نهاية الحملة لم يبق سوى ١٠ / من الأميين . كلف
ذلك ما يعادل ١٥٥ مليون فرنك فرنسي . وكان ذلك يمثل مجهوداً
كبيراً بالنسبة إلى بلد صغير (٢,٥ ملايين نسمة) ، فقير ، انداد
فقر سنة ١٩٧٤ بسبب الجفاف الذي كان قد دمر كلياً ٧٥٠,٠٠٠
فلاح صومالي ، والحق لضرراً بالبلاد بلغت ٧٥٠ مليون فرنك
فرنسي . صحيح أن التقعيد الفحوي ، والسياسة المعجمية وقولعة
الصومالية ، لم تكتمل اليوم ، لكن الصومالية باتت تؤدي وظائف
اللغة المشتركة المحكية والمكتوبة من طرف الاعلى . وهذه بالذات
هي الوظائف الأولى التي ينبغي أن تقوم بها لغة قومية .

إن نتيجة السياسات والتخطيطات التي عاقتها العربية ،
المالية ، السواحلية أو الصومالية ، تجعلنا ندرك أن المواقف
اللغوية والتاريخ الحديث أو البعيد الذي ترتبط به هذه المواقف ، لا
تشكل وحدها نجاح مشاريع كهذه أو فشلها ، فهي ، مهما بلغت
أهميتها في بعض الحالات ، ما هي إلا مقومات من بين تلك المقومات
التي توجب على المخططين أن يحيطوا بها في الأوضاع اللسانية
الاجتماعية الموروثة عن الاستعمار .

التخطيط اللساني : تفاعل عدة عوامل

١٧/٧ - التخطيط اللساني

والمقومات الاقتصادية

في الواقع ، إن عدد العوامل التي يُحسب حسابها في تخطيط
لساني ، كبير لدرجة أن المخططين أنفسهم لا يمكنهم أن يتوخّوا
ضبطها كلها ، ولا حتى معرفتها جميعها ، أو أيضاً تقويم كل من
العوامل التي يعرفونها ، بدقة . هذا ما يستخلصه الباحثون أنفسهم
حين يعدّون التخطيط اللساني بوصفه محاولة لـ ... ، مجموعة
جهود ترمي إلى....

للوهلة الأولى ، يمكن للشروط الاقتصادية المقابلة لتخطيط
ما ، أن تظهر عاملاً أساسياً ، لكنّها في الواقع لم تعد تشكل وحدها
نجاح أو فشل التخطيط المباشر به . ففي أيرلندا ، ليست الشروط
الاقتصادية هي العقبة الكبرى بالنسبة إلى مسؤولي التخطيط
اللساني ، لأن الحكومة تمنحهم موارد بشرية ومالية لا يمكن
إنكارها . إنّ ذلك إنّ قوة المشاعر القومية تشترط موقفاً لغوياً
مؤاتياً جداً للإيرلندية ، سواء لدى أولئك الذين يتكلمونها أم لدى

أولئك الذين ما علموا يتكلمونها . لكن كل سكان أيرلندا كانوا يتكلمون الانكليزية سنة ١٩٦١ ، بينما كان ٢٧٪ من هؤلاء السكان فقط يواصلون إجراء ٥٪ على الأكثر من التخاطب اليومي بالايرلندية . إن نصف الفشل الزامن الذي مُني به التخطيط اللساني الأيرلندي هو ثمة عدة قرون من الاحتلال الانكليزي . وهو بوجه خاص يعود إلى كون إبدال الأيرلندية من الانكليزية كان قد لمسى في طريق الاكتمال عندما بدأ التخطيط اللساني

في المستقبل شنت كوبا بنجاح سنة ١٩٦١ حملة وطنية لمحو الأمية ، وبدأت حملتها لتجويد المهارة العمالية والفلاحية ، بينما كان البلد يواجه حصاراً اقتصادياً شبه كامل ، كما تكاثرت أعمال التخريب الاقتصادي داخل الجزيرة وكان البنزين والورق مفقودين ، الأمر الذي لا يسهل ، بكل وضوح ، تنقلات وأعمال للقائمين بمحو الأمية والمعلمين .

V/١٨ - التخطيط اللساني والمقومات الفكرية

يمكن انن التعويض من الشروط الاقتصادية غير المؤاتية بادخال مثيرات ودوافع فكرية (ايدولوجية) قوية . ففي كل السياسات اللسانية ، حتى في تلك التي تجعل من عدم التدخل نهجها القيادي ، وفي كل التخطيطات اللسانية ، من النرويج إلى تركيا ، لو من أندونيسيا إلى كوبا ، مروراً بالمغرب ، كان العامل الفكري ثابتاً من القوايت البيئية .

بالطبع . يمكن للعلاقة بين الفكرية والتخطيط اللساني أن تظل علاقة ضمنية إلى هذا الحد أو ذاك ، لكنها تغدو بوجه خاص مفيدة للنظر والتدريس عندما تصبح علنية ، صريحة .

١٩/٧ - المثال الفيليبيني

من هذه الزاوية ، التخطيط اللساني في الفيليبين خير مثال يُضرب. الفيليبين هي ٧٠٠٠ جزيرة وعند سكانها ٢٧ مليون نسمة (سنة ١٩٧١) . وهي أيضاً عبارة عن أربعة قرون من الاستيطان الاستعماري الإسباني ، وسنة من الجمهورية المستقلة ، ثم هيمنة الولايات المتحدة اعتباراً من العام ١٩٠٠ . وهي أخيراً ثمانون إلى ١٥٠ لغة مختلفة ، حسب طبقي التقديرات ، وتخطيط لساني على شاكله هذه الوقائع الصالحة والحاضرة .

إن القومية الفيليبينية الأولى هي قومية نخبة محلية مناسبة . جعلت من الإسبانية اللغة القومية لجمهورية ١٨٩٨ الحالية ، وأعطت حرية تعليم اللغات المحلية ، ومنذ ١٩٠٠ ، فرصت للولايات المتحدة الانكليزية في التعليم الوطني ، بينما اللغات المحلية لم تحظ بالنتج بأي مركز رسمي بعد ١٩٢٤ ، تغيرت موازين القوى والتيارات الفكرية داخل الحركة القومية الفيليبينية ، لدرجة أنه صار يُقترح فيها عندئذ ، بهاجس الانحداد الوطني ، وضع لغة محلية مشتركة قوامها حائيات التاغالوغ (Tagalog) الممكنة في شمال الأرخبيل . ومنذ ١٩٤٠ ، باتت الفيليبينو (Pinoy) كافية الإرضاء للبدء بتعليمها ، وأُعترف بوجودها الرسمي سنة ١٩٤٦

لكن في خلال ذلك ، توافق الغزو والاحتلال اليابانيان ، ثم استرجاع الولايات المتحدة للفيليبين ، وأخيراً توافقت الاستقلال النظري الممنوح بعد ذلك للبلد ، مع كثير من التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي حالت دون بقاء الفكرية القومية موحدة لدى الفيليبينيين، ومنذ ذلك الحين وضع على المشرحة تفوق الاقليمية التاغالوغية وما تمثل ، بشكل منهجي منتظم . إن اسم هذه اللغة القومية بالذات ، المثال جداً بمفاهيم متعلقة بهذه الإقليمية ، قد

جرى تغييره وتحويله من (Filipino) إلى (Pilipino) . غير أن تعليم الفلبينيين لم يوضع بعد على المشرحة مباشرة . يستخلص من احصاء أجري عام ١٩٧١ ، أن اللغة القومية يتكلمها من الآن فصاعداً أكثر من ١٠٪ من السكان . وفي سنة ١٩٧٢ . لم يبق في الواقع للقومية الفلبينية أي شيء موحد . فهناك فريق من الطبقة القائدة يرفض حق فريق آخر : الفريق الذي يدافع عن اللغة القومية الفلبينية ، والذي يمثل بين أمور أخرى الإقليمية التاغالوغية ، يرفض حقّه في فرض نموذجه وعاداته اللغوية على البلاد قاطبة . إن الميثاق الدستوري الجديد ، على الرغم من النتائج الأولى لأربعين سنة من التخطيط اللساني ، يحترف بالفلبينيو كلغة قومية ولم يعد ثمة سوى ثلاث لغات رسمية في الفلبين ، الانكليزية والإسبانية والعربية . بانتظار قيام لغة قومية جديدة أن يتعين عليها أن تُرأس على لغة واحدة أو على ثلاثة واحدة من الران المحلية

٢٠/٧ - الفكرية والتخطيط اللساني في الاتحاد السوفياتي

غالباً ما كانت في الاتحاد السوفياتي أيضاً ، العلاقات صريحة بين السياسة والتخطيطات اللغوية والفكرية . فقبل ١٩١٧ بكثير ، كان الماركسيون يناقشون السياسة اللغوية ، وبالأخص ما من شأنه تحديد إختيار اللغات القومية في إطار الاشتراكية ، وبالتالي بعد استلام الحكم . كان ليفين يتفكر في هذه المسائل منذ ١٩١٢ . وكان من شأن ضرورة العوامل الاقتصادية ذاتها أن تحدد أية لغة يمكن للأكثرية في بلد معين أن تتعلمها بقائده وجدوى ، وفي مصالح التجارة بالذات . كانت هذه الطريقة في الاختيار هي الأضمن . وكان الاهالي يمكنهم أن يتقبضوها بطيعة خلسة ويسرعوا وسعة متناسبة مع مقدار الممارسة الديمقراطية لوضع وأقبل (18 septembre)

وعلى المدى الأطول ، كان من شأن ظهور دولة اشتراكية عالمية أن يبريد من سرعة تبني لغة مشتركة ، هي أيضاً عالمية . ولكن في انتظار ذلك ، سيكون ميراث سياسة الروسية اللغوية ، التي كانت سياسة القيصرة ، عبئاً ثقيلاً على ديمقراطية محتملة تعقب الامبراطورية . لقد كان لينين معارضاً لتبني الروسية كلغة رسمية للدولة (8 décembre 1913, Sochinenia, XVII, 89).

بعد ١٩١٧ ، واصلت السياسة اللغوية عكس الميول النظرية . فكان كل من يقترح تبني لغة مشتركة في الاتحاد السوفياتي يرى نفسه موسوماً بوحمة التحريفية الشولينية الروسية العظمى . وكان ذلك هو عصر تكوين البنى الدولانية الخاصة بالمتحركات الثقافية ، اللغوية ، أو الإثنية التي كانت القيصرية قد حاولت سحقها . كما كان عصر اللغات القومية بلا راموز مكتوب ، المزودة بتدوين قوامه الأبجدية اللاتينية . وكان لهذا الاختيار للأبجدية اللاتينية بالذات أساس فكري ، لأن الكثيرين من منطري الثورة كانوا يعتقدون أنه أن مركز الدولة السوفياتية العالمية المقبلة لا يمكنه أن يكون الاتحاد السوفياتي . ولكنه قد ينتقل إلى أوروبا الغربية وربما يكون اللغة المشتركة لهذه الدولة حظاً ضئيلاً في أن تتأثر بالروسية ، وبالتالي فإن راموزها المكتوب قد لا يكون قائماً على الأبجدية الكيريلية (Cyrillic) . وإن اختيار الأبجدية اللاتينية منذ ذلك الحين للغات القومية بلا راموز مكتوب ، معناه بكيفية ما توفير مرحلة . وفوق ذلك ، كان لهذا الأمر العنصر في تجنب كل مخاطر الشوفينية الروسية العظمى .

ومع تطبيق نظرية جديدة ، نظرية Labed ، الموسومة بـ « نظرية الصراع بين ثقافتين » ، اعتباراً من ١٩٢٢ ، تجدد ظهور تدريس الروسية في كل مدارس أوكرانيا ، بينما كانت

البروليتارية الحضرية وحدها تتكلم الروسية في هذه الجمهورية ،
 وكان الفلاحون يتكلمون اللغة الأوكرانية . وبعد ذلك ، سيقوم ستالين
 بتوجيه السياسة والتخطيط اللغويين في الاتحاد السوفياتي ، بإسم
 المناقشات الفكرية الجديدة والنظريات الجديدة ، « ثقافة قومية من
 حيث الشكل ، لكنها اشتراكية في المضمون » . إمكان أو عدم إمكان
 لغة مشتركة في الحقبة التي تلي مباشرة « انتصار الاشتراكية في
 بلد واحد » (mars 1929, Sochinenia, XI, 342-344) وفي نهاية
 الثلاثينات (١٩٣٠) زوّدت اللغات التي كانت قد ظلت بعد ١٩١٧
 أول تدوين مؤسس على الأبجدية اللاتينية ، بتدوين جديد قوامه هذه
 المرة الأبجدية الكيريلية ، في ١٢ آذار (مارس) ١٩٣٨ ، قرّرت
 الحكومة السوفياتية أن تعليم الروسية سيضمحل وفقاً لنموذج واحد
 مدارس جميع جمهوريات الاتحاد . كما أن النقاش الذي حظي سنة
 ١٩٥٠ بأوفر التطبيقات على المساحات الفكرية الكبرى ، والذي
 خاضه ستالين حول موضوع نظريات نيقولاس أحقر (Nicolas I. Marr)
 ومدرسته اللغوية ، كان أيضاً قد أثير أخيراً ، وإلى حد كبير جداً ،
 من جزاء المسائل التطبيقية للتخطيط اللغوي (Good man, world lan-
 guage, p 717-736) .

الأبحاث والتجارب اليوم

V/٢١ - ثوابت التجارب العاضية

لوضع نظرية خاصة بالسياسة اللغوية وبالأخص بالتخطيط اللساني ، كان من المناسب أولاً استخلاص الثوابت ، وكذلك استخراج العبر ، من التجارب المتراكمة حتى يومنا هذا .

ففي عداد المكونات المستقرة ، تُصنّف حالياً المراحل المختلفة التي تبني مجمل المسار التخطيطي اللغوي . وأولى المراحل هذه هي مرحلة اتخاذ السلطات الحكومية القرار السياسي بتخطيط إنماء لغة ما وكيفيات استعمالها ، واصطفاً اللغة ذاتها ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وفي أغلب الأحيان ، تظل هذه المرحلة الأولى بكاملها خارج ميدان اللساني ، في حين أنّ المراحل التالية ، تلك التي يجب أن تفضي إلى قولبة اللغة المُختارة ، تدخل في هذا المضمار . ومرحلة القوينة أو التقييد هي مرحلة وضع النماذج الصوتية ، القواعدية والمعجمية التي ستسمح باستقرار اللغة ، والتي ستمنحها على هذا الوجه إمكان القيام ، على أفضل نحو ، بما يسميه البعض وظيفتها المرجعية (Fonction de référence) ، ويكون للمتكلمين هواجس تصويبية يفترض التمكن من الرد عليها ، حتى تقبل اللغة بيسر وسهولة من قبل المتخذ بأسره . وفوق ذلك ، تستطيع القوينة وحدها أن تخلق الإطار المستقر الذي ستتطلق منه ، كما يقال ، ممارسة الإبداعية والصياغة الأدبية . وإذا كان يتعين

على القوتنة (من ترميز وتقييد) أن تكفل اللغة استقراراً مرناً كافياً للسماح لها بالتكيف مع تطورات ثقافية مقبلة ، فإن الإصرار (Elaboration) يتعين عليه من جهة أن يجعل اللغة متلائمة مع الحاجات الثقافية والعلمية والتكنولوجية القائمة.

والقوتنة والإصران مرحلة من تخطيط التدوين أو المدونات (Planification du corpus)، ذلك الذي تقع مسؤوليته على اللساني مباشرة . ولكن من الممكن أن تظهر دائماً في هذه المرحلة مصاعب وعقبات مردها إلى الماديات والمواقف اللغوية للمتكلمين والمخططين أنفسهم . وقد ترجع هذه المصاعب إلى تخطيط مراكز (Planification des statuts) اللغة .

٢٢/٧ - التوقع والمراقبة

إن دراسات مقارنة للكلفة المتوقعة والفوائد المرتقبة ، يمكنها أن تختصر بشكل مفيد مرحلة تطبيق التخطيط ، تلك التي تتزود فيها السلطات الحكومية بالوسائل المادية لفرض قرارها والعتقبات الطارئة على اللغة من جزاء القوتنة والإصران .

وحتى دون انتظار نهاية مرحلة التطبيق ، يتعين البدء ليس بتكوين النتائج الأولى وحسب ، بل أيضاً الطرق المستعملة بشكل خاص . ولا بد للتقويم من أن يكون فرصة دائمة للتصويب الذاتي والتكيف المتواصل للخرائق والمناهج ، على أساس الاختبار الجاري بالذات .

وإن معرفة اللغة من جانب مستعمليها ، والموقف الذي يتخذونه تجاهها ، والاستعمالات الواقعية التي يمارسونها ، هي كلها معايير لنجاح تخطيط ما لو فُعل .

V/٢٣- المعيار، المعيار الفوقي وصف لم وصفة

بوجه عام - يُعتبر الإشتراط الفكريّ للتخطيط اللسانيّ كائن واحد من مكونات المسار الثابتة، لكنّه يقوم بكيفية شديدة التنوع. فبعض اللسانيّين الاجتماعيين لا يذهبون أبعد من موقف الاستنتاج المؤلم والمؤسف لهذا الإشتراط، كما هو حال هذا الباحث الذي كان يرى سنة ١٩٧٢، وبعد دفاعه عن الفيليبينو، كيف أنّ اقتراح المجلس الدستوريّ الفيليبينيّ كان يقضي على عمل أربعين سنة من التخطيط اللسانيّ :

• The hand of politics seems to be ever present even in matters of language - (Bonifacio Sibayan, Philippines, pp.221 - 254).

وثمة آخرون جعلوا من هذا الإشتراط الفكريّ معياراً تصنيفياً لمختلف النماذج التخطيطية : فكلما قلّ المنطوقون واللسانيّون من ادخال العواطف والخصوصية والأحكام القيميّة في النموذج ... ازداد النموذج الذي سيضعونه ، دقّة وعقلانيّة . إن من المناسب التخلّص من كل ابتسار صوفيّ ومن كل حكم قيميّ في موضوع اللغة، فاللغات هي أدوات إبلاغية، وهي بهذه الصفة يمكن تقويمها علمياً بمقتضى فعاليتها التي تدور، منذئذٍ، ملائمة وحدها . إن اللغة الأفعل هي اللغة التي تسمح لها تراكيبها بأن تبليغ أقصى النتائج بواسطة الحد الأدنى من الوسائل . كما يقول هؤلاء الذين يستمّون أحياناً بالادواتيين المعياريين الجدد . ويفرّدون أنّ المهمة الأكثر إلحاحاً هي أولاً إزالة الأضرار التي تمكّنت عدم أهليّة نحويّين مسبوقين من إلحاقها مثلاً بفعاليّة لغات مقولبة من ذي قبل ، وذلك بحفاظهم على أكثر البائدات ضرراً، مدفوعين بدوافع المحافظة المتزمتة والرومانسيّة القومية والطهرانيّة. وإذا كانت التباينات الأسلوبية مرجوة تلاماً ، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى التباينات

التركيبية من صرف ونحو : قلقة مثل الاستونية تملك ٧٠ دالاً متبايناً وغير قابل للموقع إلا نادراً ، مقابل مدلول واحد هو « Gériit » (توليدي) ، ستستلزم لاكتسابها وقتاً أطول ، وستعمل عيناً ذاكرياً أثقل . وعندما يواصل التعليم استعمال أعداد صوتية صار مربوطةا الوظيفي معدوماً في اللغة ، قبلته لا يسير في اتجاه الفعالية . وإطالما جرى تصور المعيار بوصفه قوينة اللغة الأدبية وهذا ، وجرى فرض تعقيدات بالغة التشدد لدرجة أنها كانت تحرم المتكلمين والمخططين من كل دليل على إمكانات تطور اللغات ، كما كان يؤكد فالتر تولي سنة ١٩٧٢ (Valter Taui, Language planning, p.49-60).

من المؤكد أن البحث عن نظرية للتخطيط اللساني قد جذدت فتح السجلات التي لم تختم أبداً بشكل نهائي ، والتي تتعكس فيها وجهتا نظر الوصف والوصف ، البحث الأساسي والبحث المطبق . وعندما يتعلق الأمر بتغيير أو بنمذجة منظومات صوتية ، قواعدية أو معجمية ، فإن المخططين واللغائيين في أمم آسيا أو أفريقيا الجديدة ، هم بحاجة إلى لسان توصيفية أكثر مما هم بحاجة إلى لسان وصفية أو حتى تبشيرية . وإذا كانت اللسان الحديثة لا تسلم بهذا الأمر ، فإنها ستفشل ، كما أعلن في ماليزيا سنة ١٩٦٤ (Alis-jahbana, Indonesia and Malaysia, p.391-416).